المركز القومى للترجمة

الجزء الأول

الأرض والتطور البشرى



تأليف: لوسيان فيفر
ترجمة: محمد السيد غلاب
مراجعة: إبراهيم أحمد زرقانة
تقديم: فاروق عبد الجواد شويقة

ميراث الترجمة
1788

ليس هذا الكتاب مقدمة جغرافية للتاريخ بالمعنى الحرفى للعبارة، إذ لم يضع المؤلف نصب عينيه أنه يقدم كتاباً لقراء التاريخ، ولكنه انشغل بمشكلة أهم فى نظره، وفى نظر علماء الجغرافيا فى ذلك الحين، ولا تزال هذه المشكلة محل بحث وموضوع مناقشة حتى الوقت الحاضر. هذه المشكلة هى ماهية العوامل الجغرافية وموضوع أثر البيئة فى الإنسان. وهنا يقف الأستاذ لوسيان فيفر موقف المتشكك فى "أثر البيئة" - وفى "الإنسان" نفسه، إذ ليس هناك بيئة لها أثر فى إنسان مجرد، بل ليس هناك مثل هذا المخلوق المجرد، فالإنسان يعيش عضواً فى مجتمع، ينتمى إلى طائفة من طوائف أو طبقة من طبقات هذا المجتمع.

تصميم الغلاف: مروة أحمد

الأرض والتطور البشرى

الجزء الأول

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1788
- الأرض والتطور البشرى: الجزء الأول
- لوسيان فيفر
- محمد السيد غلاب
- إبراهيم أحمد زرقانة
- فاروق عبد الجواد شويقة
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

La Terre et l'évolution humaine

Par: Lucien Febvre

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الأرض والتطور البشرى

الجزء الأول

تـأليـــف: لــوسيــان فيــڤــر
ترجمة: محمد السيد غلاب
مراجعة: إبراهيم أحمد زرقانة
تقديم: فاروق عبد الجواد شويقة

2015

فيفر، لوسيان.
الأرض والتطور البشرى/ ألفه: لوسيان فيفر؛
ترجمة: محمد السيد غلاب؛ راجعه: إبراهيم
أحمد زرقانه. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠١٥.
٢١٦ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٩ ٠١٩٨ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ النشوء، والارتقاء.
٢ ـ البيئة، علم.
أ ـ غلاب، محمد السيد (مترجم)
ب ـ زرقانه، إبراهيم أحمد (مراجع)
ج ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤٨٠/ ٢٠١٥
I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0198 - 9
ديوى٥٧٧

محتويات

تقديم هذه الطبعة

هذه إصدارة ثالثة للترجمة العربية لكتاب لوسيان فيفر الذى صدر من مجلدات الموسوعة الفرنسية «تطوُّر الإنسانية ـ L'Evolution de L'Humanité».

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، ونشر ضمن مجموعة تاريخ المدنية «History of Civilization» التى صدرت بإشراف «أوجدن ـ Ogden, C. K» عن جامعة كامبردج عام ١٩٢٥، ثم فى عام ١٩٣٢، وأخيرًا فى عام ١٩٥٠.

وموضوع الكتاب الذى بين أيدينا ترجمته للعربية بجهد أستاذى محمد السيد حسين على غلاب (أستاذ كرسى الجغرافيا والأنثروبولوجيا)، وبمراجعة إبراهيم أحمد رزقانة (أستاذ كرسى الجغرافيا التاريخية) موضوع قديم وجديد فى آن واحد، ذلك هو ما يعرف بالتفاعل المتبادل بين البيئة والإنسان.

ولقد جاءت ترجمة هذا الكتاب للعربية كى تُعلِّم بفكر المدرسة الألمانية التى نادى فيها فردريك راتزال، ومن بعده فى المدرسة الفرنسية فيدال دى لابلاش بما يعرف بالجغرافيا الأنثروبولوجية «Anthropogeography»، وهى التى أصبحت حاليًا، فى موضوعها، قريبة مما يُعرف بالإيكولوجيا البشرية «Human Ecology».

والجدير بالإشارة أن هذا المجال العلمى، ليس له علاقة بالنطاق الواسع من الجغرافيا الذى يُعرف بالجغرافيا البشرية Human Geography، ذلك أن هذا الأخير من الاتساع بحيث يتضمن كل ما تضيفه ثقافة الإنسان على الواقع الطبيعى، وليس التفاعل بين البيئة والإنسان.

أما الإيكولوجيا البشرية، فهى مجال من مجالات العلوم الجغرافية (الإيكولوجية) والعلوم البيولوجية خاصة فيما يتعلق بتفاعل الإنسان مع البيئة،

بمجالاتها ومكوناتها المختلفة، لذلك فإنها تعتمد فى بحوثها ودراساتها على البحوث والدراسات المتعمقة فى مجال العلوم الجغرافية الإقليمية الدقيقة Mi-cro Regional Geography . بما تشمله من علوم مركبة وبينية ومتداخلة عديدة مثل:

- علم المناخ الطبى Medical Climate.
- أثر المناخ على الزراعة Agriculture of Climate.
- سلاسل الغذاء Food Chains.

وغيرها.

هذا من جانب البيئة، أما من جانب الإنسان، فإننا نجد أن مجال الإيكولوجيا البشرية يتداخل مع علوم اجتماعية وإنسانية أخرى كثيرة، منها:

- علم النفس الاجتماعى Social Psychology.
- علم السكان Demography.
- علم الأجنة البشرية Human Embryology.

وغيرها كثير.

لذا تعتمد البحوث فى مجال الأيكولوجيا البشرية على منهجين:

الأول: المنهج الوصفى، وهو الذى يعتمد على وصف عناصر البيئة المختلفة.

الثانى: المنهج التحليلى، وهو الذى يدرس العلاقة بين عناصر ومكونات البيئة، وما تحويه من تفاعل يخلق فى النهاية نمطًا متميزًا تعرف به البيئة وتتمايز به هذه البيئة عن غيرها من البيئات، وغالبًا ما يتضمن هذا المنهج التحليل الرياضى.

والجدير بالذكر أن كلمة البيئة Ecology، كما صكّها إرنست هيكل Heakl.E مشتقة من الكلمة اليونانية Oikos بمعنى بيت House؛ أى المكان الذى يحيا فيه الكائن الحى؛ لذا كانت الإيكولوجيا البشرية ـ كما ذكرنا ـ العلم الذى يحوى كل

البحوث والدراسات المتعلقة بالتفاعل بين البيئة والإنسان، وهذه هى Anthropo-ecology - التى يمكننى أن أضع فى مجالها الدراسة المعروضة فى هذا الكتاب الذى كتب فى بداية العقد الثالث من القرن الماضى (العشرين).

وموضوع هذا الكتاب أراه مدخلاً أساسيا لكل مَن يبغى وضع الخطط كى يستفيد من الظروف والإمكانات المتاحة فى بيئته، ينطبق هذا على الأفراد وعلى المجتمَعات وعلى الدول على حدٍّ سواء.

حدث هذا فى الماضى، حيث كان أثر البيئة أقوى وأكبر على الإنسان؛ فكانت مدرسة الحتمية. ولكن مع تزايد الوعى الإنسانى والتقدم الثقافى والعلمى والتكنولوجى، أخذ تأثير الإنسان يزداد على البيئة ويطوعها أكثر وأكثر؛ فكانت مدرسة الإمكانية حتى بلغ الإنسان أجواز الفضاء؛ فكانت مدرسة الاحتمالية؛ وظل الإنسان يتطلع إلى المزيد بفضل كلمة الله وأمره الذى استودعه سبحانه فى عقله ويده.

ويغلب على هذا الكتاب - بحكم فترة كتابته - أنه يدخل فى المدرسة الحتمية Determinism - وهى المدرسة البيئية Environmentalist، التى كانت للبيئة بعناصرها الطبيعية التى لا تُقاوم الأثر الكبير واليد العليا فى تسيير مجرى الحياة.

ولكن الإنسان - الفرد والمجتمع - كخلق من مخلوقات الله؛ استودعه سره الأعلى وأعطاه كلمته - من خلال العلم الوهبى والعلم الكسبى - تمكن وما زال وباستمرار من تحسين علاقته بما يحيطه ويحيا فيه من مكان وزمان (وهذه هى البيئة الأنثروبولوجية) فكان التقدُّم الذى يُشاهد دائمًا فى الحياة الدنيا.

لذلك عند قراءة هذا الكتاب لا ننسى تاريخ كتابته فى أصله باللغة الفرنسية، وكان ذلك فى أعقاب نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨). ومعنى هذا أن إرهاصات موضوعاته نبتت وترعرعت فى بيئية (زمكان) أوربا أثناء هذه الحرب التى فقدت فيها البشرية مئات الآلاف من الأرواح وخسرت فيها الكثير من الممتلكات والثروات.

من أجل هذا كان عرض «لوسيان فيفر» للبيئة الجغرافية التى عمادها الإطار المناخى النباتى، متأثرًا بما شاهده من بداية نتائج التقدم العلمى والتكنولوجى

الذى بلغ أوجه وازدهاره ـ فى عهده ـ زمن الحرب العالمية الأولى؛ وما صاحبها من تغييرات تكنولوجية واجتماعية، فكان نتيجة ذلك أن بدأت تظهر بذور فكرة الاختيار والإمكانية فى العلوم والجغرافيا والبيئية والإيكولوجيا فى أوريا وخارجها.

فكان أن تحقق قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ..﴾ (سورة البقرة: ٢٥١).

فكان أن استفادت البشرية؛ بأن زادت سطوة الإنسان بقدراته على البيئة، نتيجة لما خلفته هذه الحروب من أفكار ساعدت على دفع التقدم التكنولوجى (ومنها آلات الدفع الميكانيكية ـ الإذاعة ـ الإلكترونيات)؛ وهذا ما يُعرف بفكر مدرسة الإمكانية التى تعرض لها بالدراسة لوسيان فيفر فى كتابه هذا بجدارة واقتدار.

ذلك أن هذا الباحث المقتدر قد استطاع أن يمهد لفكرته التى دعا وحارب من أجلها وهى نظرية الإمكانية، ثم ما تبعها من نظرية الاحتمالية، كانت من بين دوافع الفكر العلمى للتقدُّم والرقى بعد ذلك.

ولا شك أن مناخ الحرية (مع الإخاء والمساواة) الفكرية فى فرنسا (حيث موطن وبيئة المؤلف) وفى أوريا عمومًا منذ عصر النهضة، وتزايده صعودًا ـ غالبًا باستمرار، عمل على إزكاء ظهور هذه الأفكار والدوافع البنّاءة، خاصة مع انتقالها إلى العالم الجديد حيث الإمكانات أكثر وأقوى وأرحب.

ويكشف هذا الكتاب عن مكونات ومكنونات المؤلف الإنسانية، حيث تتجلّى ـ فيما عرضه وكتبه ـ أفكارٌ ونظريات كثيرة، تكشف عن قيم أنثروبولوجية عديدة، يستطيع كل إنسان أن يستخلصها ويصل إليها من علاقته بالبيئة التى يعيش فيها، مهما كان حالها، ذلك أن كل شىء قابل للتغير والتطوير والتحسين، فالتطور دائمًا فى تطوُّر.

لذلك فإننى أعتقد جازمًا أن قراءة هذا الكتاب تفيد؛ إذ تفتح باب الأمل فى التغيير إلى الأفضل دائمًا وباستمرار.

والله من وراء القصد

أ. د. فاروق عبد الجواد شويقة
أستاذ الجغرافيا والأنثروبولوجيا
جامعة القاهرة
٢٠١٠/١٠/٣٠

مقدمة الترجمة العربية

هذا الكتاب هو المجلد الرابع للموسوعة التاريخية الفرنسية الكبرى، «تطوُّر الإنسانية - L'Evolution de l'Humanité»، التى بدأت فى الصدور تحت إشراف الأستاذ «هنرى بر - Henri Berr» منذ قبيل الحرب العالمية الأولى، والتى لم تكتمل مجلداتها التى تزيد على المائة بعد، ولم تسبق هذا المجلد إلا مجلدات ثلاثة، بحثت عن تطوّر الأرض الجيولوجى، وعن الإنسان فى عصر ما قبل التاريخ، وعن دراسة اللغة وأهميتها التاريخية. وكان من الطبيعى أن يوضع مجلد عن علاقة الأرض أو البيئة بالتطوُّر البشرى، أو كما ترجم إلى اللغة الإنجليزية، مقدمة جغرافية للتاريخ.

وقد ظهر هذا الكتاب فى أولى طبعاته عام ١٩٢٢، ثم ظهرت منه طبعة ثانية عام ١٩٢٤، وأعيد طبعه للمرة الثالثة عام ١٩٤٩. وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية فى مجموعة «تاريخ المدنية - History of Civilization» التى أصدرها الأستاذ «أوجدن - C. K. Ogden» بجامعة كامبردج عام ١٩٢٥، وظهرت له بعد ذلك الطبعتان الثانية ١٩٣٢ والثالثة ١٩٥٠ بهذه اللغة.

وليس هذا الكتاب مقدمة جغرافية للتاريخ بالمعنى الحرفى للعبارة، إذ لم يضع المؤلف نصب عينيه أنه يقدم كتابًا لقرّاء التاريخ، ولكنه شُغل بمشكلة أهم فى نظره، وفى نظر علماء الجغرافيا فى ذلك الحين، ولا تزال هذه المشكلة محل بحث وموضوع مناقشة حتى الوقت الحاضر. هذه المشكلة هى ماهية العوامل الجغرافية وموضوع أثر البيئة فى الإنسان. وهنا يقف الأستاذ لوسيان فيفر موقف المتشكك فى «أثر البيئة» - وفى «الإنسان» نفسه، إذ ليس هناك بيئة لها أثر على إنسان مجرّد، بل ليس هناك مثل هذا المخلوق المجرّد، فالإنسان يعيش عضوًا

فى مجتمع، ينتمى إلى طائفة من طوائف أو طبقة من طبقات هذا المجتمع. ولدينا فى الواقع مجتمعات إنسانية، وليس إنسانًا مجرّدًا. ولكل من هذه المجتمعات نظامها الاجتماعى والاقتصادى، ولكل منها تقاليدها ومثلها، وآمالها وأمانيها، وكل هذا يكوّن الجانب الإنسانى فى البيئة، الذى يؤثر بدوره فى وسيلة استغلال المجتمع لما تقدمه البيئة من إمكانيات، أو بعبارة أخرى فى أسلوب حياتها.

ليست المسألة إذن هى مسألة أثر البيئة فى الإنسان أو أثر الإنسان فى البيئة، ولكنها مسألة «علاقات» علاقة المجتمع الإنسانى بالبيئة، وعلاقة البيئة بالمجتمع الإنسانى، وعلاقة المجتمع الإنسانى بالمجتمعات الأخرى.

دراسة العلاقات المكانية إذن هى موضوع علم الجغرافيا، إذن فقد تخلص لوسيان فيفر من تراث قديم انحدر إلينا من أيام هيبوقرُاط، وظهر فى كتابات أرسطو، ثم ظهر فى كتابات بودان ومونتسكيه وغيرهما من كتاب المقالات، ثم تلقفته المدرسة الجغرافية الألمانية التى سعى مؤسسوها (رتر وهيبولدت وراتزال) إلى وضعها على أسس مادية ثابتة، لكى يجعلوها «علمية»، وقد ساعد على ذلك ظهور نظرية التطوٌر لداروين، التى تقول: إن الكائن الحى يتلاءم مع بيئته، فلا بد أن يتلاءم الإنسان أيضًا مع البيئة، وبمعنى آخر لا بد وأن البيئة تكيّف النشاط البشرى.

وتعبر الآنسة إيلين سمبل عن وجهة النظر هذه بقولها: «إننا لن نستطيع أن ندرس الإنسان دراسة علمية وهو منفصل عن الأرض التى يفلحها أو التى يدب عليها، أو البحر الذى تمخر عبابه سفنه، كما أننا لا نستطيع أن ندرس الدب القطبى منفصلاً عن البيئة القطبية أو الصبار الصحراوى بعيدًا عن الصحراء وجدبها».

بل إنها لتفتتح كتابها المشهور عن المؤثرات الجغرافية بقولها: «الإنسان نتاج الأرض، تراب من ترابها، وهذا لا يعنى فقط أنه ابن الأرض، تراب من ترابها، بل إن الأرض هى التى ربّته وأطعمته، وواجهته بالمشاكل، ووجهت أنظاره وجابهته بالصعاب، وفى الوقت نفسه همست له بحلولها، إنها تخللت عظامه ولحمه، وروحه وعقله».

هذه هى المدرسة البيئية أو الحتمية (Environmentalists or determinism) التى دأب الأستاذ لوسيان فيفر، متأثرًا بأستاذه فيدال دى لابلاش فى مناقشتها بصبر وإصرار، لكى يفند أخطاءها، ولكى يبيّن أن ليس هناك ضرورات بل إمكانيات، ليس الإنسان عبدًا للطبيعة، مخلوقًا سلبيًا، يتقبل المؤثرات الخارجية، وليست قوانين الطبيعة الأزلية بقيد حديدى، كتب على الإنسان ألا يتحرّر منها، ولكنها مجرّد إمكانيات (Possibillties)، تنطوى على عدد لا حصر له من القوى الكامنة، والإنسان هو الحكم فى اختيار ما يلائمه من هذه الإمكانيات، وهذه الإمكانيات تتفتح للإنسان بطرق مختلفة، طبقًا لما أوتى من علم وذكاء ومهارة، وطبقًا لما تواجهه به ظروف الزمان من حاجيات. وأن الجغرافية البشرية لا تدرس إلا الإمكانيات، وعليها أن تترك الباب مفتوحًا أمام حرية اختيار الإنسان، طبقًا لحاجاته.

فالإنسان إذن - أو المجتمعات الإنسانية بعبارة أصح - فى نظر هذه المدرسة الإمكانية، عامل جغرافى، ولا أقل من هذا، أنه يساهم فى كل مكان بنصيب كبير فى تعديل سطح الأرض وتغييره، ومهمة الجغرافى أن يدرس مظاهر المكان المتغيرة من زمن إلى آخر، نتيجة للجهود البشرية المتوالية، وأن يظهر ما يقوم به الإنسان فى قوة وعزم نحو تهيئة البيئة لمطالبه والملاءمة مع مقتضياتها.

إن الإنسان ليس مجرّد مخلوق سلبى خاضع لمؤثرات البيئة، ولكنه قوة إيجابية فعّالة فى تهيئة البيئة لمطالبه أيضًا. إنه لا يوجد قطر من الأقطار لم تمتد إليه يد الإنسان بالتعديل والتغيير، ولا تحمل آثار نشاطه. وأن البيئة بإمكانياتها المعروفة ليست قدرًا مكتوبًا على الإنسان، بل إنه ليكتشف كل يوم جديدًا، ويوسع كل يوم من إمكانيات استغلال البيئة، ونحن لنتساءل الآن، أين الراعى التقليدى فى وسط آسيا، وأين اختفت خيام رعاة الجبل فى التركستان الآن، ومَن كان يظن أن البدوى سيهجر قطعانه ليعمل فى آبار البترول فى حقول الظهران والدمام، أو يتكدّس فى مصانع الصلب فى ماجنيتوجورسك وكوسنتز.

ليس هناك تحكم من جانب واحد، فلا البيئة تستأثر بالتأثير على الإنسان ولا الإنسان بمنفرد فى التأثير فيها، بل هناك تبادل تأثير بين قطبين متماثلين، هما البيئة والإنسان، وأن هذا التبادل يتم خلال الزمن. فالحدود التى تضعها

الطبيعة على إمكانيات المكان، ومجال اختياره، تختلف من مكان إلى مكان على سطح الأرض، ومن فترة تاريخية إلى أخرى. ومن قبيل الأوهام أن نظن أن الإنسان قد استطاع أن يتحرّر من ربقة الطبيعة واستبدادها تمامًا. والمدرسة الإمكانية لا تنكر أثر الظروف الطبيعية أو البيئة فى الإنسان، ولكنها فى نفس الوقت ترفض أن تكون العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة حتمية نهائية، تحكمها قوانين صارمة. بل إنها تؤكد حرية اختيار الإنسان من إمكانيات عديدة «من الممكن» أن يختار منها ما يشاء، وتؤكد استجابة الإنسان لظروف البيئة وليس خضوعه لها.

وقد بيّن الأستاذ لوسيان فيفر فى كتابه حدود الإمكانيات، وذلك بوصف كامل للبيئات الطبيعية الكبرى على أساس مناخى نباتى، كما وصف الأقاليم الطبيعية الثانوية التى تعتبر كالإطارات تحيط بالمجتمعات البشرية المختلفة، مثل بيئات الجبال، والسهول، والبيئات البحرية، والصحراوية، وتدرّج من هذا إلى أساليب الحياة التقليدية الرئيسية، مثل حياة الصيد والجمع والالتقاط وحياة الرعى وحياة الزراعة. وهو فى هذا كله يؤكد شيئًا واحدًا، حرية اختيار الإنسان طبقًا لعاداته وتقاليده، وحسب مقدراته العقلية وخبراته، وفقًا لحاجاته المتغيرة المتجدّدة باستمرار. فالطباع والعادات والتقاليد التاريخية ودرجة التقدم الحضارى والمهارات والقدرات العقلية والآلية، كلها هى التى توجه اختياره، داخل إمكانيات البيئة.

البيئة إذن - كما وصفها لوسيان فيفر - إطار مناخى نباتى كبير، فى داخله أقاليم طبيعية ثانوية، وهى أيضًا واسعة فضفاضة، يجول فيها إنسان يعيش فردًا فى مجتمع، له تقاليده وطباعه، ويعيش فى مستوى معين من الحضارة وعلى قدر معيّن من المقدرة العقلية والآلية، له حاجاته، يحاول أن يشبعها مستعينًا بهذه المقدرات ومتأثرًا بتلك التقاليد، وهو على قدر كبير من الحرية فى اختيار ما تقدمه البيئة من إمكانيات، ولا يحد من هذه الحرية إلا درجة علمه وذكائه ومقدرته، وحدود إمكانيات البيئة نفسها.

وهو فى هذا الاختيار متطوّر متغير، تتطور مقدراته، فتتطوّر اكتشافاته لإمكانيات البيئة، لا جمود ولا قدرية، بل تطور وحرية اختيار.

ولقد كتبت لهذه الفلسفة الجديدة للجغرافيا أن تكون هى المسيطرة الآن فى كتابات الجغرافيين، لا فى فرنسا فحسب، بل فى بريطانيا وأمريكا أيضًا، بل لقد

اضطر، مَن لا يزال متشبثًا بأهداب الحتمية من تطوير حتميتهم، مما جعلها أقرب ما يكون للإمكانية، ولا يمثل الحتمية فى الوقت الحاضر سوى «جريفث تيلور ـ Griffith Taylor» فى أمريكا بينما أخذ روكسبى وفلير فى إنجلترا، وبومان وكارل ساور فى أمريكا إلى جانب دى لابلاش وديمانجون وبرن فى فرنسا بالنظرية الاختيارية، والواقع أن الجغرافيين الآن قد انتهوا من هذه المسألة إلى سبيل وسط، إنهم يسلمون بحرية الإنسان فى اختيار إمكانيات البيئة، ويسلمون أيضًا بأن هذه الإمكانيات محددة بظروف البيئة الجغرافية. فكأنما البيئة تنطوى على إمكانيات عديدة فى حدود معينة، لا تفهم منها إلا حدود المناخ والنبات، والسؤال الذى يسأله لنفسه باستمرار، خصوصًا بعد تقدمه العلمى والتكنولوجى، هل اختيار هذا الأمر أو ذاك ضرورى أم أنه غير ضرورى؟ وإن كان ضروريًا وحيويًا، هل هو اقتصادى بحيث يستطيع المضى فيه أم يقنع بما هو بديهى من إمكانيات البيئة، وما لا يحمله فوق ما يطيق؟

وسيجد القارئ فى هذه الترجمة أن المؤلف اتبع أسلوبًا جدليا؛ لأنه كما قلنا كان داعية نظرية معينة، كانت جديدة فى هذا الوقت، فكان عليه أولاً أن يزيل أوهام النظرية الحتمية، ثم يمهد لنظريته ويقدمها، وهو حتى فى تقديم نظريته، لا يفعل ذلك إلا بالرجوع باستمرار لنظريتها الحتمية. وربما لم يكن من الميسور لشخص آخر سوى لوسيان فيفر أن يخرج مثل هذا الكتاب. فهو مؤرخ بحكم تكوينه الأكاديمى، اهتم بالجغرافيا وقرأها ونقدها. وهو مسلح بإلمام واسع بالعلوم الاجتماعية وبنظريات إميل دوركايم عن المورفولوجيا الاجتماعية، وبكل ما وصلت إليه علوم الإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا من كشوف.

لقد كان كاتبًا إنسانيا بأوسع معانى الكلمة، امتزجت فيه الدراسات التاريخية والجغرافية، بالعلوم الإنسانية الأخرى من أدب وفلسفة واجتماع، واجتمعت لكى تدرس مشكلة العلاقات كما سماها، علاقة الإنسان بالبيئة وعلاقة البيئة بالإنسان، وعلاقة المجتمعات الإنسانية بعضها ببعض. ولعله كان يدرك أن الجغرافيا هى العلم الذى يدرس الظاهرات المختلفة (طبيعية وبشرية) مجتمعة فى المكان.

مثل هذه الدراسة ذات قيمة كبرى لا للجغرافى فحسب، بل للمؤرخ ولعالم الاجتماع أيضًا، ولا نغالى إذا قلنا لكل المهتمين بالدراسات الإنسانية فهى مثَل رائع لتكامل المعرفة «الإنسانية» كما ينبغى أن تكون.

وقد يُقال إن أمثلة هذا الكتاب قديمة، ولكنها لا تقلل من أهميته بأى حال، فجميع أمثلته مأخوذة من بيئات متعددة، من فترات مختلفة من التاريخ، وهى كما يقول المؤلف ليست نهائية، وما على القارئ إلا أن ينسج على منوالها من الأزمنة الحديثة، وعلى الرغم من هذا فلا تزال أمثلة حية قوية كما كانت منذ ربع قرن. وليس أدل على ذلك من أن طبعته الأخيرة عام ١٩٤٩، فى فرنسا و١٩٥٠، فى إنجلترا جاءت خلوًا من أى إشارة إلى قدم بعض الأمثلة.

وليس لهذا أى أثر فى قيمة الكتاب، فهذا ليس كتاب مادة - رغم غناه الوافر بمادة غزيرة من فروع جغرافية واجتماعية وتاريخية مختلفة - ولكنه كتاب طريقة، دخل المكتبة الجغرافية لكى يحتل مكانًا مرموقًا بين الكتب المنهجية، فهو ينقد منهجًا ليبنى منهجًا آخر، ولا بدّ لكل مَن يتصدّى للبحث الجغرافى من أن يقرأه ويتفهمه وينقده بدوره، فهو من أجل هذا كله كتب فى لغته الأصلية، وترجم إلى الإنجليزية ومن أجل هذا أيضًا نقلناه إلى اللغة العربية.

ولقد كنا نرجع باستمرار للترجمة الإنجليزية لاستجلاء ما غمض من عبارة، ولا سيما التعابير العلمية الفنية فى علم الجغرافيا، وقد سرّنا أن المجلس الأعلى للآداب والفنون قد أشار علينا بذلك أيضًا.

وإننا لنرجو الله أن يجد هذا الكتاب ما هو جدير به فى أوساط زملائنا المشتغلين بالجغرافيا بالجامعات والمعاهد المختلفة.

والله ولى التوفيق.

المترجم

الإسكندرية فى ١٩٥٧/٦/١٥

تقديم

أثر البيئة فى الإنسان واستغلاله للأرض

يظهر الإنسان على مسرح التطوُّر نتيجة لذلك الدافع للحياة الذى يكوِّن الحياة ذاتها. إنه ذلك العامل المنطقى مبدع الآلة الناطق بالكلم. الذى وهب قوة إبداعية تزداد على مرِّ الزمن قوة ومضاء وتدفعها إلى الأمام اختراعاته الخارقة.

ما هو هذا الدور الذى قام به كل من العاملين الأساسيين ـ البيئة والعنصر؟ لا شك أن كلاً منهما له أثر محدود تحت شروط ظروف خاصة ولكنهما عاملان شاملان. ونحن نتساءل: إلى أى حد أثر كل منهما فى تقدم الفن والفكر؟ وإلى أى حد نستطيع أن نعتمد على فلسفات التاريخ وموسوعاته التى تجعل البيئة أو العنصر أو كليهما وسيلتى التطوُّر البشرى؟ (١).

إن الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن أن نجدها خلال كتابات الأستاذ فيفر والأستاذ بتارد (٢) فى هذه السلسلة من الكتب التى نقدمها، وها نحن اليوم نقدم كتاب أولهما، وقد استطاع فيه كما فعل زميله أن يحدد المشكلة فى أضيق حدودها الممكنة.

ليست مشكلة أثر البيئة فى الإنسان داخلة فى نطاق بحث الجغرافى الصرف. فالجغرافى الصرف لا يهتم كثيرًا بالتاريخ. بل إنه يقتصر على الجغرافيا؛ ولذلك فإن معالجة مثل هذه المشكلة المعقدة تحتاج إلى جغرافى تاريخى. أو مؤرخ جغرافى ضليع فى نفس الوقت بعلم الاجتماع. ولا شك أن هذا الكتاب سيثبت أن المؤرخ الذى يمتاز بسعة الأفق فى مادته. وعمق الفهم لها، والذى يميط اللثام عن

---

(١) La Synthése en Histoire, P. 77 ff.

(٢) M.Eug Pittard لقد قبل الأستاذ بيتارد مشكورًا أن يقوم بمعالجة هذا الموضوع.

السلوك البشرى ويسلط الأضواء على العوامل الخارجية والعوامل الداخلية التى تؤثر فى ذلك السلوك. والذى لا يهمل أى عامل له أثره فى ذلك السلوك بالرغم من تخصصه فى مادته. مثل هذا المؤرخ النادر المثال هو وحده الذى تؤهله ملكاته للقيام بمثل هذا العمل الدقيق المهم. ألا وهو دراسة العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية[1].

إن ميزة لوسيان فيفر الكبرى ـ كما سنرى ـ أنه يخضع للنقد العنيف جميع الأركان الغامضة و«القوانين» القابلة للجدل والعبارات الطنانة الجوفاء التى يكتبها غيره من الكتّاب دون سند من حقيقة أو تفكير عميق. فكان بروحه العلمية حربًا على العلم الزائف الذى يعمل بنظريات مبسطة تبسيطًا مخلاً يعود على الحقيقة بأوخم العواقب. فلا بدّ من التخصيص قبل التعميم. «فمشكلة البيئة» تتكون من عدد كبير من المشاكل الصغرى التى يلقى عليها لوسيان فيفر مزيدًا من الضوء يجعلها واضحة للفكر. ولا ريب أن كتابه غنى بالقوانين الإيجابية وبالفروض التى يضعها على أنها فروض. ولكنه كان يرمى أولاً وقبل كل شىء إلى إظهار المدى الذى أثرت فيه الأرض «موضوع الجغرافى» على سير التاريخ. وهو فى هذا يعتمد على ما كتبه زملاؤه فى هذه السلسلة وعلى فحص مقترحاته وآرائه ووضعها موضع الاختبار.

ومن ثم فإن كتابه يتفق تمامًا مع الغرض الأساسى لهذه الأسئلة. حيث إنها لا تهدف فقط إلى عرض نتائج أبحاث المؤرخين كما هى بل إنها تهدف إلى إلقاء الأسئلة وإلهام الباحثين بالآراء التى تهديهم فى أبحاثهم. وعرض مثال لعمل متكامل ـ نتيجة للتحليل الذى يضع نصب عينيه الفكرة المتكاملة، فالعمل المتكامل هو الذى تم طبقًا لخطة منظمة وليس مجرّد جمع نظريات لم يتم إثباتها.

لقد وضع لوسيان فيفر حدودًا معيّنة لموضوعه فضلاً عن الدقة العلمية التى توخاها. فهو لا ينكر أثر البيئة المباشر على تكوين الإنسان خَلقًا وخُلقًا ولكنه لا يتعصب للفكرة ويترك الموضوع مسألة عامة.

(١) قد شغل الأستاذ لوسيان فيفر نفسه منذ سنين بموضوع الجغرافيا البشرية. انظر بصفة خاصة الأجزاء الآتية (Revue de Synthése Historique) ٩ ص ٩٢، ١٦ ص ٤٥، ٢١٧، ١٧ ص ٢٥٨، ١٨ ص ٢٤٢، ٢٦٩، ١٩ ص ٤٣ ،٩٩، ٣٥ ص ٩٧ وفى هذا أجاب على كثير من النقد.

فلا ريب أن أثر البيئة قوى جدًا على الإنسان وهو فى طوره البدائى «إذ لا يمكن أن ننكر ـ كما يقول إدموند ببرييه ـ أن الجفاف والرطوبة والرياح القوية أو الضعيفة والضوء والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تعدل من صفات الكائن الحى تعديلاً دائمًا أو مؤقتًا. سواء كان هذا الكائن حيوانًا أم نباتًا. كما أن الطعام الذى يستهلكه الكائن الحى، طبيعته وكميته، نقصانًا أو زيادة يؤثر أثرًا أكبر فى نموه. ولا يمنع عجزنا عن بيان مقدار تأثر كل عضو من أعضاء الكائن الحى بالاستعمال أو الإهمال من أن نؤكد أن العضلات تقوى بالاستعمال وتضعف بالإهمال [1]». كما أن بعض الصفات ـ ولا نستطيع أن ندخل هنا فى تفاصيل قوانين الوراثة ـ المكتسبة تنتقل بالوراثة.

وتبدو أهمية تأثير البيئة الخارجية أكثر وضوحًا إذا أخذنا فى الاعتبار ما يترتب عليها من مشكلة المادة والتلاؤم معها فى البيئة الداخلية، نتيجة للمؤثرات التى تستقبلها من الخارج. وقد أكد أدموند بيرييه الذى أرجع فى دراسته للحياة التغيرات الناشئة فى الكائن الحى إلى أسبابها الخارجية. أكد هذا الكاتب أهمية الأسباب الداخلية القوية فى تعديل صفات الكائن الحى.

إن العناصر التى تكون الكائن الحى مستقل بعضها عن البعض الآخر ولكنها فى نفس الوقت مترابطة أشد الترابط، فكل خلية تشترك فى تكوين الجسم مع بقية الخلايا وتكسبه ما لا تحتاج إليه هى وحدها من نشاط زائد، فهو إذن بيئة داخلية تتحد العناصر المكونة لها فى بنائه وهو دائم التغير نتيجة للعوامل التى تجرى التعديل لهذه العناصر. سواء كان ذلك استجابة لعناصر البيئة الخارجية أم لأنها دائمة التفاعل بعضها فى البعض الآخر.

أى إن البيئة الخارجية تستطيع أن تؤثر فى الكائن الحى دون استجابة عناصر هذا الكائن لها ودون أن تشترك فى هذا التغيير. فالكائن الحى جسم عضوى شديد التفاعل بعضه فى البعض الآخر. ولا نستطيع أن ندخل هنا فى تفاصيل تفاعلات الكائن العضوى مع البيئة ولكننا سنعود إليها عندما نرى من عناصر البيئة الداخلية أن تاريخ الحياة ليس إلا تلاؤمًا حيًا لعوامل البيئة المتغيرة.

---

(١) Perrier,t. 1 de l'Evolution de l'Humanité, 99' pf. 231.

ولا نعدو الصواب إذا قلنا إن البيئة تفسر السلالة. فالسلالة ـ نظريًا نتيجة للبيئة ولكنها ـ كما قيل من قبل ـ نتاج سابق للتاريخ [١] ، ولا يستطيع الأستاذ لوسيان فيفر المختص بالتاريخ ـ والتاريخ الحديث بصفة أخص أن يعالج هذه المشكلة. ولكننا نرضى أنفسنا ونكتفى بالقول هنا: إن البيئة تركت بلا شك أثرها القوى فى تكوين الإنسان خلقًا ونفسًا، وأن قوة هذا الأثر ومدى تأثيره لا يزالان يحتاجان إلى بحث. أما فيما عدا ذلك فنحن نرجع القارئ إلى كتاب بيتارد.

وهناك مشكلة أخرى تظهر للباحث. إلى أى نقطة فى الفترة التاريخية نفسها تستمر البيئة فى إظهار قوتها وإيضاح أثرها؟ فإذا كان للمناخ هذا الأثر المباشر الواضح فى عالم الحيوان[٢] والنبات فهل يستتبع ذلك أن تميل كل بيئة طبيعية للتأثير ـ ولا نقول إنها تؤثر ـ فى الإنسان الذى يقطنها؟ ما العلاقة بين طول القامة مثلاً أو صبغة الجلد أو التكوين التشريحى، أى الصفات التى تتميز بها سلالة على سلالة وبين ظروف البيئة الطبيعية من مناخ وتربة وتوافر الطعام أو قلته. وما العلاقة بين طاقة الإنسان الذهنية وميوله العقلية وبين تلك الظروف كذلك؟ هذه أسئلة دقيقة تشترك مع علم الأنثروبولوجيا والتشريح من ناحية ومع علم الإثنولوجيا من ناحية أخرى. وقد تهم الجغرافى بعض الشىء ولكنها ليست داخل مجال بحثه [٣]. وعليه أن يكون شديد الحذر ولا يسرع بقبول نظريات التلاؤم مع البيئة الأولية. فهى نظريات لا يزال العلماء يتدارسونها ويبحثونها ويعيدون النظر فيها.

لقد أسىء استعمال فكرة «تأثير» عوامل البيئة الطبيعية، فى محاولة تفسير صفات الشعوب وميولها الذهنية. فقد كان من السهل على كل باحث أن يرجع ما غمض عليه تفسيره إلى أثر تلك العوامل. ولا غرابة فى الواقع فى أن مظاهر

---

(١) نفس المرجع ص ٢٨٨.

(٢) E. Raband, (L'Adaptation et l'Evolution,) iii, Rev. Philosophique, Jan - Fev 1922, P. 94

(٣) La synthése de Histoire, p. 78.

البيئة الطبيعية تؤثر فى خيال الشاعر وأن يستوحى الفنان البيئة الطبيعية التى يعيش فيها آيات فنه وربما لم يكن من المستطاع بناء البارتينون إلا على أرض أتيكا وتحت سمائها، ولكن وضع قاعدة عامة عن العلاقة بين البيئة والفن ستفتح للناقد الأدبى أو المؤرخ الأدبى مجالاً واسعًا للبحث [١].

إلا أن الإنسان يحمل معه صفاته الذهنية التى اكتسبها من بيئته الأصلية وينقلها معه مهاجرًا من وطنه مع قبيلته أو بمفرده. كما أن الناس يختلف بعضهم عن البعض الآخر اختلافًا لا نهائيًا من حيث الطبيعة النفسية. ومن ثم كانت البيئة الواحدة موطنًا لعناصر شتى من السكان، نبت فيها فنانون يختلف بعضهم عن البعض الآخر اختلافًا كبيرًا فى الذوق والمزاج والتعبير الفنى. وهذا ما يجعلنا نكف عن مثل هذه الدعاوى العريضة - على أثر البيئة فى الفن أو النشاط الذهنى.

فالاحتمالات كثيرة ويجب أن تخلى مكانها للبحث العلمى المنظم وهذا مجاله التاريخ ولا يمكن أن يفرض نفسه على الجغرافيا البشرية.

ما هو إذن الاتجاه الصحيح فى الجغرافيا البشرية لمن يريد أن يقوم بعمل محدد؟ إن مجال الجغرافيا البشرية الصحيح - كما يبيّن فيفر - هو دراسة العلاقة بين الإنسان والحياة أى بين البيئة الطبيعية وبين نشاط سكانها.

لقد تحدثت فى التكامل التاريخى عن أثر البيئة الطبيعية من وجهة نظر واقعية تاريخية. فهناك أحداث طبيعية تثير استجابات بشرية [٢] مثل هذه الحوادث الطبيعية التى وقعت على الأرض كانت لها أهمية كبرى فى تقرير مصائر الأمور ولا سيما فى فترة ما قبل التاريخ. كما كانت لها آثار بعيدة المدى على تاريخ الإنسان، ولكن مثل هذه الأحداث الطبيعية كالزلازل والفيضانات ومدى الحرارة ليست ذات دور حاسم الآن. بالرغم من أنه لا يمكن إغفالها. وهذه

---

(١) انظر أدناه الباب الأول، الفصل الثانى، ٣.

(٢) انظر فى هذه النقطة : De Margau p. 19 Cornejo, Sociologie générale, v.I. p 286.

أمور تختلف عن ظواهر البيئة الطبيعية ومواردها الطبيعية وهذه أيضًا تحتاج إلى إيضاح تأثيرها على التطور البشرى إيضاحًا دقيقًا [١].

إن الأرض تؤثر فى الإنسان عن طريق الحياة النباتية أكثر من أى شىء آخر. فهذا الغطاء الحى وإمكانيات التربة المتنوعة هى التى تؤثر فى الإنسان وليس تلك النظريات الجوفاء التى يتمسك بها بعض الجغرافيين والتى يظنون أنها تقرر مصائر الدول وتقيم التاريخ وتقعده. وهذا الغطاء الحى هو الذى يتمسك به لوسيان فيفر. فهو يبيِّن لنا أن التاريخ الذى ينمو مع الزمن يقوم بتقديم كل يوم مشاكل جديدة للجغرافيا، فالبيئة فى تغيُّر والإنسان فى تطوُّر نحو آفاق جديدة لاستغلالها. فحياة الإنسان كلها وليست حياته السياسية وحدها بل كل نظمه وخصوصًا الاقتصادية ذات علاقة كبرى بالبيئة [٢].

دراسة «العلاقات» بأوسع معانى الكلمة فى مجال الجغرافيا البشرية. العلاقات بمعنى العلاقات المتبادلة وهى فى رأى بعض الجغرافيين علاقات ثابتة وعلاقات متغيِّرة. وعنوْا بالأولى أثر البيئة على الإنسان كما عنوْا بالثانية أثر الإنسان فى البيئة. بل يجب أن تعتبر الجغرافيا البشرية دراسة تلك العلاقات فى مجموعها كلاً لا يتجزأ. وعلاقات متبادلة. وهذا الاتجاه يتفق مع الاتجاه العام للعلوم الطبيعية إذ لا يمكن أن تدرك طبيعة هذا الكون إلا على ضوء دراسة بعض ظواهره فى ضوء غيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى وعلاقة بعضها بالنسبة للبعض الآخر، وهذا هو لُب الحقيقة. وقد وجه نقد شديد لمحاولة التجريد ودراسة المجرَّد مثل الزمان والمكان.

الكائنات البشرية عناصر من العناصر التى تشترك فى تكوين البيئة ولا يمكن فصل نشاطها عنها، والإنسان عنصر معدل لهذه البيئة يجعلها إنسانية. فمهما اختلف نشاط الإنسان فإنه لا يستطيع فكاكًا من أثر الطبيعة [٣]. ولكنه ليس

---

(١) يجب أن يلاحظ أن أسلوب الحياة يدخل فى تشكيل الخلق العام، وهنا تؤثر البيئة تأثيرًا غير مباشر فى القواعد الخلقية العامة. وبهذه الوسيلة تؤثر البيئة تأثيرًا غير مباشر على الإنسان، ويُضاف تأثير جديد إلى تأثيرها المباشر.

(٢) انظر أدناه، الباب الأول، الفصل الثانى، ٣.

(٣) انظر أدناه، الباب الثالث، الفصل الرابع ـ ١.

مجرّد مستقبل لهذه الآثار بشكل سلبى. وقد وعد بعض الكُتّاب بكتابة جغرافيا للتاريخ. ومن الغريب فى نظرية الحتم الجغرافى أن نفس الظروف لا تؤدى باستمرار إلى نفس النتائج. فكأن المؤلفين لهذا الكتاب يجاهدون فى نقض نظريتهم. ويبدو أنه ما لم تكن هناك ظروف جغرافية معيّنة تؤدى إلى نتائج معيّنة باستمرار وباضطراد فلا بد وأن تختفى الجغرافيا التاريخية. فليس ثمة سوى تاريخ وهذا هو الشعور العام بين الكتاب (١). وقد كان فيفر على علم تام بكل هذا وحده (٢). وهذه ميزته عند شروعه فى تأليف الكتاب هذا فهو يقول «إن بعض الجغرافيا البشرية ليست إلا تاريخًا دبّت فيه الحياة من حيث مصادره متجددًا من حيث طريقته متطورًا ـ لحُسن الحظ ـ فى موضوعه» (٣).

وقد وجد لحُسن الحظ صيغة دقيقة لسؤال قابل فيها بين حتمية راتزل وإمكانية فيدال دى لابلاش (٤)، «إذ ليست هناك مؤثرات ثابتة مضطردة لأربعة أو خمسة قوانين جغرافية أزلية تتحكم فى مصائر البشر التاريخية» (٥)، إنما المشكلة الجغرافية فى وضعها الصحيح هى استغلال إمكانيات (٦)». ليست هناك ضروريات بل هناك إمكانيات فى كل مكان(٧). إن الظروف الطبيعية مادة التطوّر البشرى أكثر منها علّة هذا التطوّر». فالعلّة الأساسية ليست فى الطبيعة بما تقدمه من موارد أو تقيمه من عقبات فحسب، بل هى تكمن أكثر من ذلك فى الإنسان نفسه وفى الطبيعة».

---

(١) انظر ما سبق.

(٢) ص ٣١٥.

(٣) Revrue de metaphysique et de morle, Aut- Dec. 421, supp. p. 12 La geographic et l'Histoirre, par J. Brunhes & C. Vallaux.

(٤) من الأفضل أن نقول الضرورة (necessaritism) ولا بدّ من التمييز بين الحتم والضرورة، فالحتم هو السببية الطبيعية. ومن بين الأسباب التى تحتم ظهور الظاهرة فى الطبيعة ما هو ضرورى Contingentes ـ ومن بين هذه الأسباب الضرورية. فالمشكلة، إذن هى ما إن كانت هناك ضروريات جغرافية؛ أى ما إذا كانت القوى الطبيعية تستطيع أن تكون أسبابًا ضرورية لإحداث استجابات بشرية معيّنة، وما إن كان البشر مجرّد عوامل سلبية لهذه الضروريات.

(٥) انظر هامش ص ٢٤ أعلاه.

(٦) انظر الباب الثالث ـ الفصل الرابع، ٣.

(٧) انظر الباب الثالث ـ الفصل الرابع، ٣.

هناك مناطق طبيعية معيّنة موزعة توزيعًا منظمًا على جانبى خط الاستواء وهى إطارات مناخية نباتية كبرى غير متساوية فى الثروة أو الإمكانيات. وغير متساوية فى درجة ملاءمتها لسلالات البشر المختلفة ولكن ليست هناك استحالة مطلقة. حتى بالنسبة لأقل السلالات البشرية ملاءمة لها «كى تقيم فى هذه المناطق المختلفة». فإن الإنسان قادر بإرادته القوية المثابرة على أن يقلب كل الاحتمالات رأسًا على عقب. وقوّى الفكرة الحتمية أن هذه الإطارات تكوّن «مجموعة من القوى تؤثر مباشرة على الإنسان بقوة طاغية قاهرة نهائية «وهذه القوى» تتحكم فى جميع أوجه النشاط من أبسطها حتى أكثرها تعقيدًا» [١].

إن الذى يحدث فى جميع هذه الإطارات هو أن بعض هذه الإمكانيات ينشط الواحدة بعد الأخرى. وبعضها يظل خاملاً مستترًا لكى ينشط فجأة تبعًا لذكاء الإنسان ومقدرته الذى يسكنها «إلا أن هذه الإمكانيات النشطة لا تكوّن أى نوع من أنواع النظام المترابط. وهى لا تكون كلاً لا يتجزأ مع أى منطقة من المناطق. وإنها وإن أدركت وفهمت فإنه لا يدركها كل الناس دفعة واحدة بالقوة نفسها وفى الوقت نفسه» [٢]، بل إن الإقليم الواحد ليقدم إمكانيات كثيرة التعدّد لمجرّد اختلاف قيم عناصرها ولا رابط لذلك كله سوى النشاط البشرى.

وليس هناك شك فى تشابه الجماعات البشرية أو تقاربها على الأقل - فى أسلوب حياتها التى هى نتيجة لاستغلال إمكانيات البيئة المتشابهة ولكن ليس ثمة قانون ثابت ينظمها، ولذلك فعلينا ألا نخلط مرّة أخرى بين الضرورة والإمكان.

فالإنسان يحتاج لقاعدة يبدأ منها نشاطه ومجهوده فى استخدام المصادر الطبيعية وفى تعديل البيئة. هذه القاعدة هى الجبال والسهول والهضاب والوديان وسواحل البحر والجزر والواحات.

وقد بيّن لوسيان فيفر بما قدمه من أدلة وبراهين كاملة ومنطق دقيق بأننا نخطئ إذا ظننا أن هذه الوحدات الطبيعية ذات صفات ومميزات خاصة مطلقة [٣]. «فليست هناك بالضرورة فكرة فريدة تنفرد بها الهضبة أو السهل أو الجبل يؤثر كل منها فى عمل الإنسان بمؤثرات معيّنة».

---

(١) انظر أدناه، الباب الثانى، الفصل الثالث.

(٢) انظر أدناه، الباب الثانى، الفصل الثالث.

(٣) الهامش السابق.

هناك وحدات جغرافية غاية ما نستطيع إزاءها هو تقسيمها وتصنيف إمكانياتها المختلفة، لتحديد مدى ملاءمة الأنماط البشرية [1]، وإذا أخذنا فى الاعتبار أصغر الوحدات الجغرافية وأبسطها وأكثرها طبيعية، مثل الوديان والجزر والواحات، فإننا نكون بإزاء عوامل تؤثر فى الإنسان وتتأثر به، أى إزاء عوامل الإمكانيات العديدة المتشابكة. «وإذا أردنا أن نبحث عن ضرورة، كل قانون خاص بالجزر فرض على الإنسان وعلى المجتمعات الإنسانية، فإننا لن نجد إلا التنوّع والاختلاف [2]». فليست الجزيرة، وإن كانت واحدة، وحدة كاملة، كما أن العزلة مثل العوامل الطبيعية الأخرى، مسألة نسبية وليست سوى وجهة نظر. وليست الملاحة مرتبطة بطبيعة الساحل، ولا ترتبط أكمل الوحدات المورفولوجية بأى آثار فعلية.

ويميل بعض الكتاب إلى الربط بين أساليب الحياة وبين بيئات معيّنة على أنها متوقفة عليها ومن ذلك ركنوا إلى تبسيط أساليب الحياة الاقتصادية وتصنيفها إلى قناصين وصيادى سمك وزرّاع [3] متنقلين وزراع مقيمين، وبهذه الوسيلة أفقروا نسيج الحياة المتعدد الألوان. إذ إن أساليب الحياة فى غاية التنوع والتعقيد فى الجماعات البشرية، وإذا أسهمت ظروف ثابتة - مثل الغابات ومسطحات المياه والصحارى والوديان قبل زراعتها - فى تكوينها الأصلى فإنها فيما بعد تكوّن صفات مكتسبة جديدة تتدخل بين الإنسان والبيئة وتنتهى إلى تعديل البيئة أكثر مما يظن كثير من الكُتّاب [4]، بل إن هذه الظروف الطبيعية الثابتة ليست بالسطوة والقوة والثبات فى تأثيرها على الجماعات البشرية البدائية كما يُقال غالبًا. بل إن البشرية فى أولى مراحل تطوّرها استطاعت أن تتحرّر إلى حدٍ ما من ربقة الظروف الطبيعية [5].

وهكذا نستطيع أن نخلّص إلى حد كبير الحياة الاقتصادية من البيئة الطبيعية التى طالما ارتبطت معها فى أذهان بعض الكتاب. وهناك أسباب أقوى تجعلنا

---

(١) الباب الثانى، الفصل الثانى، ٣.

(٢) تاريخ فرنسا، خامس، ص ٢٢٠، انظر Blanchard, La Flandre ص ٥٢٠.

(٣) الباب الرابع، الفصل الأول، ٤.

(٤) الباب الثالث، الفصل الأول، ١.

(٥) الباب الثالث، الفصل الأول، ٣.

نعتقد أن النمو السياسى والديموغرافى وتكوين الدول بحدودها وطرقها ومدنها وعواصمها ـ تعتمد أقل فأقل على الظروف الطبيعية. وهذا ولاشك نتيجة للاحتمالات الجغرافية ولكنها جميعا ـ كمعبرة عن حياة المجتمعات ـ فى تطور مستمر ولا يمكن تفسير تطور الجغرافيا السياسية إلا على ضوء ما يعتمل فى نفوس البشر. حقا هناك حقائق جغرافية كالمدن والدول التى ترتبط بتوزيع الطرق ـ وهناك مستقبل المدن ونمو العواصم وهذه جميعا تكون أجزاء لا تنفصل عن التاريخ. أى عن المصادفات والإرادة البشرية. وإن الإرادة البشرية التى يقويها العلم والصناعة باستمرار لنرجح كفتها على الطبيعة، وقد قال ميشليه عن الفلاندرز «إنها خلقت رغم الطبيعة، إنها نتيجة عمل الإنسان» (١).

ولا يعالج لوسيان فيفر مباشرة مشكلة قوة أو ضعف الظروف الطبيعية ولم يحاول أن يبحث ما إن كانت قبضة الطبيعة على الإنسان آخذة فى الضعف الآن. فهل هذه مشكلة لا قيمة لها كما يقول؟ على أى حال فهى مشكلة معقدة ويتعلق جزء منها بالجغرافيا البشرية. وحلها يرتبط إلى حد كبير بدراسة السلالات البشرية. على أنه يجيب عن هذا السؤال بطريق غير مباشر عندما يقول «إن الإنسان بعد إبعاد وصايته الجغرافية عليه، يظهر مرة أخرى متمدينا اليوم كعامل منظم للقوى الطبيعية» (٢)، أننا أمام عمل الإنسان وتقدير الإنسان وحركات الإنسان. أمام حركة بدء النمو البشرى المستمرة. أمام الإنسان ـ وليس الأرض أو المناخ ـ الذى يحتل بؤرة الاهتمام باستمرار» (٣).

الإنسان هو الذى يلعب الدور الأول فى مسرحية العلاقات الدائمة والوثيقة بينه وبين الطبيعة، إنه يستمر فى استخدام الطبيعة لأغراضه وهو فى استخدامه لها، بل لأجل هذا الاستخدام، يتدخل فيها، إنه يجعلها تخدم أغراضه أما الذى يؤثر فيه فقوة داخلية. قوة نعرفها جميعا. إنها مصالحه.

إن لوسيان فيفر فى كتابه العلمى الدقيق لا يؤمن أيضا بالآلية والنهائية أو أن أحدًا لا يستطيع أن يقبل كتفسير لتطور الحياة أنها عدلت من الخارج بواسطة

(١) الباب الثالث ـ الفصل الثالث ـ ١.

(٢) الباب الأول ـ الفصل الثانى، والباب الثانى ـ الفصل الأول.

(٣) ما سبق.

عوامل آلية أو أنها تأثرت «بمؤثرات بيئة سبق أن اكتملت عناصرها». أما عن نهائيتها فعلينا أن نتذكر أين تقع؟ إنها فى ذهن الكائن الواعى (الإنسان).

وقبل كل شىء هناك أمر مهم يسبق الآلية أو النهائية. ويكمن فى قرارة كل حياة واعية ذلك هو المنطق.

وربما اتفق ل. فيفر معى فى تأكيد فكرة المصادفة فى التاريخ. ولكن لا بدّ من التمييز بين المصادفة المحضة والفوضى التاريخية. والمصادفة لا تهم المؤرخ من حيث علاقتها بالمنطق إلا تبعًا لاتفاقها أو تعارضها لمصالح البشر.

الرغبة في الوجود وفى تمام الوجود هى العجلة التى يدور عليها دولاب تطوّر الحياة والتطوّر البشرى، وهى المصلحة التى يشير إليها لوسيان فيفر والتى يراها فى إرادة الإنسان المتحضر الواعية والتى يصيغها الإنسان بصيغة منطقية [1]. فالكائن الحى لا يحفظ فقط بما هو نافع له ولكنه يسعى جاهدًا بما يكتسبه من خبرة وتجارب بإرادته المحضة نحو تعديل ما سوف يكون ذا نفع له. فالحيوانات ـ كما يقول بيرييه ـ كانت عوامل نشيطة فى عملية تطوّرها [2]، وقد بولغ فى أثر التنافس والصراع فى سبيل البقاء ولكن هذا التنافس نفسه وسيلة من وسائل التعبير عن إرادة الحياة، بل إن الحيوان لينشط نشاطًا كبيرًا إذا وضعت البيئة أمامه عقبات كى يتغلب عليها ويصارع من أجل بقائه. وقد استطاع هذا الكائن العضوى أن يتغلّب على عقبات البيئة وصعابها وأصبح «صانع الكائنات العضوية المتطوّرة، وبذلك جدد نفسه نتيجة لمجهوداته المستمرة» [3]، وعلينا ألا ننسى أن الخيوان حتى قبل أن يتلاءم مع البيئة قد تعلم الاستفادة من صفاته الجديدة المكتسبة، أو بعبارة أخرى بمجرّد اكتساب عادات جديدة تؤثر فى جهازه العصبى. وبهذا يستطيع أن يستخلص من كيانه العضوى أكبر فائدة ممكنة، فهنا قد بدأ الحيوان فى هذه الحالة فى التلاؤم مع البيئة دون إرادته ولكنه انتهى باستخدام

(١) الباب الرابع، الفصل الأول عن النهائية finalism، انظر أدناه الباب الثانى ـ الفصل الأول ٥٠، الثانى ـ ١.

(٢) انظر La Synthése en Histoire p. 155.

(٣) Perrier, p. 144, 192.

تلك الإرادة فى عملية الملاءمة» [1]، هناك سببية جديدة تتدخل فى الموضوع هذه العلة هى البيئة الداخلية (أى الكائن الحى نفسه) التى تتفاعل أعضاؤها بعضها بالبعض الآخر من الناحية البيولوجية والنفسية، وهكذا نستطيع أن نحرر الإنسانية مرّة بعد أخرى من ربقة الحتمية والعلّة الميكانيكية التى تتمثل فى البيئة الخارجية.

هذا الكتاب إذن يتفق تمامًا مع ما سبقه. الذى كتبه أدموند بيرييه والذى يوضح تقدم الحياة وانتصارها واستقلال الطابع البشرى عنها. وينسجم أيضًا مع كتاب جاك مورجان و ج. فندريس الذى يوضح نتائج اكتشافات الإنسان الذى حرّرته من ربقة الحيوانات. اكتشافات اللغة والصناعة.

ولا ريب أن لوسيان فيفر يهتم اهتمامًا خاصًا بمشاكل أرقى وهى مشاكل الجغرافيا البشرية، تلك المشاكل التى تثيرها المجتمعات المتحضرة. ولكنه يحدّد تحديدًا دقيقًا مجال الجغرافى التاريخى الصحيح أو الجغرافى البشرى الذى يغامر فيما قبل التاريخ. وهذا المجال هو «العلاقة بين المجتمعات البشرية القديمة فى فترات مختلفة. فى مختلف الأقاليم فى العالم وبين ظروف البيئة الجغرافية بقدر ما يسع الباحث»[2]. وهذا الكتاب غنى بالآراء والمقترحات عن مدى تأثير ظروف البيئة الجغرافية المتغيرة فى النشاط البشرى. وعن إمكانيات البيئات المختلفة وعلاقتها بالنشاط البشرى[3]. فهو يذكرنا أن الهجرات البشرية الكبرى ليست نتيجة تغير السطح أو المناخ فحسب، وسوف نشير مرة أخرى إلى [4] الهجرات البشرية وهى مثل الاستقرار البشرى فى الأوطان المختلفة تميل بالإنسان إلى تلك البيئات الجديدة التى وجد نفسه منساقًا إليها. مثل روبنسون كروزو فى جزيرته منتظرًا ذلك اليوم الذى يستطيع فيه أن يستغل كل بقعة من الوطن الأكبر ـ الأرض.

---

(١) نفس المرجع ص ١٩٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٣) Déchelette maunel d'achéologie préhistorique.

ذكره Brunhes & vallaux, ap. ut, p. 28

(٤) الجزء الخامس من L'Evolution de l'Humanité.

وهكذا يتحوّل كتابنا ـ وهو كتاب علمى محض ـ بطريقة موضوعية صرفة إلى ملحمة من الملاحم «ملحمة الزمن». البطل فيها هو الإنسان الذى يتحوّل تدريجيًا إلى سيد للطبيعة. وسيظل يؤكد تلك السيادة حتى يستطيع أن يستغل موارده التى خلقها أحسن استغلال. ومتى تتكون لديه فكرة أرقى للمدنية.

إن الإنسانية تحرّر من ربقة البيئة الطبيعية عن طريق النشاط الداخلى أو المنطق. الفكرة التى يكونها الناس لأنفسهم عن بيئاتهم والفكرة التى تدفعهم إلى تعديلها ـ تلعب دورًا كبيرًا لا يمكن أن نُبالغ فى أهميته. وهى أيضًا تتحرّر من ربقة البيئة الطبيعية عن طريق عامل البيئة الطبيعية.

وهنا نلمس مسألة لم نتعرض لها قاصدين حتى الآن. لقد تحدثنا عن علاقات البيئة الطبيعية «بالإنسان والإنسانية». أما لوسيان فيفر فيرى أن ليس للجغرافيا شأن بالإنسان بل بالمجتمعات أو الجماعات البشرية.

فبعد أن وصف الصراع القديم بين الجغرافيين والاجتماعيين فى مناقشة منهجية، وبعد أن دافع عن الروح الجغرافية وخلص بها من ادعاءات علم الاجتماع ونقده، احتفظ بأحسن ما لدى الاجتماعى وأكد أهمية العامل الاجتماعى فى دراسة الحياة بوجه عام ودراسة البشرية بوجه خاص.

ونستطيع أن نؤكد له أن الجغرافيا تبحث فى نظم الطبيعة وفى مجموعات فى الغطاء النباتى وفى أسرات الحيوان وفى المجتمعات الإنسانية. «فالإنسان» تجريد نظرى غامض «والإنسانية» تعبير فضفاض والدولة ليست إلا مظهرًا واحدًا من مظاهر المجتمع. ولا تظهر لنا علاقات الأرض بالإنسان إلا بطريقة جماعية. من جانب الأحياء من ناحية ومن جانب تفاعل جماعات بشرية على البيئة من ناحية أخرى. وهذا صحيح من وجهة نظر الجغرافيا البشرية. أما من وجهة نظر التكامل التاريخى فهناك تحفظات يجب أن توضع وتعريفات يجب أن تلاحظ. فليس معنى اهتمام الجغرافى بالمجموعات فحسب أن المجتمع ـ كما يرى الاجتماعيون ـ هو مفتاح التاريخ. وعلينا قبل كل شىء أن نعرف المجتمع ونحدد ما نعنى بالعامل الاجتماعى.

ينفى فيفر (لوسيان) مع إدوارد ماير نظرية نشوء الدولة من الأسرة بطريقة مجرّد إضافة أسرة إلى أسرة. النظرية التى تقول إن الرجل مضافًا إلى المرأة مضافًا إلى الأنجال تساوى أسرة. وأن أسرة مضافًا إليها الأسرات تساوى قبيلة وأن قبيلة مضافًا إليها قبيلة أو قبائل تساوى شعبًا. وأن مجموعة من الناس اتحدت تكون أمة كبيرة. وأن هذه النتيجة النهائية تجمعت عن مجرّد التكاثر والتناسل [١]. إن هذا فى رأى لوسيان فيفر كمن يقيم البناء مبتدئًا من السقف. فالواقع أن التكوين الشرعى للأسرة ليس إلا نتيجة وجود مجموعة أكبر من الناس فى ظل نظام اجتماعى وسياسى معيّن.

وما هو «المجتمع البدائى» وما كنه المجموعات البشرية التى كانت تسكن فى الدور البدائى للبشرية؟ إن فيفر يرنو إلى أبواب المدينة عندما يقول «لقد انتشرت مجموعات كبيرة من البشر وغطت مساحات واسعة من الأرض حاملة إليها حضارة واحدة» [٢]. إنه يوافق إدوارد ماير ويطلق على هذه المجموعات اسم الدولة ويوافق جوليان وميشيليه مرة وأخرى ويدعوها أممًا. ونرى أنه إذا كان هذان التعبيران صالحين للاستعمال فى الجغرافيا البشرية دون تحديد دقيق، فإنهما يجب أن ينتظرا ما سيكتب فى الجنس وفى كتاب من القبيلة إلى الإمبراطورية فى هذه السلسلة.

يجب أن نفرّق بين الدولة كدولة متمدينة وبينها كدولة اجتماعية. فالوحدة فى المدنية ليس معناها الوحدة السياسية. بل لا يعنى أيضًا نظامًا اجتماعيًا محددًا تحديدًا تامًا. إن ما قبل التاريخ يظهر لنا الاجتماعات متشابهة بين الناس أكثر منهم مجتمعات من الناس. ويلعب هنا العنصر أو السلالة أو التقليد ـ تقليد العادات والأخلاق ـ والمنطق دورًا رئيسيًا، فالاختراعات البدائية رغم أنها ظهرت فى أماكن مختلفة انتقلت وانتشرت بسرعة بين الناس. واختلفت درجة سرعة انتشارها باختلاف شدّة الحاجة إليها. وإذا لم تنطبق معالم الإنسانية تطابقًا تامًا فإنها على الأقل تشابهت تشابهًا كبيرًا. حيث إن الناس كانوا أقل مقدرة على الإفادة من إمكانيات بيئاتهم المختلفة، كما أن البيئات نفسها كانت متشابهة [٣].

---

(١) الباب الثالث، الفصل الرابع، ١.

(٢) الهامش السابق، والباب الثانى، الفصل الثالث.

(٣) ما سبق الإشارة إليه.

إن النمو الاجتماعى مرتبط ارتباطًا وثيقًا باستغلال الأرض. وتاريخ هذا الاستغلال ليس فى واقع الأمر تاريخ الأمم أصلاً. بل تاريخ مجتمعات كبرى. تاريخ مجموعات من البشر. (ولا اعتراض على هذا التعبير الذى يكثر فيفر من استعماله) تجانست بالتشابه الوراثى أو التشابه التقليدى وتشابه حاجاتها الأصلية وعلاقاتها بالبيئة الطبيعية. فهذه الجماعات التى تنتشر فيها روح اجتماعية تتبلور فيها نواة مجتمع جديد. والمجتمعات تتكون إذا توفر فيها نظام معين يعمل على إبقائها، وهكذا يتسع مجال هذه المجتمعات وتزداد نموًا (١). وقد لاحظنا أنها تنمو نتيجة الصراع من أجل البقاء من ناحية ونتيجة الاتحاد من ناحية أخرى، ويظهر اهتمام المجتمعات بنفسها وحبها لذاتها فى ازدياد قوتها وازديادها فى العدد. وهى تعبر عن نشاطها فى استغلال الأرض بميلها للتوسع.

هذه الملاحظات تحفظ للفرد قيمته وتؤكد أهمية الإنسان - كعامل له أثره ودوره - فى العلاقة بين الفرد والمجتمع. وأهميته فى استغلال البيئة الطبيعية. كما تساعد على تعيين دور كل من الفرد والمجتمع من هذا النشاط بدقة.

وبيّن فيفر بدقة كبيرة أن المجتمع يتدخل بما يفرضه من تقاليد ومعتقدات وأساليب حياة بين الإنسان والبيئة. وهذه جميعًا تحول بين استغلال الإنسان لإمكانيات البيئة استغلالاً حرًا. ويضرب مثلاً لذلك أساليب المجتمعات فى اختيار الطعام «فجميع القبائل البدائية ذات عادات خاصة فى اختيار الطعام (٢)، وهناك أنواع محرّمة من الطعام. وقيود خاصة بشأنه (٣)، وربما لم تنشأ هذه القيود مرة واحدة. وربما لم تكن أيضًا شديدة الوطأة فى بادئ الأمر. فقد كانت القبائل البدائية متجانسة تجانسًا كبيرًا ولكن نظرًا للفروق الفردية بين الجنسين من ناحية وبين أفراد القبيلة الواحدة طبقًا لاختلاف العمر من ناحية أخرى بدأت تلك القيود فى الظهور. ثم اتخذت طابعًا اجتماعيًا شمل القبيلة كلها ودخل فى

(١) لقد كان من الضرورى فى الأزمنة القديمة أن تكون الجماعات البشرية من القوة بحيث تستطيع أن تدافع عن كيانها ضد أى اعتداء خارجى، ولكى تستطيع أن تحمى ذمارها وأوطانها وممتلكاتها وقطعانها، وأن تحيا حيث المرعى الخصيب والماء الوفير فى كل الفصول Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du N ord, Vol. I p. 241.

(٢) مع شىء من التحفظ، وسيظهر فيما بعد أن هذا ينطبق على غذاء الشعوب البدائية.

(٣) الباب الثانى، الفصل الثانى، ٣.

صلب نظامها، وهكذا بدأت حياة القبيلة تتخذ شكلاً خاصًا ويدأ المجتمع ينتظم فى نظام معيّن. وهكذا كان الإنسان أو منطقه العامل الأول فى تكوين المجتمعات» (١).

ولا يمكن أن يضحى لوسيان فيفر بالروح التاريخية فى هذا البحث وهو الذى دافع عن «الروح الجغرافية» أمام الاجتماعيين، فهو يدرك الحقيقة إدراكًا كاملاً يجعله لا يبخس الفرد حقه من التقدير. وهو يعلم تمامًا «مجهود ومثابرة» هذه الكائنات التى وجدت «وقد وهبها الله العقل وقوة التفكير» أنه يقدر مجهود الإنسان مفردًا أو مجتمعات على هذه الأرض (٢)». فهو يعلم تمامًا أن «النشاط التلقائى» و«الذكاء الخالق» وقوة الإرادة التى يبديها الإنسان ويجاهد بها قوى البيئة الغامضة حتى تتلاءم مع حاجاته ومطالبه «هى التى انتهت فى النهاية بظهور الدول. وهى تنتمى إلى الأفراد».

المجتمع لا يفكّر ولكن الأفراد هم الذين يفكرون (٣). ويبيّن فيفر الفرق بين البيئة الاجتماعية للمجتمعات وبين الأفراد أنفسهم الذين يكونونها، وكتابه صادق فى جميع هذه النقط ويحتوى على حقائق مفيدة (٤)، ولا نحتاج أن نقيم معركة حول الألفاظ ولكننا بحاجة إلى إبراز أهمية الجماعات فى الجغرافيا البشرية فيما يختص بالطعام والكساء ووسائل الحياة «فهذا العامل ليس طبيعيًا وليس شخصيًا ولكنه اجتماعى وجماعى، ليس الرجل ونعود نكرر ليس الفرد، بل المجتمع والجماعة المنظمة» (٥).

إذن فقد عدنا إلى العامل الاجتماعى وعدنا نؤكد أن المجتمع يكون أحيانًا عامل نشاط ودفع لاستغلال البيئة وأحيانًا عامل سلب وتعطيل لهذا الاستغلال. أحيانًا يقوى الفرد وأحيانًا يشلّه عن الحركة ولكن قوته السلبية لا تبلغ مطلقًا ذروتها فى المراحل الحاسمة لارتقاء المدنية أو فى مراحل نشوئها.

---

(١) انظر مقدمة كتاب دى مورجان وفندريس.
(٢) الباب الأول، الفصل الثانى ١، قارن الفصل الأول ٦، الباب الثالث الفصل الثانى ٦.
(٣) ص ٣٣٧.
(٤) انظر بصفة خاصة ص ٣٣٧.
(٥) ص ١٦٥.

ها قد رأينا عالمًا ذاخرًا بالأفكار تتجاذب فى هذا الكتاب. الذى يتسم بالموضوعية وبالطابع الشخصى. وهو كتاب مشوق مثير للاهتمام ولا سيما بما أبداه فيفر من الحماسة لأساتذته الذين كانوا مصدر معرفة ومصدر وحى لآرائه. أمثال فيدال وراوه وميشيليه الذى يقول عنه: إنه كان متمتعًا بحاسة عجيبة نحو الحقيقة «يفهم كل شىء ويقدس كل شىء»[1]. فهذا كتاب جمع بين توقّد الذكاء عند ميشيليه وحماسته نحو المعرفة وشوقه إلى الحقيقة وفهمه الدقيق لدقائق الحياة المعقدة وبين جمعه للحقائق الثابتة وإخضاعه لها للعقل الناقد وبحثه عن التفاصيل التى قد يغفلها ميشيليه.

إنه أخيرًا كتاب فريد فى حد ذاته فى الوقت الذى كُتب فيه. فلقد كلفنا لوسيان فيفر منذ عشر سنوات بوضع هذا الكتاب فأشفق على نفسه من هذه الأمانة ولكنه قبل مسرورًا القيام بعبئها. ولم يعفه عن ذلك قيام الحرب العالمية الأولى التى لعب فيها دوره كاملاً. وانشغاله بتنظيم جامعة ستراسبورج وأخيرًا بعد مجهود شاق طويل أصاب هدفه. فنحن ندين له كما يدين معنا جمهور المشتغلين بالعلم، بعرفان الجميل.

هنرى بر

ملحوظة للمؤلف (مقدمة طبعة ١٩٢٢):

لعله من المفيد أن نخبر القارئ أن خطة هذا الكتاب جميعًا قد وضعت عام ١٩١٢، ١٩١٣، أى أكثر من عشر سنوات وكان يجب أن يظهر هذا الكتاب سنة ١٩١٥، وعند قيام الحرب كنا قد انتهينا من وضع المقدمة والباب الأول.

ثم استأنفنا العمل فيه فى خريف عام ١٩١٩، أى بعد خمسة أعوام كاملة فاضطررنا إلى تعديل الخطة كلها حتى نستفيد من تقدم العلم والبحث الحديث ولعلنا قد استطعنا أن نبرر موقفنا.

وأود أن أتقدم بالشكر للأستاذ باتاليون الذى أمدّ المؤلف بمقترحاته المفيدة وملاحظاته على البابين الثانى والثالث وعلى الفصل الثانى من الباب الرابع.

---

(١) المقدمة.

ملحوظة للمؤلف - طبعة ١٩٢٤:

نود أن نشير إلى الأثر الذى تركه هذا الكتاب فى مختلف الدوائر العلمية والأدبية ومن أهم من علّق عليه الأستاذ مارك بلوش فى المجلة التاريخية، وهنرى هاوزر فى المجلة النقدية. ولا يزال ديمانجون (فى الحولية الجغرافية) وكاميل ڤالو (فى مجلة الجغرافية ومجلة - Mercure de France) ولبتاكونو (فى مجلة التاريخ الحديث ومجلة علم النفس) وميليه (فى المجلة اللغوية بباريس) وس. رايناخ (فى المجلة الأثرية) وبرمان (فى مجلة نيوشاتل الجغرافية) وبرجامينى (فى المجلة للجغرافية البلجيكية) وغيرهم يكتبون الفصول الطوال والقصار عن هذا الكتاب.

وقد لقى الكتاب كثيرًا من الاعتراضات وتلقى الكاتب كثيرًا من الاقتراحات ومن أهمها مشكلة الجغرافيا البشرية فى (Synthése Historique) الجزء ٣٥، وإن ما يؤديه الكاتب لهذه الجهود جميعًا - فى نقده وعرضه - هو أن يستنير الكاتب بهذه الاقتراحات ويصلح من أخطائه التى بدت فى تلك الاعتراضات.

مشكلة المؤثرات الجغرافية

مقدمة :

هناك مشكلتان. ولا نقول هناك مشكلتان كبيرتان لأن هذا معناه أن تكون لدينا مجموعة معيّنة من الحقائق الثابتة ومقدمات يقينية نفتقدها فى الوقت الحاضر. ولكنهما مجموعتان كبيرتان من المسائل المتداخلة غير المحددة والتى تواجه كل مَن له اهتمام بالتاريخ. وسنحاول أن نشرح المشكلة الثانية ولكن كيف نبدأ؟ كيف نستطيع أن نجمل المشكلة الجغرافية فىَ مجلد واحد. وهما ذواتا أصول وفروع متشعبة؟ إذن لا بدّ لنا من إيضاحها بكل جلاء. فما هى بأمر سطحى غامض.

إننا سنحاول - فى هذا الحيّز المحدود - بحث مسألة العلاقة بين الأرض والجماعات البشرية والعلاقة بين تلك الجماعات البشرية والأرض. وسنزيد من صعوبة المسألة بإدخال عنصر الزمان. وبأن نسأل أنفسنا ما أحوال الجغرافيا التى أثرت فى سير التاريخ؟ ما الأحوال التى تؤثر بها رقعة «المعمورة»[1]، «كما عرفها همبولدت وراتزل - مقدمًا من جهاتها المختلفة ودولها المتباينة. وإن اقتصر الآن على الوصول إلى نتائج إيجابية ووضع قوانين حتمية. أليس معنى هذا أنها محاولة جريئة خيالية لا تتفق والمنطق؟ أليس الأجدر بنا أن نوضح الآنَ منذ البداءة أننا لا نقدم سوى محاولة طرق السبيل القديمة، سبيل الباحث الناقد للمشكلة فحسب.

(١) المعمورة: هو الجزء المسكون من الكرة الأرضية فقط. مجال النشاط البشرى بطبيعة الحال وليس بخاف أن هذا الجزء المعمور بالبشر - أو بعبارة أصح - أصبح حاملاً لواء المدنية والحضارة اتسعت رقعته وتغيرت مراكز ثقله خلال العصور التاريخية - هذا التعبير هو الذى يُشار إليه بكلمة Oe-cumene التى استعملها راتزل فى كتبه (المعرب).

- ١ -

مقدمة تاريخية

تاريخ المشكلة وتراثها الأدبى

إن موضوع هذا البحث ليس بجديد فقد سبقنا فيه الكتّاب والمفكّرون من قبل من زمن بعيد. فالمشكلة الجغرافية وأثرها فى التاريخ قديمة جداً. ولا نحتاج إلى أن نذكّر القارئ بكتابات هيبوقراط «عن الأجواء والمياه والأقطار[1]» «وعن المفارقات التى وضّحها هذا الكاتب المعاصر لسقراط بين سكان الأقاليم الجبلية المعرضة للأمطار والرياح العاتية - السكان الطوال القامة الذين فيهم دماثة ولكنهم فى الوقت نفسه شجعان - وبين سكان الأقاليم السهلة المكشوفة الجافة المعرضة لأنواع قاسية من المناخ - وهؤلاء عنصر نحيل رشيق القوام مائل للشقرة عن السمرة. وفيهم طبيعة السيادة والإمارة؟ هيبوقراط هذا هو الرائد الأول لسلسلة كبيرة من المفكرين فى هذا الموضوع، فهناك مجموعة الكتّاب القدماء [٢] مثل أفلاطون فى الكتاب الخامس[٣] من القوانين وأرسطو فى كتابيه الرابع والسابع من السياسة - وجالينوس الطبيب الذى اقتفى أثر هيبوقراط فى تفكيره وبوليباس وبطليموس مؤلف (Astrologicis de Judiciie) وغيرهم من الكتّاب اللاتين ومفكريهم وفلاسفتهم وعلمائهم وشعرائهم مثل (Lucretius) لوكريتوس فى الكتاب السادس (De Natura Rerum) ثم تأتى مجموعة الكتّاب المحدثين الذين اعتنقوا أولاً آراء القدماء ثم شرحوها وأضافوا إليها نتائجهم الحتمية غير الثابتة على تجاربهم الجديدة فهناك مثلاً بودان (Bodin) فى جمهوريته، الذى يحاول أن يشرح فى الفصل الأول من كتابه الخامس - الذى سنعود إليه فيما

---

(1) Littré, Paris, 1840, Vol. II, 90.

(2) Heiberg, XXXV.

(3) Bk. II, Chap. 1.

بعد [1] - ويبيّن البيئات الكبيرة التى تعيش فيها الجماعات البشرية - شرقية وغربية، سهول وجبال ووديان - أرض جرداء أو أرض خصبة - أماكن معرضة للرياح أو محمية منها. إلا أن هذه المؤثرات الجغرافية لم تكن صارمة أو استبدادية فى توجيهها للبشر كمؤثرات جغرافية أساسية. فبودان كان واضح الذهن من ناحية عدم نضج الفكرة الحتمية أو القدرية الجغرافية [2]. إذ لم يكن على استعداد لتقدير القوة البشرية أو الإرادة الإلهية ولكنه كان يمتلك ناحية الجدل المنطقى فى توضيح رأيه. فقد علم أنه يوجد فى نفس الإقليم وبين السكان أنفسهم من له تجارب مختلفة. ومَن له آفاق متباينة عن آفاق مواطنيه. وأن الشعب نفسه قد يمرّ فى أحوال مختلفة من الرقى والانحطاط وفى عصور متباينة بين الازدهار والاضمحلال دون أن تتغير الأحوال الطبيعية. كما أنه بيّن بالتجارب كيف أن «اختلاف الطعام والعُرف السائد والتقاليد لها القوة على تغيير الطبيعة البشرية [3]». ثم يلاحظ فى جلاء تام (وهذا بعد أن بيّن أثر المكان والمناخ) «أننا نرى أيضًا كيف أن التربية تستطيع أن تغير القانون الطبيعى للبشر بينما نحن نرفض رأى بوليبوس وجالينوس القائل: إن طبيعة الإقليم تؤثر بالضرورة فى عادات سكانه [4]» وهذا يبيّن حكمة هذا الرائد وحُسن تدبيره الذى كان وقاء له ضد التمادى فى نشوة الحتمية التى سكر بها أتباعه.

بعد ذلك بقرن ونصف قرن من الزمان - ونحن لا نذكر إلا إلهام من الكتّاب - نجد أن الأب ديبو (Abbé Dubos) مؤلف خواطر ناقدة للشعر والتصوير (١٧١٩) Reflexions critiques Sur la Poésie et la Peinture - أن بودان الذى أسس جمهورية على غرار جمهورية أفلاطون - قد أدرك بصفة خاصة أثر البيئة الطبيعية فى حياة البشر السياسية. أمّا الأب ديبو من جانبه فقد عالج مشكلة أكثر تحديدًا وهى «هل البيئة دائمًا تغلب الوراثة [5]» وهو يشرح ذلك عندما يدرس أثر الجو فى الجسم البشرى كما يتضح من أخلاق الشعوب - وكما يتضح أيضًا باستعراض أنواع المناخ الأكثر مناسبة للعلوم والفنون. ولا شك أن برونتيير

(1) Bodin, II. Ch. 1.
(2) Chauviré XXXVII, p. 349 seq.
(3) Bodin XXXVI, V, I, p. 485.
(4) Bodin XXXVI, V, I, p. 464.
(5) Braunschvig, XXXIX, Chap. III, passim.

(Bronetiere) كان على صواب فى دراسته لتطور النقد عندما لفت نظر جمهور المثقفين مرة ثانية لكتابة هذا الرائد [1]. وأهميتها لمدرسة نقاد تاريخ الآداب والفنون العملية ولكن ديبو كان صدى لآراء بودان، كان حلقة فى سلسلة طويلة.

أما كتاب مونتسكييه فهو من قبيل آخر. وسنحاول أن نفحصه بإمعان فيما بعد [2]، وإذا كان كتاب الأب ديبو قد قصر اهتمامه على المناخ فحسب فإن مونتسكييه مثل بودان اهتم أيضًا بالسكان. وإذا كان قد أفرد أربعة كتب من روح القوانين (Esprit des lois) (وهى الكتب ١٤ ـ ١٧) لدراسة القوانين بصفة عامة «ثم العبودية المدنية والخدمة اليدوية وخدمة الدولة» وعلاقتها بالمناخ فإنه يرينا أيضًا فى الكتاب الثامن عشر «كيف أن طبيعة الإقليم تؤثر فى هذه القوانين» هذا من ناحية ـ ومن ناحية أخرى فإنه لم يحاول أن يفسر مشكلة أدبية ـ كما حاول بودان حل مشكلة قانونية وسياسية ذات نطاق أوسع ولكنها أقل طموحًا فى نتائجها وأخيرًا (وهذا أمر يحتاج لتعليق) فإن الروح العلمية هى التى أملت على مونتسكييه ـ الذى أسس جائزة لعلم التشريح فى أكاديمية بوردو العلمية ١٧١٦، والذى كتب فى مشاكل الطيران وشغل نفسه فيما بين (١٧١٧ ـ ١٧٢٣) على الترتيب بالطب والطبيعة والتاريخ الطبيعى [3] ـ أن يعالج مشكلة البيئة الطبيعية الكبرى فى مجموعها ككل، وأن يحلها على ضوء حتمية صارمة ... ولكن يا لها من طريقة بحث مليئة بالسراب.

كثير من معاصرينا يبحث جاهدًا فى شىء من السذاجة عن عبارات وردت فى بعض المؤلفات الأدبية القديمة أو الحديثة تثبت بعض آثار حتمية ويبحث عن بعض أحوال جغرافية تؤثر على البشر والمجتمع الإنسانى. ولا شك أن المجال الذى تقاسمه كل من بودان وديبو كان مجزيًا ـ فهناك بعض الأمثلة:

كورنى فى سينا (الفصل الثانى ـ المشهد الثانى):

«فلتسمح لى يا مولاى أن أقول إن جميع الممالك جميعها تختلف فى تلاؤمها مع الأجواء المختلفة».

---

(1) Brunetiére, L 1, p. 144.

(2) Part II, chap. I.

(3) Dedieu, Montesquieu, Paris, 1913, in- 8- p. 6 - 9.

وهناك مالبرانش (Malebranche) فى «البحث عن الحقيقة» ـ recherche de la verité ـ الذى يقول فى الفصل المعنون «إن الهواء الذى نستنشقه يسبب تغييرًا ما فى عقولنا» وعندنا بواليو (Boileau) فى الفن الشعرى Art Poétique (Cante III, V. 114)

غالبًا ما ينتج المناخ أمزجة مختلفة:

وأكثر من هذا ما نجده فى كتابات لابروييـر (La Bruyére) وبونور (١) (Bonhours) وكتابات فونتينيل وخطابات للأكاديمية لفينيلون (٢) (Fénelon) كل هذه الشذرات (٣) جمعت من كتابات الكتّاب كما لو كانت دليلاً قاطعًا على قضية مفروغ منها. أو كما لو كانت القول الفصل على لسان موهوب. وإن هى فى رأينا إلا وميض برق فى ظلمة ليل بهيم. إلا أن عدد هذه الشذرات وندرتها جدير بها أن تقودنا إلى نتائج غير تلك التى يُراد لنا أن نعتنقها. وإذا أردنا أن نتعقب مصادر هذه الملاحظات الشاردة فى مؤلفات الكتاب فإنا نجدها فى تلك التقاويم والموسوعات التى تضم بين دفتيها كثيرًا من حكم الأولين. ولنبدأ بأول هذه التقاويم Calendrier des Bergers ـ الذى ورد فيه، هناك بعض الدعاة الذين يقولون «إن الإنسان نفسه عبارة عن عالم صغير وذلك بسبب ما يحمله من تشابه مع العالم الكبير» وليس فى هذا القول تحديد أو ابتكار. غير أنه خال من أى روح علمية وهكذا أيضًا آراء الكتّاب الأدباء عن المناخ، التى تنتمى إلى المصدر نفسه المعتمد على الإلهام. وليس على المنطق، أنها تعود بناء إلى عصور الكهانة الأولى التى كانت تربط مصائر البشر بحركات الأفلاك (٤). ومسالك الكواكب وإلى أجيال كانت تربط بين أجزاء الجسم وتلك الأفلاك. وإلى تلك الأجيال التى كانت تربط بين أمزجة البشر وبين أمزجة الكواكب السيارة كالمريخ وعطارد وزحل، فلا عجب إذن إذا لم تتردد فى الربط بين نوع من أنواع المناخ وطبع من طباع البشر فى قُطر من الأقطار، بل إنها تقرر الدور الذى يجب أن يلعبه قطر من الأقطار فى التاريخ من نوع مناخه أو بعبارة واحدة «الدور الذى كتب على الإقليم أن يقوم به».

---

(1) Caractéres, Ch. II, "Du Coeure", Rebelliau, p. 120.

(2) Entreheis d'Artiste at d'Eugéne فى المحاورة الرابعة

(3) Oevs de'la Haye 1726, vol. II. p. 126.

(4) Cumout (Fr.) ni the Revue Archeologique, 1916, L'Homme astrologique des trés Riches Hures.

ولم تكن المسألة تحتاج حتى لوضع فرض. كما توحى بذلك نظرة خاطئة على عناوين فصول كتاب بودان وكيف السبيل للتوفيق بين آرائه وبين تصورنا للأحوال الجغرافية التى لم يعرفها بودان حينذاك، عندما كانت فكرة الجغرافيا نفسها فى ضمير الغيب. وعندما كانت الفكرة العقلية القديمة لا تزال راسبة فى الأذهان.

وقد فصل بودان المنطقة الحارة عن الباردة عن المعتدلة. ثم قسم الجماعات البشرية على هذه المناطق الثلاث. ولاحظ أثر العوامل الطبيعية ولا سيما المناخية على الجماعات البشرية. ولكنه عندما وصل إلى هذا الحد أسرع قائلاً «ومن يدخل فى الاعتبار طبائع الكواكب سيجد ـ على ما أرى أن مواقعها تتفق وتلك المواقع فى الأقاليم المناخية. فأبعدها شقة زحل، يرتبط بالمنطقة الجنوبية وعطارد بالوسطى والمريخ بالشمالية». وهكذا يبدأ من الكواكب ثم يستنتج آثارها فى مزاج البشر وطباعهم ثم يؤسس ملاءمة هذا النظام الكونى لجسم الإنسان أو «الإنسان صورة الكون بأجمعه» [1]، ربما قلنا إن هذه أضغاث أحلام أو ترهات ترجع إلى العصر الذى كان يعيش فيه ولكننا نستطيع أن نلتقط من آرائه الخاصة وملاحظاته العلمية أو على الأقل المعقولة [2]، ولكن هل هذا ممكن؟ وهل هناك تلك الشقة الكبيرة بين آرائه وملاحظاته ومعتقدات عصره الذى كان يعيش فيه؟ وهل لم تكن «أحلام» بودان الفلكية مسئولة مباشرة عن بعض آرائه العلمية أو التى تدعى العلمية؟ وعلى أى حال ألم تكن آراؤه عن أثر المناخ بالنسبة إلى حقيقة تنتمى إلى نوع الحقائق الغامضة الغريبة التى تنتمى إلى الفلك القديم أو بعبارة أوضح، أثرًا سريًا من آثار الكواكب والأفلاك؟

ملاحظتنا هذه ليست سطحية فالناس الذين ينسبون إلى أشعار كورمنى وبويليو صبغة علمية يرتكبون خطأ، فما هى إلا بقايا آراء قديمة ترجع إلى خزعبلات القرون الوسطى. ولكن المهم أن كاتبًا مثل بودان أو مونتسكييه بالرغم من قوتهما الذهنية الخارقة وبالرغم من أن الثانى نشأ بين قرنين من البحث

(1) Bodin XXXVI, V, pp. 880-1.

(2) Chanviré XXXVII, 349.

العلمى الذى كان جديرًا به أن يدفعه عن المستوى الأول. إن كاتبًا مثل هذين كان متأثرًا بالآراء القديمة، ولا سيما بودان. أما مونتسكييه الذى أدهشه بل وأغضبه هذا الاتهام فإنه قبل آراء سلفه قبولاً سلبيًا. وربما نجح فى وضعها فى قالب يقبله العقل الحديث ولكنه فشل فى تحليل فكرة «الأثر» فقد سلكته عجلة الزمن فى ركبها ولم يجد منها فرارًا.

والدليل على ذلك كتابة بوفون (Buffon)، فبينما كان مونتسكييه هاويًا فى البحث العلمى، وإلى حد ما مؤمنًا بالعلم فإن بوفون كان رجلاً عمليًا، أى عالمًا عمليًا، ولنحاول شرح الفرق بينهما، فقد كان مونتسكييه كثير الاعتماد على الأب ديبو، كما أنه كان يحاول أن يحرر نفسه من المبالغة وعدم الدقة، «إنى لا أثق بالتفسير الطبيعى، لعدم الدقة التى يعتمد عليها هذا العلم، واضطرار المرء إلى الحدس والتخمين، ولكن الحقائق التى أوردها ثابتة» وهذا مظهر من مظاهر الحكمة، تخفى تحتها تقاليد قديمة تحت ستار من البحث العلمى، أما بوفون فلم يرد ذكره فى كتابات مونتسكييه الذى يحاول أن يحييه وما هو بحاجة إلى الأحياء فما هو بميت إنما هو دائمًا حى على الدوام.

إن رأى بوفون هو الرأى الحديث، فما هناك «آثار» بشرية للجغرافيا، آثار غامضة كما كان يعتنقها الأثريون، فالإنسان عند بوفون لم يعد نوعًا من الصلصال تشكله البيئة فى القالب الذى تشاء، إنه فاعل، إنه أحد قوى الطبيعة ذاتها. «منذ ما يقرب من ثلاثين قرنًا تكاتفت قوى الإنسان مع قوى الطبيعة وشملت معظم أرجاء الكرة الأرضية، فإلى قوته العقلية يرجع الفضل فى استئناس الحيوان وجعله طوع بنانه، وبمجهوده جففت مساحات شاسعة من المستنقعات، وهذبت مجارى الأنهار وأزيلت الغابات، واستصلحت البرارى. إن وجه الأرض يحمل آثار قوة الإنسان التى وإن كانت أضعف من قوة الطبيعة إلا أنها أبقى منها أثرًا وأبعد مدى أو على الأقل ساعدتها على القيام بمهمتها على الوجه الأكمل»، ونحن لا نشك لحظة فى اعتماد الإنسان على قوى الطبيعة، والواقع أنه - بسبب ذكائه وسعة حيلته - أكثر الأحياء اعتمادًا على قوى الطبيعة، أليس هو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يعيش فى أى مكان تمكن الحياة فيه؟ «إنه الكائن الوحيد الذى تمكنه طبيعته التى بلغت حدًا كبيرًا من القوة ومن الاتساع والمرونة

بحيث تتكاثر وتتلاءم مع أنواع المناخ المختلفة. إن معظم الحيوانات محدودة المجال بأنواع معيّنة من المناخ، بل وبأقطار بعينها، فضلاً عن أنها لا تستطيع التكاثر كيفما شاءت. فالحيوانات من وجوه عديدة من نتاج هذه الأرض، أما الإنسان فقد صنعته السماء» [1]، وإذا تركنا السماء جانبًا (وسوف لا يعارض بوفون فى هذا)، فإن الفكرة الحديثة فكرة الإنسان كعامل من عوامل الطبيعة قد بدأها فيدال دى لابلاش فى سلسلة مقالاته عن «أساليب الحياة [2] «Genres de vie ـ على غرار آراء بوفون وليس آراء مونتسكييه ـ على غرار بوفون الذى حاول أن يبيّن كيف يستطيع الإنسان أن يؤثر فى المناخ (ولو أنها كانت محاولة فاشلة) إلا أننا نعجب لأنه حرّر الإنسان من ربقة البيئة، إنه ثائر عليها ومبتدع لرأى مخالف لرأى البيئتين تمامًا، فالأرض مهيّأة معدلة مستأنسة بجهود الإنسان.

ومن المهم جدًا أن نعرف كيف بحث الباحثون فى هذه المسألة، إذ ربما عثرنا على بعض الأسباب الرئيسية التى وقفت حجر عثرة فى سبيل تقدمهم العلمى، إلا أننا لا نريد أن نكتب تاريخًا كاملاً للمشكلة الجغرافية فهذا يحتاج لكتاب مستقل، ليس من السهل كتابته، لأنه يواجه ثلاث مشاكل فى آن واحد، الأولى علمية، إذ إن نشأة الجغرافيا الحديثة كانت فى كتابات العلماء الطبيعيين والرحالة همبولدت (Humboldt) ورتشهوفين (Richtofen) وراتزل (Ratzel) ودور هؤلاء فى تأسيس علم الجغرافية الحديثة معروف، والمشكلة الثانية سياسية بأوسع معانى الكلمة. وهنا سنقابل الخلاصة من المفكرين والفلاسفة أتباع مونتسكييه والثالثة تاريخية، فقبل أن يوجد الجغرافيون، اضطر المؤرخون، بحكم عملهم أن يحلوا بعض المشاكل ذات الصبغة الجغرافية.

فبينما كان أوجستين ثييرى (Augustin Thierry) قد انتهى من تلخيصه لتاريخ فرنسا إلى صراع بين عنصرين متنافسين [3] من الناس، وجماعتين من البشر، لا رابطة تربطهما سوى دين واحد اتحدوا بالقوة وأجبروا على أن يعيشوا

(١) Branschvig. XXXIX, Chap. III.

(٢) بوفون (٤٢) ص ٨٧.

(٣) جوليان (٧٤) ص ٨.

معا فى نظام سياسى واحد [١]، وبينما كان يشعر بالبربرى القابع فى نفسه فإننا نجد جول ميشليه (Jules Michelet) محرراً نفسه من الآراء الميتافيزيقية ومحاولاً أن يضع تاريخ فرنسا على أساس ثابت، أساس التربة التى حملته وغذته. وبينما لم يكن للجغرافيا أساس عند جيزو (Guizo) وبليرى فإننا نجده يبيّن فى قوة وحماسة عند مطلع «خريطة فرنسا» (Tableau de la France) إن التاريخ، فى واقع الأمر جغرافى، فقد ورد فى تلخيصه بآرائه فى المقدمة ١١٦٩، ما يلى «دون أساس جغرافى يسير الناس صناع التاريخ ـ كما يبدو لنا ـ فى الهواء مثل الصور الصينية على غير أساس، وما ينبغى أن ننظر إلى الأرض كمجرد مسرح للحوادث، فإن آثارها تبدو فى مئات الأشكال مثل الطعام والمناخ.. إلخ. كما يكون العش يكون الطائر، كما يكون الإقليم يكون الناس».

وبمثل هذه العبارات المطاطة الغنية بالآراء المحكمة فى نفس الوقت أوضح ميشليه نفسه كما فعل كاميل جوليان (Camille Julian) الذى بدأ من آراء سلفه فكتور كوسان (Victor Cossin) [٢]، هذا الفيلسوف الذى سمح لنفسه أن يحملها حتمية صريحة شاعرية «نعم أيها السادة، أعطونى خريطة قطر ما، تضاريسه ومناخه وموارده المائية، ورياحه، وجميع عناصر جغرافيته الطبيعية، أعطونى موارده الطبيعية نباتية وحيوانية فإنى قمين بأن أخبركم مقدماً ـ ما هو إنسان هذا القطر وما الدور الذى سيلعبه هذا القطر فى التاريخ ليس اتفاقاً، بل حتماً، ليس فى عصر واحد من التاريخ بل فى جميع العصور، وأكثر من ذلك الفكرة التى كتبت عليه أن يقدمها» ولكن مثل هذا القول يذكرنا بالخطباء الذين يبدأوا كلامهم «باعطونا» يذكرنا بملاحظة بودان الصائبة أن كل الخطباء الكبراء، والشعراء والمهرجين السياسيين، الذين يستهوون أفئدة الناس ينبعثون من إقليم واحد، هو الإقليم المعتدل ولكن بالرغم من كل شىء فإن كوسان احتفظ بالفكرة القائلة: إن التاريخ فى الحقيقة مأساة فكرة تصويرية تصلح للزينة ولكنها فقيرة لا فن فيها، وسنرى كيف استطاع ميشليه أن يجلى هذه الفكرة ويخرجها قوية رائعة، وللأسف الشديد فى ذلك الوقت ١٨٣٢، الذى ألّف فيه كتابه «عن مقدمة تاريخ فرنسا» لم تكن الجغرافيا قد ظهرت بعد.

---

(١) Essai sur l'histoire de Tiers Etais, 1853, chap. 1, p. 14.

(٢) كتاب «تاريخ الفلسفة» انظر Bruneriére (٥١) ص ٢٠٢.

ولقد فهم ميشليه أن الأرض ليست أمرًا سهلاً بالنسبة للمجتمعات البشرية ولكن رأيه فى تاريخ الشعوب رواية دقيقة الحبكة متداخلة الحوادث متأثرة بمؤثرات جغرافية متعددة، ولقد رأى وتدبر وفكّر كما هى عادته الذهنية فى غيرها من الأمور، ولربما أسرع فصرح كما فعل راتزل [١]: «الأرض هى الأرض لم يتغير مركزها فى الكون أو الفراغ، والإنسان بآرائه وأحلامه ملتصق بها على الدوام» وهى فكرة (Victor Cossin) أصلاً - كلا ولم يساير راتزل فى تفكيره حين قال: «عندما ينسى الإنسان أصله الأرضى فإنه تدفعه بقوة وتذكّره بأن جذور دولته إنما هى ممتدة فى التربة، هى التى تقرر مصير الأفراد بقوة قدرية عمياء والناس يسكنون بقعة الأرض التى منحها إياهم القدر، عليها يعيشون وفيها يموتون خاضعين لقدرة قانونها الأزلى» كلا فلم يدفع ميشليه مصير الجماعات البشرية بهذه القدرة العمياء، ولكن هل يحق لنا أن ننتظر أكثر من ذلك منه وحده؟

لقد كان لميشليه الفضل فى أنه جعل المؤرخين من بعده يبدءون تاريخهم، سواء كان عن اليونان أو الرومان أو الفرنسيين، أو غير هؤلاء من الأمم، أن يبدأوا بوضع ملخص جغرافى للإقليم الذى سيؤرخون لأهله. فقد بدأ ميشليه كتابه عن تاريخ الجمهورية الرومانية سنة ١٨٢٨، وانتهى منه فى سنة ١٨٣١، بأن وصف ظهور روما ولاتيوم، ثم وصف إيطاليا فى الفصل الثانى كما وصف الأبنين بمظاهر سطحها القوية البارزة، وقد أخذ بهذا العلم البديع الدافئ. وقد تبعه فكتور دورى (Victor Duruy) الذى وضع وصفًا جغرافيًا لإيطاليا عند مطلع كتابه الكبير فى تاريخ الرومان [٢]، كما بدأ كتابه بتاريخ اليونان بوصف للبلاد ومناخها [٣]، ولم تقتصر هذه الحركة على فرنسا بل انتشرت إلى غيرها من الأمم، فقد بدأ أرسنت كورتيوس (Ernest Curtius) كتابه عن تاريخ اليونان بوصف جغرافيتها، ولكن الأمر لم يتعد هذه الخطوة فبمجرّد اعتراف ضمنى غامض بقوى الطبيعة فى سير حوادث التاريخ فيها دون شرح أو تفسير لكيفية هذا

---

(١) Hauser, Grande Revue. 25 Oct. 1913. p 649.

(٢) (الطبعة الأولى) Paris, 1862, Chap. I.

(٣) مطلع كتاب History of Greece ترجمة بوشيه ليكرتك فى خمسة أجزاء ٨٨٢.

التداخل، أو كأن هذه المؤثراتلجغرافية لم تتغير قط فى أى بقعة من بقاع الأرض خلال التاريخ الطويل، وكانت إنجلترا مثلاً التى لم يكن لها أسطول حتى القرن السادس عشر والتى لم تكن بها صناعة حتى القرن الثامن عشر كانت هذه البلاد كأنها منذ نشأتها حتى الآن بلاد الفحم والحديد التى نتغنى بمدحها باستمرار.

يتساءل ميشليه فى مقدمته سنة ١٨٦٩، هل يظل الجنس البشرى على حالته أو يتغير متأثرًا بتغير العادات؟ وليته، أو ليت تلاميذه استبدلوا كلمة الإقليم بكلمة الجنس. ولعلهم قد غلبتهم طباع المؤرخين، الذين يفكرون بأسلوب الشعوب، وليس بأسلوب الجغرافيا الذى يهتم بالأرض فهم يخلطون بين القوى الطبيعية والقوى البشرية، ويرون لها أثرًا واحدًا فى التاريخ، بل إنهم يعتمدون بتصوير الطبيعة وصفًا برّاقًا ويوضع الإنسان فيها مخلوقًا سلبيًا فاقد الإرادة لا حول له ولا قوة، مثل ذلك تلك الجملة التى أنهى بها فكتور دورى (Victor Duruy) وصفه بإيطاليا «أما عن المستقبل فنحن نعرف من بحثنا لأرض إيطاليا أن سكانها الذين يخضعون لمؤثرات طبيعية ومناخية مختلفة باختلاف أقاليمها لا يمكن أن يخضعوا لمدنية واحدة دون الاستعارة من الخارج [1]، وفى موضع آخر يقول «إن الجغرافيا لا تستطيع أن تفسر غير بعض التاريخ ولكن هذا التفسير حسن وعلى البشر أن يقوم بالباقى» فحسب ما أوتوه من حكمة أو سفه فى سلوكهم يحوّلون ما يلزمهم من الطبيعة لهم إلى خير أو شر [2]، هذه هى الفكرة التى تظهر على استحياء فى بادئ الأمر ولكنها ما لبثت أن أصبحت صيحة مدوية ولكن ليس مع دورى، طالب التاريخ المتحفظ المدقق الذى لم يوهب العبقرية، بل مع تين (Taine) صاحب الفكر الثاقب الذى كان فى ميدان الجغرافيا يقتفى الأثر الذى أحدثه ميشليه بين المؤرخين، والذى لم يكن مجرّد ناقل أو طارق سبيل سبقه إليه غيره.

خطة بحث تين أوسع وأشمل ونظرته أعمق وأبعد أثرًا وأكبر مدى، بدأ بتقسيم وتنويع المؤثرات التى ترجع إلى الجنس والبيئة والزمن وهو فى الواقع لم يبيّن إلا من المواد القديمة التى استعملها غيره، ففكرته عن البيئة مثلاً فى غاية التعقيد

(١) Duruy Histoire des Romains. t. 1., 1879, p. XXVII.

(٢) نفس المرجع، ص ١.

فهى لا تعنى البيئة الطبيعية فحسب بل كل ما يحيط بالكائن البشرى، المناخ والتربة والمؤسسات الاجتماعية والدين والحكومة، أى كل ما يكوّن البيئة المادية والخلقية والعقلية التى يعيش فيها الإنسان ويعمل «ولقد كان تأثير تين على معاصريه قويًا ثابتًا فلم يقتصر أثره على المؤرخين فحسب مثل ميشليه بل إن أثره انتهى آخر الأمر بتأسيس مدرسة أدبية من طلبة السياسة والأخلاق فكلهم يعنى بآثار البيئة الجغرافية المباشرة، آثار الأرض والطبيعة، والتربة والمناخ على الإنسان بوصفه بشرًا مفردًا أو بوصفه عضوًا فى المجتمع السياسى، ومن السهل أن نتصوّر كيف أن مثل هذه النظريات كانت سريعة الانتشار فى منتصف القرن التاسع عشر، ذلك العصر الذى سادت فيه نظرية التطوّر والآراء التطورية، سواء ما كان منها معتمدًا على دارون أو لامارك».

هذان العالمان الأخيران ساهما بقسط وافر فى الفكرة - فى ذلك الوقت - المعروفة بفكرة الملاءمة التى يحاول فيها الكائن الحى أن يوفق بينه وبين البيئة الطبيعية الموجود فيها، والتى يجب عليه أن يحيا فيها، ولا شك أنهما يختلفان فى عدة نقاط[1]، ولكن ليس هذا موضع بحث هذا الموضوع بل لسنا مؤهلين لبحثه أيضًا على أنه اتفق على أن ملاءمة الحيوان للبيئة كانت نتيجة لحياته فيها وسلوكه فيها سلوكًا معينًا. ولا يهمنا بعد ذلك إن كانت تلك الملاءمة نتيجة للاختيار الطبيعى كما يرى دارون أو كما يرى لامارك. بل لم يهتم الكتّاب فى تحقيق تلك النقطة. بل إنهم اكتفوا بإيجاد علاقة بين عمل عالم التاريخ الطبيعى الذى يفسر العلاقة بين الكائن الحى والبيئة الطبيعية وبين عملهم كمؤرخين أو أخلاقيين أو اقتصاديين يميل إلى إيجاد علاقة بين الإنسان والطبيعة. وقد اكتفوا بقليل من عمل علماء تاريخ الطبيعة، وهذا القليل أسبغ على آرائهم شيئًا من الروعة والشهرة مستقاة من شهرة علماء تاريخ الطبيعة، وقد مروا مرّ الكرام على الخلافات الدفينة بين أتباع دارون وأتباع لامارك، واكتفوا بأن قالوا إن العلم قد أكد بما لا يحتاج إلى جدل أن الكائنات الحية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على بيئاتها، فالحشرات والطيور مثلاً التى تعيش فى جزر تلائم بين نفسها وبين تلك الحالة الجزرية، بأن تفقد أجنحتها فقدانًا تامًا مثل حشرات وحيوان (Kergulen Land)

(١) قارن (٥٢) ص ١٠ Cuenot.

أو تفقد القدرة على الطيران تمامًا مثل خنافس جزيرة ماديرا أو حشرات جزيرة موريتوس وجزيرة نيوزليندة [١].

والنتيجة المنطقية لهذا كله أن للطبيعة أثرًا كبيرًا على الإنسان من الناحية الجسمية أولاً، ثم الناحية العقلية ثانيًا، ولكن قد تبدو الطفرة بين الحيوان والإنسان ثم بين الجسم والعقل كبير، ولكن هل يوافق العلم هنا أيضًا؟ وهل لم يبدأ دارون نفسه مدرسة التطوّر فى الأخلاق التى تبناها سبنسر ووضع لها قوانينها - وألم يحاول العلم أن يرينا كيف أنه من الناحية الأخلاقية من الممكن أن تعبر الفجوة بين الحيوان والإنسان عن طريق الغريزة الاجتماعية [٢].

إلا أن بعض الكتّاب الجزئيين لم يعبأوا بالفروض العلمية كنظريات دارون بل إنه بعد فترة ثلاثين عامًا لم يعد الناس يرهبون سلاح العلم ألم يقل (Bruntiére) فى كتابه تطوّر النقد (L'evolution de la criiique) ١٨٩٠: «من المألوف ألا نثق فى كل طريف مستحدث ... حتى ينبت عارضاه كما يقول ملبرانش، والآن وقد مرّ حوالى ربع قرن أو ثلاثون عامًا على نظريات التطوّر فإننا نرى أنه لا بدّ من أنها تنطوى على شىء من الوجاهة يبرر نجاحها، وحيث إنها نجحت فى خدمة التاريخ الطبيعى بصفة عامة، بل والتاريخ والفلسفة فلا جناح علينا إن حاولنا أن نجرّب كيف يمكن أن نستفيد منها فى التاريخ الأدبى وأصول النقد بدورنا».

وهكذا أقبل الناس مطمئنين على الكتابة والتأليف عن الإنسان أو شعب من الشعوب أو مدرسة خلقية أو فلسفية مستخدمين نظرية التطوّر راضية نفوسهم أتم الرضا على هذا التوفيق[٣]، بل إن بعضهم أوقف نفسه على دراسة التطوّر والإنسان، وهاكم مثل؛ إن كان يعوزنا المثال، مؤلف بسيط يجلس فى مكتبة ويفكر فى تاريخ العالم كله بعض الوقت، ثم يكتشف مبدأ وعلاقة وتفسيرًا للتاريخ البشرى يرتقبه؟ وهاك كاتب آخر إلى جانبه (M de Taurville) قاموس الحقائق الاجتماعية، (Nomenciature des faits sociaux) نتصوّره وقد صفف على مكتبه بعض القواميس التاريخية الموثوق بها «لتساعده فى تدعيم نظرياته بالأمثلة

(١) Champault (١٨) ١٩١٢ ص ٦٠.
(٢) Comment la route eree la type sociale.
(٣) ثبت الكتب والمراجع رقم ٢١٧.

ولتوحى له بنظريات أخرى» وكتابًا أو اثنين من كتب المراجع المعروفة والجغرافيا العالمية (Geographie Universelle) لإيلزيه ركلس (Elise Reclus) ما أنزل الله بها من سلطان.، ثم تبدأ فكرة مثيرة تومض فى عقله، فكرة جديدة برواية خيالية ثم يبدأ فى تدعيمها بالأمثلة التى يستقيها من قواميسه التاريخية، ثم يصبغها صبغة عالمية ... ويخرج لنا بمجلدين مكون كل منهما من ٥٠٠ صحيفة عن «كيف خلق الطريق الطراز الاجتماعى»[1]، لإدموند ديمولان (Ed. Demolin) ونحاول أن نتصفح الكتاب - يكفى الجزء الأول، وتاريخ القدامى (Les routesds l'Antiquité) الذى حاول المؤلف فيه أن يصف طرق المواصلات على أنها طريق المدنية، وهذا مثلاً أصل نشأة الشعب الصينى «ص ٢٤٩» المشكلة هى، كيف نستطيع أن نجد طريقًا كفيلة بتدريب شعب على الزراعة والصناعة والتجارة فى مضمار ضيق وبشكل مركّز . إنه يوجد مثل هذا الطريق: إنه طريق التبت! «نبذة صغيرة ولكن فيها الكفاية للدلالة على قيمة كاتبها . أليس كذلك؟».

لا تبين هذه الكتب، المتأخرة إلا مجرّد استنتاجات ناقصة أو كتابات أدبية بعضها صدر عن نية طيبة، وبعضها يثير السخرية، بعضها لكتاب متزمّتين وبعضها لكتاب ناقلين، ولكنها جميعًا تشترك فى داء واحد، داء عضال قديم. إنها بين أمرين أولهما البيئة الطبيعية، أو الأرض، وإن حاولنا التحليل قلنا التضاريس والمناخ، وأحيانًا يكتفى بالمناخ، ثانيًا الإنسان، جسمًا وعقلاً فردًا وفى مجتمع «طبيعيًا» أو «سياسيًا» يربط بين هاتين المجموعتين بشكل غامض شبكة من المؤثرات، ينسجها الكاتب بأحكام أو بغير أحكام حسب طاقته وقوته الاستنتاجية، مؤثرات - على رأى ليتريه (Littré) المحايد، تذكرنا بآثار النجوم والكواكب قديمًا على مقادير أهل البشرية (وها نحن أولاء نعود مرة أخرى إلى علم المنجّمين القدماء أم ترانا لم نختلف عنهم كثيرًا؟).

لن نحاول أن نتمسك بهذا، ندع المؤرخين من رجال الأدب والفلاسفة يصطنعون ما يحبون من تلك السلاسل السببية بين المظاهر التى يدرسونها وبين ظاهرة أو أكثر من حقائق الجغرافيا التى اختاروها دون تحليل أو تدقيق، ولهم أن

---

(١) قارن علي سبيل المثال: Penck Wagner (H.) in Zeirtschriff der Gese-llesch (82) (٣٦) ١٨٩١.

يصيغوا عبارات عامة مثل «أثر التربة» أو «هو المناخ» الذى يؤثر على عقليات الشعوب وتاريخ الأمم، كيفما صوّر لهم الخيال ولكن فليسبحوا فى بيداء الفكر وحدهم فعملهم يبدو لنا مجديًا إن لم يكن خطرًا. فقد توارثوا فكرة البيئة من تقاليد قديمة ولم يحاولوا أن يحددوا وضعهم، إنهم يتمسكون بالمؤثرات الجغرافية التى كانت فى وقت ما قوية غامضة معًا، متعددة الجوانب معقدة، التى تلعب دورًا كبيرًا كما يقولون على الإنسان جسمه وعقله، اجتماعه وسياسته، على لون جلده وشكل جسمه، قوة بنيانه، نواحى القوة والضعف فى روحه، مؤسساته القضائية والدينية والاقتصادية - حتى على بيئات أفكاره وما يبدعه من فن وعبقرية. إنهم يقررون تلك المؤثرات كحقائق ولكنهم لا يقدمون بين يديها الأدلة الكافية.

هل لنا أن نقول إذن: إن الجغرافيا التى كان يظن أنها تفسر كل شىء، لا تفسر شيئًا؟ لا، لا يجب أن نقفز إلى تلك النتيجة. وما مدى الدور الذى تلعبه الجغرافيا فى الوقت الحاضر.

- ٢ -

الجغرافيا البشرية وناقدوها

يجب أن نبحث عن الجغرافيا حيث ننتظر أن نجدها - عند الجغرافيين. فأى امرئ يريد أن يتفقه فى العلاقات بين الأرض والتاريخ، ويود ذلك عن إخلاص. عليه أن يقصد الجغرافيين هناك سيجد بغيته، إذ لا وجود الآن للجغرافى القديم الذى كان يقتصر على الوصف وتفريغ الجداول دون الإدلاء بمبادئ عامة، فالجغرافيا، الطبيعية، التى تعتمد على العلوم الطبيعية والحيوية مثل الجيولوجيا وعلم المناخ وعلم النبات وعلم الحيوان، قد تحررت من هذه العلوم شيئًا فشيئًا، تأكدت من نهج بحثها وحددت موضوع بحثها وأدركت شخصيتها الخاصة، وهذا يرجع إلى جهود الروّاد من أمثال الإسكندر فون همبولدت مؤلف العالم (Kosmos) وكارل رتز مؤلف (Dis allegemeine vergleichende) والذى ترجمه بوريه وديزور (Buret et Desor) الفرنسيان تحت عنوان الجغرافيا العامة المقارنة (Geographie generaie Comparée) أو دراسة الأرض فى علاقتها بالطبيعة وتاريخ الإنسان وفى نفس الوقت كان فرع جديد من فروع الجغرافيا ينمو ويزدهر ببطء على يد فردريك راتزل (Frederich Ratzel) عالم الحيوان والرحّالة الذى أصبح فيما بعد جغرافيًا عميقًا متحمسًا، وهذا الفرع يدين لراتزال باسم الجغرافيا البشرية (Anthropogeographie).

فى مجلدى كتاب الجغرافيا البشرية (Anthropogeographie)، عماد الجغرافيا عند الألمان، الذى نشر عام (١٨٨٢ - ١٨٩١)، ضمن مجموعة الكتب الجغرافية المشهورة التى أصدرها إنجلهورن (Engelhon) وستوتجارت (Stuttgart)، فى هذين المجلدين درس راتزل حياة البشر فى مجالات نشاطهم المختلفة وفى مجتمعاتهم المختلفة دراسة منظمة قائمة على المنطق على ضوء علاقة البشر بالبيئة

الجغرافية، أما فى كتاب الجغرافيا السياسية (Politische geographie) الذى ظهر فى مجلد واحد فيما بعد فقد وجه اهتمامه إلى حياة المجتمعات السياسية، فى الدول على ضوء علاقتها بالبيئة وأساسها الأرضى بدراسة الدول كما هى أوطان واقعة فى المكان «هذه الأوطان التى تعتبر أساسًا ثابتًا لأمانى الشعوب وآمالها وأمزجتها المتغيرة، والتى تحكم مصير الأمم حكمًا صارمًا أعمى»، كما قال راتزال ذات مرة فى الحولية الاجتماعية (Annales Sociologique).

على أى حال فقد كانت هناك مدرسة جغرافية تنشأ وتنمو فى فرنسا إلى جانب تلك المدرسة الألمانية، تنشأ حول مؤرخ وليس حول عالم طبيعى. فقد وجه بول فيدال دى لابلاش (Paul Vidal de la Blache[١]) اهتمامه إلى الجغرافيا بعد عام ١٨٧٢، وبدأ بدراسة آثار همبولدت ورتز ثم سافر فى أنحاء أوربا وبدأت آراؤه فى الجغرافيا الاجتماعية تنضج واختبرها بكتب راتزل التى استطاع أن يظهر وجوه الضعف فيها بثاقب فكره وأخيرًا أصبح الأستاذ بلا منازع لعدد من التلاميذ انتشروا فى جامعات فرنسا ومدارس الليسيه. ولم يخرج لنا فيدال دى بلاش كتبًا تقديرية مثل الجغرافيا البشرية والجغرافيا السياسية لراتزل، بل سلسلة من المقالات[٢]، تمتاز بأنها عملية وناقدة، فى أسلوب محكم تشع فيها فجأة ومضات من العبقرية والفهم. ويا لها من حافزة على الفكر وموجهة للرأى! لقد أخرج لنا كتابًا فريدًا من نوعه[٣]، له طابع خاص ولكنه خلو من القضايا التقديرية ومن الصعب تقليده. تلك هى مجموعة الحوليات الجغرافية الدسمة ـ Annale de Geographie ـ منذ عام ١٨٩١ وفوق ذلك فقد كان لذهن دى لابلاش تأثيرًا أوسع بتدريسه فى مدرسة المعلمين العليا (١٨٧٧ ـ ١٨٩٨) ثم فى السوربون. ذهن جُبل على البحث الحر وعلى استقصاء الحقيقة فى نشاط وانتباه، ذهن إنسان يستطيع أن يثير الحماسة دون أن يكتفى بترديد العبارات المتداولة.

يتألف نشاط المدرسة الفرنسية فى الجغرافيا التى أسسها فيدال دى لابلاش بمساهمة ملخصة فى علم الجغرافيا، فى شكل سلسلة من الكتب الإقليمية التى

---

(١) ولد عام ١٨٤٥ ومات عام ١٩١٨.

(٢) ثبت الكتب والمراجع من رقم ٢٩ ـ ٣٢، ٤٥ ـ ٤٧ Bibliography No. xxlx- xxxlll & xcv- xcvll.

(٣) Tableau de France (٢٢٢).

تمتاز باشتراكها جميعًا فى هدف واحد وأن يتميز كلٌ بطابع شخص بعينه، هذه السلسلة تشمل سهل بيكارد لألبرت ديمانجون، والفلاندر لراؤول بلانشارد؛ وبريطانيا السفلى لكاميل فالوا، وبرانس البحر الأبيض المتوسط لماكسميليان سور، وفلاحو نورمانديا الشرقية لجول سيمون[1]، عدد كبير من الكتب الدقيقة المنظمة الشاملة، ومحاولات عديدة لتقصى مميزات جزء أو إقليم جغرافى من أقاليم فرنسا، وقد خلت هذه الكتب من النفحة الخطابية الشاعرية التى ظلت عالقة فى كتابات الهواة وحلّت محلها طبيعة الحذر ومحاولة الإحاطة بالموضوع التى يتّصف بها كتّاب دربوا على الطريقة النقدية وعلى استخدام المعلومات التى تقدمها العلوم الطبيعية، كما أنهم وجدوا ألا مندوحة من الابتعاد عن الاندفاع والتطوّر فى آراء غامضة شاملة عن المناخ والأرض والإنسان. بل هم وقفوا أنفسهم على المثابرة فى التحليل والعمل المتواصل وهكذا أنشأوا أسس علم جديد يبحث فى العلاقة بين الإنسان والطبيعة علاقاته فى الحاضر وعلاقاته فى الماضى، وذلك نتيجة جهود راتزل ومعارضيه فى ألمانيا وتلاميذ فيدال دى لابلاش فى فرنسا، وقد كان هذا العلم حديثًا ولكنه ملىء بنشاط ينمو بسرعة ويلهب الحماسة فى نفوس متعلميه، بل إنه كان يثير آمالاً غير ناضجة تدفع حديث العهد به فى بعض الأخطاء. ولا نستطيع إلا أن نبتسم عندما نقرأ لأحد المعجبين بهذا العلم الذى أخذ باكتشافه هذا الفرع من المعرفة قوله «الجغرافيا تشمل جميع العلوم، وتفتح كل الآفاق وتشمل كل المعرفة الإنسانية».

ثم يعدد تلك العلوم وينتهى بنتيجة لا نملك إلا أن نوردها هنا لطرافتها «إننا نضع جامعة فرنسا فوق قمة هرم، وننقش عليها كلمة الجغرافيا التى تنتهى إليها كل المعرفة الإنسانية»، ولكن هذه فى حد ذاتها قوة فليست كل دراسة توحى فى نفس الطالب تلك النزعة التى تكاد تصل إلى حد العبادة، بل لا بدّ من تيار جارف يستطيع أن يجعل المجرى يشق طريقه، جارفًا مهدرًا مرتفعة أمواجه. لا شك أن علمًا يدرس العلاقة بين الإنسان والبيئة قد وُلِدَت له طريقة خاصة فى بحثه وله مبادئه وله مدارسه، وكراسيه فى الجامعات ومجلاته الدورية وكتبه المدرسية،

(١) انظر إشارة المراجع فى برين (٦٦) ص (٤١ ـ ٤٩).

ونتائج بحثه التى تجعل له حق الحياة. فالجغرافيا البشرية لها مكانها المرموق فى كل الجامعات، هذا العلم الذى يستطيع أن نشير بفخار إلى آثاره فى عصرنا الحديث ويدل بتفصيل إلى انتصاراته وتعدد فتوحه. ونحن الآن فى نهاية عصر الاضطراب والقلق، وقد تحرّرنا من أيدى أصحاب المقالات ووجدنا دليلنا الهادى، فعلينا أن نعتمد على هذا الدليل فى حل مشكلة البيئة والتاريخ، فعلمه الحديث سيصل بنا قدمًا إلى الهدف. ولكن علينا أن نعيد ما قلناه، علينا أن نجد طريقنا الصحيح ونستخدم ملكة النقد فينا، لا مفرّ من ذلك؛ وما نظن تنقصنا ملكة النقد.

لن ندخل فجأة فى تفاصيل نظرية. فلن نتساءل ما إذا كان هناك فى الواقع أى ثلمة فى البناء الجغرافى، أو هل من الممكن ومن الأوفق اتباع مدرسة راتزل الحتمية أم نتبع مدرسة فيدال دى لابلاش الإمكانية، فهذا موضوع أكبر من أن يعالج فى المقدمة .. سندرسه فى تفصيل فيما بعد. أما الآن فسنكتفى بالمظاهر. فعندما نقرأ أى كتاب فى الجغرافيا البشرية نلمح فى الحال طابع الطموح. ولسنا فقط الذين نهتم فى الجغرافيا الاجتماعية بالطموح. فلهذا العلم منافسوه وناقدوه. وهذا أمر طبيعى. فكل العلوم الحديثة التى تشعر بكيانها وشخصيتها والتى تمارس حقها فى الحياة الحرة المستقلة لا تسير قط على أرض خالية من العقبات، وهذه العلوم تنقصها عادة الحكمة والحذر وضبط النفس؛ بعد أن تنتشى بنشوة انتصاراتها واستكشافاتها الأولى. هى لا تستطيع أن تضبط نفسها أو تكبح جماحها، ومن هنا تختلف مع العلوم القديمة التى وطدت مركزها، أو مع العلوم الحديثة التى لا تزال ترقى السلم؛ ومن هنا كان الاتهام القديم بالطموح وهذا ما حدث للجغرافيا البشرية.

أمّا صوت العلوم القديمة فكان قويًا غليظًا، فنحن نذكر باستمرار احتجاج الجيولوجيين غير الراضين على استقلال الجغرافيا الطبيعية وخروجها على الطوْق، وفى الوقت نفسه يعزون أنفسهم بأن لابارنت (Lapparent) مؤلف دروس الجغرافيا الطبيعية فى فرنسا جيولوجى، وأن دافيز (Davies) فى الولايات المتحدة منهم، وهذا اتهام ضعيف لم يجد دى لابلاش مناصًا من الرد عليه عام

١٩١٣، يقول «نظرًا لتعقّد الظاهرات الطبيعية وتداخلها فى الطبيعة، كان لا بدّ من تعدّد طرق بحثها بل كان من المستحسن دراستها من زوايا مختلفة، وإذا كانت الجغرافيا تستخدم معلومات معيّنة من علوم أخرى فليس فى ذلك ما يضيرها أو يجعلها غير علمية[١]»؟ وواضح صدق هذا القول، وقد كان يستطيع دى لابلاش أن يضيف ملاحظة بيولوجى ماهر، هو هوج قسطنطين الذى قال فى معرض الحديث عن العلاقة بين الجغرافيا وعلم الحياة «إن المشاكل الجديدة لا تقابل إلا عند حدود العلم، وفى هذا المكان نستطيع أن نقول وأن نجد الحلول التى لم نكن نتوقعها والتى تمتاز بالأهمية»[٢]. نستطيع أن نهمل اختلافات المنافسين الصغار ومحاولاتهم ضم الجغرافيا الاجتماعية إليهم، فليس فى هذا جديد على الجغرافيا - فنحن نعرف تعقد العلاقات بين العلوم الاجتماعية وصعوبة تحديدها. فهناك علم الشعوب - (Ethnology) وعلم السلالات (Anthropology) ولا تزال المعركة حامية الوطيس بين هذين العلمين ويكفى أن نشير إلى ذلك العدد العديد من الكتب والمقالات والرسائل التى حرّرت فى التحديد بين هذه العلوم المتشابكة المتداخلة.

ولم يكن بد للجغرافيا الاجتماعية من الاصطدام بعلم الاجتماع.

علم الاجتماع نفسه علم حديث، نشيط سريع النمو له اندفاعه وله طموحه وأكثر من ذلك، فكثير من أساتذته يظهر ميلاً خاصًا لتحديد تعريف الألفاظ والمعانى وتحديد مناطق النفوذ ويبدون ميلاً كذلك للترتيب المنطقى الجميل. وينطبق هذا خاصة على النخبة الفريدة التى جمعها دركايم حوله قبل أن تشتت الحرب العالمية الأولى شملهم. فمنذ عام ١٨٩٦ ارتبطت هذه النخبة بالحولية الجماعية L'année Sociologique، التى كانت تمتاز بالروح الناقدة البنّاءة فى نفس الوقت والتى كانت تضم عددًا كبيرًا من مختلف الآراء والمقترحات وكانت ذات أثر كبير على جيل بأكمله.

---

(١) فيدال، (٣٢) ص (٢٨٩ - ٢٩٠).

(٢) Costantine (١١) ١٨٩٨، ص ١٩٣. قارن أيضًا Douxamie La geographie physique et la geologie, Revue Encyclop. 1897.

أقوياء الحجة كبيرو الاعتماد على التبويب والتقسيم الذى أصبح أكثر تعقّدًا بل أكثر دقة يومًا بعد يوم لم ينِ تلاميذ مؤسس الحولية فى مهاجمته ونقد ما يجدون من أخطاء أو ما يلحظون من اضطراب المنطق عند غيرهم، ولا شك أن المؤرخين يعرفون ذلك جيدًا، إذ تسجل المجلة التاريخية (Rev. de Synthése Historlque) بين عامى (١٩٠٢ ـ ١٩٠٣) ما قام من جدل بين سماياندو أمنتو. وما كان للجغرافيا الاجتماعية وما كانت تستطيع أن تسلم من نقد مثل هذه المدرسة القوية التنظيم والكبيرة الثقة فى مستقبلها.

ولم يكن عداء علماء الاجتماع قائمًا على التعصّب بل على العكس، فقد استرعى علماء راتزل انتباههم منذ البداءة وتبعوا آثاره باهتمام وأكثر من ذلك، فمنذ نشرت الحولية الاجتماعية «بعض المقالات» للأستاذ راتزل بعد نشره كتاب «الجغرافيا السياسية عام ١٨٩٧» عن الأرض والمجتمع والدولة.

Volkskunde, Volkerkunde, Ethnologie, Volkerpsychologie, Volker wissenschaft.

ولكننا نلاحظ أن هذا الملخص الذى نشره راتزل كان مجرّدًا نظريًا إن لم يكن جافًا خاليًا من الأمثلة العديدة التى تميّز كتابه الأصلى، مما جعل قارئ «الحولية» غير الجغرافى يكوّن فكرة خاطئة عن الجغرافيا البشرية. ولكن دركايم نشر مصادفة فى نفس العدد تقريرًا عن كتاب الجغرافيا البشرية، وبالرغم من أنه رفض نظرياته الأساسية فقد وجد فى عمل الأستاذ الألمانى مجهودًا صادقًا مبشرًا بالخير والنفع العميم. كما أنه احتفظ بتحفظاته الخاصة كعالم اجتماع وآثار بعض الاعتراضات التى بدأت معركة جدلية بين العلمين، وقد تبعه فى هجومه تلاميذه مثل ف. سيمياند، م. ماوس، م. هالباوخس، ومَن يريد أن يتتبع تلك المعرفة عليه أن يرجع إلى مجموعة الحولية الاجتماعية تحت عنوان علم البناء الاجتماعى». وفوق ذلك عليه أن يرجع إلى مثال مفصل لمرسيل ماوس وبيوشات المتأثر بأمريكا فى الحولية (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) عن «الهجرات الفصلية لمجموعات الإسكيمو دراسة فى علم البناء الاجتماعى، إذن لم يكن اهتمام علم الاجتماع بالجغرافيا البشرية سلبيًا بل إيجابيًا، تميل إلى معارضتها أكثر من قبولها، واعتراضات علم الاجتماع تحتاج إلى الاهتمام بها اهتمامًا صادقًا عمليًا،

ليس جدليًا نظريًا مما يغتبط به الفيلسوف ويضايق الأخصائى. فعالم الاجتماع لا يعترض على الهجوم، بل يبنى على طريقته الخاصة. وهم يقترحون استبدال علم جديد قائم على أسس ثابتة محددة واضحة المعالم من علم الاجتماع ويسمونه علم البناء الاجتماعى (morphologie Sociole) بدل علم الجغرافيا البشرية الذى وضعه راتزل ولا بدّ من الاختيار بين العلمين. لقد تخلصنا من تلك المقالات السيئة الترتيب التى أخرجتها أذهان عبقرية فى تسرع وعجلة؛ وإذا كان أثر الطبيعة على المجتمعات البشرية مستمدًا من أنها لا تتم بنفس الطريقة على الإنسان فى كل مكان، وإذا اعتقدنا مع فيدال دى لابلاش «أن نتائج هذا التأثير تجمعت فى بطء عملية تدريجية مستمرة بل إنها تستمد قوتها من هذا التدرج والاستمرار»، فأى فائدة ترجى من البحث عن العلاقات السطحية بين الإنسان والبيئة أو عن إيجاد القياسات الخاطئة التى كانت عبئًا ثقيلاً عليه وقتًا طويلاً من الزمن؟ فهذه كانت خلوًا من الطريقة أو الترتيب العلمى.

ولكن هنا نجد دليلاً واحدًا بين أيدينا تلاه مباشرة دليل آخر. فعلم الجغرافيا البشرية الحديث قدم لنا حقائقه الموثوق بها، وعلم البناء (المورنولوجيا) الاجتماعى قدم مساعدة ذات قيمة. فبأى نستطيع أن نثق؟ علينا أن نستمع إلى الطرفين ونختبر أوجه النقص التى يقدمها علم الاجتماع عن الجغرافيا البشرية وحتى إذا لم تستطع هذه الاتهامات التى تخرجنا عن الطريقة الجغرافية، وإذا لم تستطع أن تنال من اعتقادنا فى جدارة الجغرافيا البشرية وأحقيتها فى الوجود كعلم حقيقى مستقل فعلاً، فهلا تستطيع على الأقل أن تساعدنا على إيضاح المشكلة أو على الأصح وضع عدد من المشاكل المعقدة التى ينبغى علينا أن نحلها.

نقد الطريقة ونقد النتائج، هذا هو الطريق الذى يجب أن نتبعه، ونحن لدينا عدد كبير من المعلومات ولا نحتاج لزيادتها، ونحن نستطيع أن نهمل مسائل التقدير فى بعض الموضوعات، ولكننا هنا أمام علوم أخرى منافسة فلا بد أن نواجه موضوع الطريقة، إذ هى فى صميم الموضوعات.

فلنتخذ الجغرافيا والطريقة الجغرافية، ولكن إذا أبقت قيادتها لنا بعد عناء طويل وجاء ذلك بعد مجهود طويل للوصول إلى المبادئ الهادية بعناية وحرص.

- ٣ -

خطة الكتاب واتجاهاته

الروح الجغرافية

لن نقصر بحثنا على هذا الغرض الأول، لأن ذلك يجعل من البحث موضوعًا ناقصًا. والواقع أن اهتمامنا فى وجه المعارضة التى يعترض بها علماء الاجتماع على علم الجغرافيا وعلى أعمال الجغرافيا سيضىء لنا الطريق لنعرف أهداف بحثنا. ولكن هذه الطريقة غير المباشرة لا تعفينا من الدخول فى الموضوع والتعرُّف إليه. وإن كان لها من فضل فإن ذلك يعود إلى أنها منعتنا من الالتجاء إلى الصورة العامة أو إلى كتاب ملخص قصير للموضوع فى المقدمة.

سنبدأ بالوحدات الجغرافية الكبرى. الأقاليم الجغرافية التى ينقسم إليها العالم. وندرسها إقليمًا إقليمًا. ونعين مميزاتها الأساسية. ونلاحظ علاقة هذه المميزات بتاريخ الشعوب التى تتابعت فى كل إقليم. ويبدو أن هذه طريقة تاريخية جغرافية لمعالجة الموضوع ولكن أى فائدة ترجى من ذلك؟ ألا يتضمن هذا معرفة ودراية بجميع أنحاء العالم وبتواريخ أممه الكبرى؟ إن هذا العمل شاق وخاصة إذا كنا نقوم به منفردين. والدليل على ذلك هو عجز هلمولتز (Holmholtz) فى القيام بهذا المشروع فى كتاب تاريخ العالم.

وأى كاتب هذا ـ سواء كان جغرافيًا أو مؤرخًا يزعم أن فى طاقته أن يلم إلمامًا تامًا بجغرافية الأقاليم المختلفة وتاريخها. وهنا نتساءل: أين هى المراجع المفيدة التى يمكن أن يعول عليها؟ هناك مثلاً كتاب مس سامبل عن التاريخ الأمريكى وعلاقته بالظروف الجغرافية [1]، وهذا الكتاب يحاول تفسير تاريخ أمريكا الشمالية على ضوء العوامل الجغرافية. ولكن هل هذا يسلبنا من الروح الناقدة؟

(1) American History & Its Geographic Conditions. Boston & New- York, 1903.

لا نظن ـ مهما كان إيمان الكاتبة قويًا فأمثال هذه الكاتبة يذهبون كل مذهب جامعين عناصر عديدة ذات صبغة جغرافية تاريخية ويزعمون أنهم يكتبون كتابًا ومثلهم فى ذلك مثل علماء التاريخ الطبيعى الذين يسيرون فى أنحاء الطبيعة ويجمعون شذرات من كتابها الكبير. هذه الشذرات تلهيهم عن الفكرة العامة والمنظر العام. كما يقول العالم السويسرى هوراس بندكت دى سوسور، مكتشف قمة مونت بلان، ويضيف إلى ذلك قوله «إنهم يشبهون هواة جمع التحف القديمة الذين ينبشون فى ساحة البانثيون أو الكوليسيوم بحثًا عن قطع الزجاج الملوّن(1)» ولا شك أنهم عقلاء متواضعون لم يحاولوا أن يشيدوا بانثيونا أو كوليسيوما من الزجاج.

إننا سنترك أمن هذه المهمة لكتّاب هذه السلسلة من الكتب فى دراساتهم الخاصة للبحث عن العوامل الجغرافية التى تتدخل مع غيرها. وإن كان تدخلاً حاسمًا فى تشكيل ما يسميه «تين» فى كلمة واحدة «البيئة» وخير مَن يفعل ذلك المختصون فى فروع التاريخ المختلفة. بشرط أن يكونوا على علم بنظرائهم من الجغرافيين وبالمبادئ التى تقوم على البحوث الخاصة المستفيضة وإلا لكان موضع هذا الكتاب فى مؤخرة السلسلة لا فى مقدمتها.

أما وقد انتهينا من رفض هذه الخطة فإنه تظهر لنا خطة أخرى. لا ترتبط بتاريخ بلد بعينه أو بجغرافية بلد بعينه. ولكنها تعتمد على مقارنة الظروف الجغرافية المختلفة التى تقوم بدور فعّال فى تاريخ الأمم والشعوب. وتجرّد المبادئ ذات الصبغة الجغرافية. مثل العلاقات المكانية والموقع الجغرافى والمساحة ... إلخ. وشرح أثر هذه المبادئ والقوانين العامة وتصويرها بأمثلة مستقاة من مناطق متعددة. ومن التاريخ العام لمختلف الأقاليم وتأليف كتاب يقوم على العموميات التى يمكن تطبيق نتائجها تطبيقًا عالميًا. تلك خطة جيدة ولكن دونها صعوبات.

دعنا نقرر بادى ذى بدء أن مثل هذه الخطة قد اتبعت فى كتب أخرى موجودة بالفعل. بالرغم من أنها تتفاوت فى أهميتها وقيمتها العلمية لأن مثل هذه الخطة حسنة ومفيدة. فلماذا تلخص مرة أخرى الجغرافيا البشرية أو الجغرافيا

(1) Voyages des Alpes, Neuchâtel, vol. I, 1780, p. III.

السياسية لراتزل؟ وما الفائدة من إعادة كتابة مجلدى كاميل فالوا الصغيرين «الأرض والدولة والبحر» أو كتاب مس سامبل الخاص بالمادة المتفاوتة القيمة الذى كتبته فى سنة ١٩١١، عن أثر البيئة الجغرافية؟

دعنا ننفذ إلى أصل المسألة: إن كل كتابات راتزل وكل قدرته الشخصية وكل معلوماته الواسعة الأفق عن أجزاء العالم وكل ما تقف عليه من معلومات تاريخية أو إثنوغرافية كلها لا تجدى فتيلاً فى عصر يعتمد على البحث المنهجى الدقيق. وإننا لنعتقد أن وزر هذه الكتابات وأمثالها ينحصر فى أنها تخفى صعوبات البحث وثماره علينا ولا تظهرنا على جهلنا العميق. وأنها تخلق فى عقولنا الاستعداد الحسن لتقبل القواعد العامة المصقلة. وأنها تلوح بسراب يوهمنا أن تلك القوانين المجرّدة مهما كانت قوية ومهما كانت صادقة فى تصوير جوانب الحياة المتعددة. إنما تتضمن الحقيقة العلمية. لقد وضعت أمام أعيننا عدداً من القواعد المقررة، أغرقت عقولنا وخدرت قوانا الناقدة وأسلمتها فى سبات عميق. لقد شيد راتزال بناء شاهقًا من الآراء والمبادئ والقواعد الجغرافية البشرية ولكنها جميعًا ليست علمية. مثل هذا البناء لا يدل إلا على قوة ذهن مهندسة [1]، ولكن عيبه أن عدداً كبيرًا من التلاميذ والمريدين قد استناموا فى ظله وظلوا فى سُبات عميق وقد قال عنهم راو (Rauh [2]) إنهم أكثر غفلة من أستاذهم لأنهم قصروا فى فهم كتاباته ويرتعدون خوفًا إن ساورت أنفسهم الرغبة فى إنكار كلمة واحدة كتبها. إنهم يألون دائمًا إلى العبارات العامة (formula) والقواعد والقوانين. وعلينا أن نتحرّر من هذا الاتجاه الذهنى الرتيب وعن هذه الروح المحافظة الجامدة.

إننا فى الواقع لا نعرف شيئًا حتى الآن أو لا نعرف إلا القليل عن تأثير البيئة الجغرافية على الجماعات البشرية لسبب غاية فى الوجاهة. إن الجغرافيا التى تحاول ذلك لم يكد يمض على نشأتها إلا قليل. ولم تؤسس بعد منهج بحثها. وهل هى ذات منهج؟ نعم ولا؟ إذ إن لها أكثر من منهج فى الفرع الذى يطلق عليه اسم الجغرافيا «البشرية» لها أكثر من منهج تعب الباحثون بينها حيارى. إن ذنبها

---

(1) Brunhes & Valloux, LXVIII, p. 324 h.

(2) Rauh, XXV, p. 29.

الوحيد أنها حديثة العهد. وليست هى وحدها الحديثة العهد إذ يشاركها فى ذلك علم الاجتماع وغيره من العلوم. ولكن الجغرافيا تواجه بشجاعة مشاكلها وتحدد ميدان بحثها وتضع لنفسها المنهج بعد المنهج وعلينا أن نشرح جهودها فى هذه السبيل وندافع عنها. المشكلة الأساسية أمامها هى مشكلة «البيئة» وهذه تعتمد أصلاً على طريقة ترتيب المعلومات وطريقة تطبيقها تطبيقًا جغرافيًا عالميًا مقبولاً.

ولكن إذا كان لا يزال يوجد شىء من التردد أو النزاع بين الجغرافيين حول المنهج فإنه مما لا شك فيه أن هناك أيضًا بين الجغرافيين نوعًا من التفكير الجغرافى والنزعة العقلية الجغرافية، ولدينا الآن طرق معيّنة خاصة يسلكها الجغرافيون كما يتبيّن فى كتاباتهم وأبحاثهم. فى النظر إلى الأمور ومعالجة المسائل وإن لم يكن لدينا طريق واحد ومنهج ثابت وهذه حقيقة لا ينبغى التقليل من أهميتها، ولقد ألقى «فردريك راو» فى كتابه «منهج علم النفس الوجدانى» الضوء على الروح العلمية عندما قال «إنها تتجلى بأشكال مختلفة لأنها فى بحثها عن المسائل المختلفة ثابتة لا تتغير»[١]، وهو يدعونا إلى أن نستبدل «بالمعلومات الجافة المجدبة» التى لا يقبل عليها «سوى النهمين إلى مزيد من المعرفة» معرفة أخرى من شأنها أن تفتح أمامنا «مجالات واسعة مثمرة» وأيضًا إيحاءات متجددة باستمرار، ويرى أن المنهاج الجاف خطر على «الاكتشاف العلمى» ذلك الاكتشاف الذى يتأتى من الاتصال بالحقيقة المعقدة اتصالاً وثيقًا. وهو أغنى وأثمن من مجرّد البرهان الذى يأتى ببطء بعد ذلك[٢]، وعلى أية حال فالروح الجغرافية والاتجاه الذهنى الجغرافى فحسب هما اللذان سيساعدانا على القيام بالمهمة التى نحن فى سبيلها.

يجب أن نتحرّر من أى ترتيب تاريخى أو جغرافى سابق. أو أى محاولة لاعتناق آراء سابقة ومحاولة إجبار الحقائق والأدلة على تثبيتها. أو وضع مجردات عامة معيّنة يخضع لها كل تاريخ وكل إقليم. ويجب أن نجتهد بقدر المستطاع فى تعرف

(1) Rauh, XXV, p. 25.
(2) Rauh, XXV, p. 23.

اتجاه الجغرافيين والمؤرخين نحو مسألة أثر البيئة فى الإنسان فهى مسألة دقيقة وذلك بعد القيام بمجهود شاق آخر نحو ترتيب نواحى هذه المسألة ووضعها فى مكانها العلمى الصحيح. وليس هذا بالأمر الهيّن، كما أنه ليس إلا جانبًا واحدًا فى المجهود العلمى إذ لا بد من تحطيم الآراء القديمة الفاسدة ولا بدّ من تحديد غيرها من الآراء الغامضة. ونسرع الخطى نحو الساعة التى تنهار فيها التعميمات البرّاقة والنظريات الجذابة والمقارنات اللبقة. وتفسح مكانها للعمل العلمى الصحيح. ونحن لا تنقصنا الروح أو العزيمة، بل يجب علينا أن نقصدها بقدر المستطاع لكى توطد أقدامها. فلمثل هذا الغرض يجب أن نوقف جهودا ويجب أن ننصرف عن محاولة تزييف نتائج وهمية جوفاء. بل هذا الكتاب كتاب نقد؟ إنه إذن لمجهود ضائع. أم هو نظرية وضعية؟ إنه إذن محاولة كبرى ونحن لا يهمنا سوى أنه كتاب يستهدف المعرفة الصحيحة والعلم وليكن ما يكون شأن الآمال التى يحاول تحقيقها.

لا داعى لترديد ما قلناه عن غرض الكتاب، ولكن ربما كان من الملائم أن نضيف شيئًا عن المؤلف. إنه مؤرخ بمساعدة مؤرخ آخر الذى سيحاول أن يرسم العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ، وهذا المؤرخ لم يوقف حياته على دراسة تلك المجتمعات البدائية القديمة. والتى توصف «بالبساطة» وباعتمادها المباشر على «الطبيعة» وهذا الوصف ناتج عن وهم معين. وعن نقص فى المعلومات الخاصة بها. ولكنه أوقفها على دراسة تاريخ المجتمعات الراقية الحديثة التى يظن الناس أنها قد تحرّرت من ربقة البيئة الطبيعية. وابتعدت عن مؤثرات البيئة الطبيعية بعدًا تامًا. وليس هذا راجعًا إلى عامل المصادفة أو الرغبة فى التفكير فى أى الجغرافيين. بل نتيجة خطة وضعت بعناية ودقة.

ليست النقطة الدقيقة فى الموضوع هى العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ. فمما لا شك فيه أن هناك اتصالاً وثيقًا بينهما. ولكن المهم أن أى موضوع جغرافى لا بدّ وأن يكون صورة معينة لشيء ما. صورة مكوّنة من عدد من الحقائق يبدو أنها تحقق الفكرة الجغرافية التقليدية عن حقائق العالم. والجغرافيا تعتقد أن لها منهجًا وتنظر لنفسها على أنها علم. وهى كأى علم حديث كما أظهر راو فى كتابه

السابق [1]، ذكره، تحاول أن تقتفى أثر علم راسخ منها قدمًا وأقدم عهدًا. وهذا العلم هو الجغرافيا الطبيعية الذى تحرر من الدراسات الطبيعية الأخرى. وهى لذلك قد اكتسبت منه بعض الاتجاهات التى لم تستطع بعد أن تتحرر منها. مثل الجبرية الصارمة والحتمية التامة، وقد حاول بعض الكتّاب فى الجغرافيا البشرية التحرُّر من تلك الجبرية، فنجح بعضهم ولم يصب التوفيق بعضهم الآخر. ونكص البعض عن محاولة التحرّر إطلاقاً.

أمّا التاريخ فله شأن آخر. فهو لا يعترف مطلقًا بأنه علم ولم يعترف المؤرخون بأنهم علماء [2]، وهذا أمر يهنأون عليه. بل ولم يخل هذا النقص من فائدة.

لا يعوق المؤرخ أى خضوع لقوانين معيّنة. ولا يتأثر فى أحكامه بنظريات موضوعة سابقة ينبغى أن لا يحيد عنها. أو يُخضع آراؤه لها. وبعبارة أخرى بينما كان يتعيّن على الجغرافى أن يرى صورة أو تخطيطًا عامًّا فإنه لا يعيق المؤرخ عائق من أن يدرس دراسة نقدية حرة. ونحن سنحتفظ فى هذه الدراسة بهذه العقلية النقدية.

لن تكون هناك صلابة تقديرية فى أحكامنا. وستتسم الخطة بالمرونة ولن تكون النتائج صلبة فاصلة ونحن فى إظهار وجهة نظر معيّنة لا نحاول إعادة خلقها. كما لن نحاول إعادة تكوينها منطقيًا. ولكننا سنتناولها بالنقد والتحليل ونقرع الحجة بالحجة. وسنستفيد بجهود علماء الاجتماع وسنخضع أوجه النظر للنقد حتى تظهر لنا الحقيقة ناصعة.

---

(١) فان راو Rauh (٢٥) ص ١٢ وما بعدها.

(٢) قارن بير Berr (٢١) الجزءان الثانى والثالث.

الباب الأول
القضية وكيف أن تعرض
مشكلة المنهج

لقد كان إميل دور كايم من بين جميع كتّاب المحولية أول مَن أثّر عن طريق نقده على الجغرافيا الحديثة وعلى محاولاتها الحديثة، فى المعاونة مع العلوم الأخرى على دراسة الإنسان دراسة معقولة. وقد تبعه بعد ذلك ـ مع اختلاف يسير ـ عدد من التلاميذ والتابعين فى إذكاء نفس الروح الناقدة. وقد كانت نقطة البدء لدى هؤلاء واضحة تماماً.

ف. راتزل هو الممثل للجغرافيا البشرية.وقد درس هذا العلم فى كتابه الشامل «الجغرافيا البشرية» والذى يعتبر بحق قطعته الأدبية الفنية الكبرى، جميع الآثار التى تتركها الأرض فى الحياة الاجتماعية بصفة عامة ولكن تلك خطة عويصة[1].

إنها فوق طاقة رجل واحد. هذا بديهى ولا شك كما أنها فوق طاقة علم واحد. ولكن هذا يحتاج لتقرير. فالمشاكل التى بين أيدينا لا حصر لها. والأكثر من ذلك فهذه المشاكل غير متجانسة. حيث إنه إذا استطعنا وضع القاعدة وتحديد المشاكل فحلها سيكون موكولاً بالزمن. إن هذه المشاكل تبحث عن عدم التجانس لدرجة أنها تحتاج لتقسيم عملى.

فهل يمكن أن تكون طبيعة التربة وطبيعة المناخ ذواتى أثر على نظرة البشر الإجمالية للأمور وعلى أساطيرهم وخرافاتهم وعلى فنون البشر المختلفة؟ هذا أمر يجب تحقيقه ولكن أليس الأفضل ترك هذه المشكلة لعلم الاجتماع الدينى أو على الأقل علم الاجتماع الإجمالى - Sociologie religieuse ou esthétique.

ليست هناك استحالة مبدئية فى تأثير التربة والمناخ على تشكيل الأمم وتوجيه طرق تفكيرها أو على ميولها السياسية والقانونية والأخلاقية. ولكن أليس

---

(1) Durkheim, XVII, vol. III, 1898 - 9, p. 356.

من الأفضل ترك هذا الموضوع لعلم الإثنولوجيا «تكوين الخلق» الجماعية (L'ethnologie Collective) لكى يبحثه من يجمع العوامل والقرائن الخاصة بها ويحل مشاكلها؟

وهناك احتمال كبير فى أن التربة والمناخ ذوىّ أثر فى توزيع البشر على سطح الكرة الأرضية وفى تسهيل أو تصعيب تجمعهم أو انتشارهم عليها. ولكن علم السكان (الديموجرافيا) هو الذى يبحث ذلك التجمع أو الانتشار.

ونستطيع أن نرى الاعتراض الذى يمكن أن يعترض به. فنحن ندعى أن هناك علمًا حديثًا تكوّن ليجيب عن هذا السؤال «ما الآثار التى تتركها البيئة الجغرافية بطرق مختلفة على المجتمعات البشرية» وهذه مشكلة كبيرة. ولكن يمكن تقسيمها إلى عدد من المشاكل تنتمى كل إلى علم مختلف. فكيف يستطيع إنسان واحد غير ذى دراية بهذه العلوم المختلفة. كيف يستطيع هذا الإنسان أن يكون بارعًا فى هذه العلوم جميعًا بمجرّد كونه جغرافيًا؟ مثل هذه الجغرافيا ليست إلا دخيلة على النطاق الاقتصادى والاجتماعى وكل نتائجها داخلة فى نطاق علوم الاجتماع الأخرى وتصب فيها وتنتهى إليها. وما تستطيع إلا أن تحل محلاً ثانويًا بجانبها. وعالم الاجتماع وحده (الاجتماعى - الديموغرافى - والإيثولوجى... إلخ) هو الذى يستطيع أن يدرس هذه المشاكل دراسة منطقية حذرة. وليست دراسة مندفعة طائشة كالتى قام بها الجغرافيون، ولكن هل يقتصر الجغرافيون على ذلك؟

أليسوا يدرسون أثر الجغرافيا فى الإنسان كما يدرسون أثرها فى المجتمعات البشرية؟ وهذا التقسيم ضرورى بين الإنسان والمجتمعات البشرية. اللهم إلا إذا شئنا أن نجرّد البشر ونستغل صفة الإنسانية فحسب. ولكن عالم الاجتماع يفرّق بين الإنسان كفرد وبين المجتمعات البشرية.

وهنا أيضًا نجد معلومات الجغرافى إضافية. إذ إن هناك علم الاجتماع وعلم البناء الاجتماعى (Morphologie Sociale) الذى يدرس الأساس المادى للمجتمعات لا بقصد وصفها فقط بل شرحها أيضًا. أى دراسة الشكل الذى تتخذه عند توطيد أساسها فى الأرض. عدد السكان وكثافتهم وتوزيع هؤلاء السكان ومجموع

الأشياء التى تكون مركز الحياة الكلية فى المجتمع «كما يقول ماوس Mawss [١] وهكذا تبعث الجغرافيا البشرية من مرقدها مرة ثانية أكثر تواضعًا وأكثر تحديدًا فى هدفها وأقل اندفاعًا فى طريقها. وبذلك يستطيع علم البناء الاجتماعى أن يحتل مكانه ولا خطر عليها فى أن تضل طريقها فى شعاب متفرقة أو تشتت مجهودها فى محاولات ضائعة، فإن البناء الاجتماعى سيظل تابعًا لآثار علمية محدود الأفق واضح الأهداف. وبذلك تصبح وظيفتها محددة وسهلة نسبيًا ولن تضحى بشىء للجغرافيا الاجتماعية كى تبحثه أو تجعله فى نطاق بحثها. هذا ما يؤكده ماوس فى الحولية الاجتماعية [٢]، يعيد تأكيده شورتز (H. Schurtz [٣]) فى كتابه (Volker kunde) فهو لا يفهم من الجغرافيا البشرية مجرّد تأثير الموقع الجغرافى على الإنسان بصفة عامة، بل دراسة فعل الظواهر الأرضية على المجتمعات ولا سيما من ناحية نظر العادة، وهنا يسرع م. ماوس لإنقاذ الموقف فيكتب قائلاً «إذا كان شورتز يضمن فى تعريفه ـ الذى حاول أن يكون منطقيًا ـ دراسة بيئة الشعوب وحركاتهم والتصاقهم بالأرض مكونين دولاً، جغرافية سياسية، فحسب ـ بل دراسة هجرات الشعوب وقيام المدن وتوزيع السكان على سطح الكرة ـ فإنه يكون قد وصل إلى فكرة البناء الاجتماعى التى ندافع عنها هنا».

هذه فقرة واضحة مفيدة بلا شك فهى تلقى ضوءًا على حقيقة المنافسة بين العلمين وشدّتها، وقد يعترض على هذا بأن تلك المنافسة نظرية فقط، ولكننا لا نستطيع أن نقلل من أهمية وسائل البحث وطرقه وروحه فى المسائل الخاصة بالدراسة والبحث.

علينا أن نختار بين الجغرافيا البشرية وبين دراسة البناء الاجتماعى. ليست المسألة خاصة بعراك بين مدرستين بل نحن أمام مسألة جوهرية. فعلينا أن ننتقل بعد ذلك لفحص تلك المسألة.

---

(1) Mauss, CCXV, p. 39.
(2) XVII, vol. vIII, 1903 - 4 p. 167.
(3) Leipzig - Vienna, 190.

الفصل الأول

علم المورفولوجيا الاجتماعية - أم الجغرافيا البشرية

يمكن تلخيص اتهام علماء الاجتماع للجغرافيا البشرية فى كلمة واحدة.. هى الطموح، فهم يقولون للجغرافيين إن علمهم محدد غاية التحديد. ولكنه فى نفس الوقت بعيد الطموح. فهم إذا بحثوا جماعة من البشر أو مجتمعًا إنسانيًا فإنما يهتمون أولاً بالتربة التى تستقر عليها هذه المجموعة أو المجتمع وليس هذا الأساس أو العماد الأرضى الذى تستقر عليه المجتمعات الإنسانية شيئًا خاملاً لا قوة له. فإنه يتفاعل مع الناس الذين يعيشون عليه. إنه «يؤثر» فيهم طبيعيًا وروحيًا، إنه «تفسيرهم» كمجموع وكأفراد. هو وحده الذى يؤثر فيهم ويعمل فيهم عمله. وهنا نجد التطرُّف الذى ينتهى إليه المتخصص ويبيّنه فى وضوح.

يبدأ الجغرافى من التربة وليس من المجتمع ولا ريب أننا لا نستطيع أن نزعم أن التربة هى «علة» المجتمع. فراتزل يكتفى بأن يقول بأنها «الرباط الوحيد الماسك لكل شعب [1]» ولكنه يولى اهتمامه أولاً وقبل كل شىء نحو هذه التربة. فهو لا يهتم إلا بالعمل الجغرافى الذى يحاول أن يحلله ويبيّن أثره. وفى هذا ينقده ماوس قائلاً [2]: «بدلاً من دراسة المجتمعات الإنسانية والعوامل الخاصة لكل نشاطها فإنه يهتم بالتربة اهتمامًا خاصًا ويركّز عليها جهوده ويجعلها فى مقدمة أبحاثه دائمًا». أما علم البناء الاجتماعى فشىء آخر. فهو يدرس كل ما يتصل بالمجتمعات البشرية لا لذاتها ولكن بوصفها بعض العوامل التى أثرت فى تكوينها كوسيلة لفهم حياة هذه المجتمعات ومصائرها، فهى لا تبدأ بالتربة ولا يرجع إليها الفضل الأول فى تشكيل المجتمعات البشرية، ولما كان هذا العلم يدرس

(١) (٨٣) المجلد ١، ص (١ - ٢).

(٢) ماوس (١٧)، (١٩٠٤ - ١٩٠٥) ص ٤٢.

مجموع الأفراد الذين يكونون المجتمعات الإنسانية المختلفة وطرق حياتها وطبيعة الأمور التى تربط بين أفرادها [1]، فإنه يستطيع أن يتبوأ مكانه ضمن العلوم الاجتماعية التى اهتم بها الأستاذان دركايم وفوسونيه [2] (Fauconnet) ونلاحظ أن العالم الاجتماعى يهتم أولاً «بالمجتمع وليس بالأرض» كما يفعل الجغرافى. إذن فهناك اختلاف فى وجهه نظر الجغرافيا البشرية وبين علم البناء الاجتماعى كما يقول ماوس [3]، ونحن نوافق على ذلك بل نذهب إلى أبعد من هذا ونقول: إن الفرق أعمق من هذا بحيث لا نستطيع أن نستبدل علم البناء الاجتماعى بعبارة الجغرافيا البشرية. وعلينا أن نتقدم خطوة أخرى وندرس الفرق من حيث العمل لا من حيث النظر.

---

(١) دوركايم (١٧) ١٨٩٩ ص ٥٢٠، Halbwachs La classe u ouvriére et les niveaux du vie, p. 369, n. 1.

(٢) "Sociologic et sciences sociales", Rev. Philosophique, Mai 1903.

(٣) (١٧) المجلد ٩، (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥)، ص ٤٩.

- ١ -

الاعتراض على علم المورفولوجيا الاجتماعية

تجمعات بشرية لا تقوم على أساس جغرافى

لا توجد جماعة بشرية أو مجتمع إنسانى دون أساس أرضى. هذه هى نقطة البدء الجغرافية عادة. ولكن هذا القول مشوب بالشك، فهناك فرق بين الجماعة والمجتمع. فهناك جماعات بشرية عديدة. من هذا النوع الذى يفضله علماء الاجتماع. لا تتأثر إلا قليلاً جدًا بالعوامل الجغرافية، وقد بيّن لنا العلماء الإثنولوجيون الألمان والإنجليز والأمريكيون الذين كان ينقصهم التدريب الجغرافى والذين درسوا مجتمعات بدائية فى العالم الجديد والمحيط الهادى، وجدوا أن المجتمعات غير المتمدينة لا يربط ببعضها البعض الآخر رباط جغرافى بالمعنى الدقيق. بل إنهم يرتبطون بالطواطم البعيدة كل البُعد عن الأصول الجغرافية. ولنضرب مثلاً: شعب الأرنتا الذى يسكن وسط أستراليا والذى وصلت إلينا تفاصيل نظامه الاجتماعى الذى بلغ من تعقيده أن اختلف الكتاب فى روايته وتعليله. هذا الشعب الذى درسه سبنسر وجلين (Gillen) من عمداء علم الاجتماع عام ١٨٩٩ وعام ١٩٠٤، فيما يختص بشمال أستراليا [١]، وظهرت أبحاثهما عن قبائل وسط أستراليا الأصلية وقبائل شمال أستراليا الأصلية.

وهؤلاء البحاثة يمتازون بالدقة فى جميع المعلومات وإن كانوا قد أخطأوا ـ كما يقول ج ـ سيون [٢]، فى أنهم وصفوا الظواهر الاجتماعية والدينية لدى شعب لم يدرسوا أسس حياته المادية. على أى حال فإن دراستهم تلفت نظرنا إلى وجود ثلاث جماعات يتميز بعضها عن البعض الآخر بشكل معقد جدًا. فهناك أولاً جماعات يتميز بعضها عن البعض الآخر تمييزًا جغرافيًا، لكل وطنها الخاص،

---

(١) ثبت المراجع (٢١٢)، (٢١٣).

(٢) Rev. de géographie annuelle, Vol. I, 1906-7, p. 417.

وكل تحمل اسم مكان يدل عليها، ولكل قطعة أرض محددة تعيش فيها. ولكن إلى جانب هذا جماعات أمية وصفها در كايم فى كتابه عن التنظيم الروحى للمجتمعات الأسترالية [1] (L'organisation matrimoniale des societés--àustralienne).

وهذه طوطمية التكوين لا يربطها بالتوزيع الجغرافى أى رباط. وفوق ذلك فإن التقسيم الطوطمى غير الجغرافى أهم لدى الأرنتا من التقسيم الجغرافى. وقد أشار دور كايم باستمرار (وخاصة فيما يختص بكتاب Howitt، من قبائل جنوب شرق أستراليا) إلى الغموض الكبير الذى يكتنف التقسيم الجغرافى بقبائل الأرنتا فى نظر المراقبين البيض.

مثل هذه الحالة تنتشر فى بقية أنحاء أستراليا [2]. إذ يشمل القبائل الأسترالية عادة نوعان من التقسيم أحدهما جغرافى والآخر يعتمد على النظم الزوجية، وكذلك الحال فى قبائل سليمان التى درس الألمان قبائلها، حيث يسود نظام طوطمى معقد منفصل تمامًا عن التقسيم الجغرافى. وفى بعض قبائل الأمازون [3] البدائية التى تعيش فى الغابات ولم تخرج عن طور الهمجية قط. ومن الغريب أن نجد أن النظام الطوطمى يتلاشى أمام المبدأ الإقليمى ممثلاً فى المجتمعات القروية ولا داعى هنا للإطالة فى سرد الأمثلة [4].

ونستطيع أن نهمل استغلال هذه الأمثلة فى الدلالة على ضآلة الأهمية الجغرافية وإن كانت بعض الملاحظات ذات أهمية فى هذا الشأن.

أولاً ـ أن المجتمعات البشرية تمر باستمرار من الحالة غير الإقليمية إلى الحالة الإقليمية. فالمجتمعات الإقليمية تميل إلى أن تتجمع باستمرار وتستقر فى مناطق جغرافية. فقد سبق ذكر التنظيم الطوطمى دون أساس جغرافى ولكن هذا بين شعوب مثل الهنود البيلو (Pueblo Indiaus) فى أريزونا ونيومكسيكو الذين

---

(١) (١٧) مجلد ٨، (١٩٠٣ ـ ١٩٠٤) ص ١٢١ وما بعدها.

(٢) ١٧ مجلد ٩، (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) ص ٣٥٨ وما بعدها.

(٣) Beuchat (٢٩٩) ص ٢٥٣؟

(٤) قارن (١٧) مجلد ٣، (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩) ص (٣٤٠، ٣٤٥) مجلد ٩، (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) ص ٣٥٦... إلخ.

أسسوا منازلهم وقراهم على نظام طوطمى ويكادون يعيشون فى نظام مدنى (١) ومثل هذه الحالة تظهر أيضًا فى الأرنتا الذين يعيشون بالقرب من خليج كريانتاريا (٢). ففى هذه القبائل يتحد التقسيم الطوطمى والتقسيم الجغرافى. فلكل إقليم طوطمه الخاص، ولهذا أصبح الرئيس الإدارى للإقليم فى نفس الوقت رئيسه الدينى. وليس فى هذا عجيب، فدركايم نفسه يلاحظ أن هذه الحالة تظهر عندما يكون الطوطم ممثلاً للوراثة الأبوية (٣). وعندما لا يتدخل الزواج فى تغيير طوطم أحد الزوجين أو نسلهما.

كما أننا لا نستطيع أن ننظر إلى هذه الجماعات غير الإقليمية على أنها تعيش فى «الهواء» مثل الناس الممثلين فى الرسوم الصينية كما يقول ميشليه، فمن المستحيل كما يقول دركايم (٤) فى معرض حديثه عن قبائل جنوب شرق أستراليا على أى مجموعة ألا ترتبط بأى رباط بالإقليم الذى تعيش فيه. فالتحليل الدقيق يبيّن أثر العوامل الجغرافية فى أقل الجماعات «إقليمية» إذا أدخلنا المناخ ضمن العوامل الجغرافية. فهناك مثلاً على الساحل الباسيفيكى لأمريكا الشمالية جماعات ذات تنظيم مزدوج مثل الكواكيوتل (Kwakiutls) الذين درسهم العالم الأمريكى بواس (Boas (٥)) أحدهما تقسيم دنيوى - تقسيم الشعب إلى قبائل وبطون وعشائر، والآخر دينى ويعتمد على التقسيم إلى مجموعات تحت حماية آلهة وأرواح معيّنة. ولكن التقسيم الدنيوى يسود فى الصيف والدينى فى الشتاء، هنا تنتصر الجغرافيا مرة أخرى فالانقلاب الفصلى إذن هو السبب فى التحوّل من تقسيم إلى تقسيم. وعلى أى حال فقد كانت ملاحظة دوركايم جديرة بالعناية.

إن راتزل وقد تأثرت عليه نتائج كتابه فى الجغرافيا البشرية - بآرائه السابقة فى كتابة الجغرافيا السياسية إلى الصبغة السياسية منه إلى البحث العلمى والأقل قيمة من كتابه الأول. يشبه الاستعماريين الألمان حين يقول: «إذا كانت

---

(١) (١٧) مجلد ٧، (١٩٠٢ - ١٩٠٣) ص ٦٤٩.
(٢) دوركايم (١٧) مجلد ٨، (١٩٠٣ - ١٩٠٤) ص ١٢.
(٣) نفس المرجع.
(٤) (١٧) مجلد ٩، (١٩٠٤ - ١٩٠٥) ص ٣٦٠.
(٥) (١٧) مجلد ٣، (١٨٩٨ - ١٨٩٩) ص ٣٣٦.

أبسط الدول طرازًا لا يمكن تصوّرها دون أرض تنتمى إليها فكذلك الأمر فيما يتعلق بأبسط الطرز الاجتماعية. تلك نتيجة لا مفرّ منها[1]، الأسرة والقبيلة والمجتمع غير ممكنة بدون الأرض. ولا يمكن فهم نموها بغير ربطها بتلك الأرض» ونلاحظ أولاً أن هذه الصور الاجتماعية ليست بدائية. فهناك جماعات بشرية لا تؤثر فيها الأرض إلا أثرًا محدودًا جدًا. ولكن ما طبيعة المشكلة بالضبط هنا؟ «إن أبسط الطرز الدولية لا يمكن تصورها دون أرض تنتمى إليها. وإضافة الكلمتين الأخيرتين لم توضعا عبثًا، الأسرة والقبيلة والمجتمع غير ممكنة بدون أرض ولا يمكن فهم نموها بغير ربطها بتلك الأرض»، فهل هناك غير اختلاف يسير بين الجملتين؟ والفرق يرجع إلى أن العبارة الأولى تعود إلى علم الصور الاجتماعية والثانية إلى علم الجغرافيا البشرية، ومن الغريب أن دوركايم عندما يلاحظ أنه من المستحيل أن تنفصل مجموعة اجتماعية من الأرض التى تحتلها وألا تحمل آثارها إطلاقًا يشير إلى المعنى الثانى - التى يتفقّدها فى مكان آخر - بينما راتزل يكاد يرى الرأى الأول. ولكن كلا الرأيين غامض وهذا الغموض يجعل التحليل أمرًا عسيرًا.

على أنه كان هناك أساس لهذا التمييز. فثمة أشكال اجتماعية تعتمد على أساس أرضى، فهؤلاء الذين وضعوا أيديهم على قطعة من الأرض احتجزوها لمتعتهم الخاصة واعتبروها منطقتهم الخاصة. هذه الأرض مظهر نشاطهم - انعكاس نفسيتهم على الأرض بل إنها لتكاد تكون شكلهم بأدق معانى الكلمة. بالمعنى الذى يعرفه بوجليه (Bouglé) عند تحليله فكرة الصور الاجتماعية فى الحولية الاجتماعية عام ١٩٠٠، وعندما لخص آراء دوركايم الكلمة، «شكل» تستعمل هنا لمعنى دقيق، فهى مسألة أشكال مادية يمكن أن تمثل تمثيلاً تصويريًا[2]. ويضيف الاجتماعى إلى ذلك أن تلك الصور تكون المجال الحقيقى لعلم الصور الاجتماعية. وها نحن أولاء أمام أمر محدد ولكن هناك بعض المجتمعات التى لا تملك لها مناطق خاصة أو التى لا تحدها حدود ثابتة.

---

(١) راتزل (٧٦).

(٢) (١٧)، ١٩٠٠، ص ١١٢، هذا المقال مفيد فى تبيان وجهة نظر عالم الاجتماع عن المورفولوجيا الاجتماعية.

حقًا إن البشر الذين ينتمون إليها يعيشون على الأرض وفى إقليم ما تحت سماء تظلل غيرهم من البشر. فهم إلى حد ما يشاركون غيرهم حياتهم الدنيا ولكنهم يختلفون عنهم كمجموعة ويكونون مجموعة من الصعب تصويرها بشكل جغرافى فهم لا ينتشرون فى قطعة أرض خاصة.

ولكن ما قيمة هذا؟ هل للتمييز الذى قدمناه قيمة حقيقية؟ هل هو يؤيد الاجتماعي ويرجح كفته على الجغرافى؟ لسنا نميل إلى ذلك الرأى بسبب ما قدمناه من مجالات الانتقال بين العلمين. فالمجتمعات الأسترالية التى سببت كل هذا الجدل تعتمد فى نظامها كما يلاحظ دوركايم[1] على النظام الطوطمى. ثم جاء التقسيم الجغرافى بعد ذلك أو بالأحرى أن النظام الطوطمى كان سابقًا للتقسيم الجغرافى. ونكرر ما قلنا اعتمادًا على التحليل الاجتماعى: إن هذه مسألة ليست سهلة وتحتاج لشرح وتفسير «لم يحدد المجتمع أى عائق مادى ولم يقرر شكله أى مظهر تضاريس للأرض. فكانت القبيلة فى الأصل مجموعة عشائر وليس أقاليم. ووحد القبيلة طوطم وما يرمز إليه من مُثل» وأخيرًا فإن هذه المناقشة تتمخض عن شىء واحد. إن أحد الموضوعات المهمة عند الاجتماعى وهو تلك الجماعات التى لا تمتاز بالمكانية ـ لا تقدم مجالاً كبيرًا للجغرافى. لكن بعد كل ما قيل هل نستطيع أن نقول إنها تقدم للجغرافيين أكثر مما تقدم للاجتماعيين؟ فهؤلاء الأخيرون يقولون فى شىء من اليأس حيث لا توجد صور، تدرس، لا نجد مجالاً لنا وهذا ما لا يهتم به الجغرافى. إنه لا تهمه «الصور» الاجتماعية بقدر ما يهمه المكان الذى تعيش فيه الجماعات وما يمتاز به من مناخ وغلاَّت وغيرها من مقومات الحياة التى يمتاز بها المكان الذى يرتاده الناس كأفراد فى مجتمعات خاصة، مجتمعات جغرافية. وهنا نرى دون شك بشكل أكثر وضوحًا الفرق بين: الصورة الاجتماعية والجغرافية.

---

(١) (١٧) مجلد ٩، (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) ص ٣٦٠.

- ٢ -

أعراض علم المورفولوجيا (الصور) الاجتماعية

طموح الجغرافيا

هناك أهداف أخرى لعلم الصور الاجتماعية أكثر تحديدًا وأحرى بها من نطاق الجغرافيا الطموح، ويكفى للدلالة عليها مثل واحد نقتبسه من كاتب يعنى ما يقول. فلقد كان من آراء فيدال دى لابلاش [1]، أن زراعة الأرز ذات أثر كبير فى مجتمعات الشرق الأقصى وذلك بسبب غلتها الوفيرة وما تتطلبه من عناية كبيرة. ففى كمبوديا تستطيع أسرة الفلاح أن تعيش - إذا اقتضى الحال - على غلة فدانين ونصف الفدان من الأرض. ولكنها تحتاج لأيدى عاملة عديدة تعمل باستمرار. فماذا تكون النتيجة؟ لقد صور النتيجة فيدال دى لابلاش. وهو متأثر بالوسط الذى يعيش فيه وبالجمهور الذى يحاضره وبموضوع محاضرته - الظروف الجغرافية للوقائع الاجتماعية - فى مدرسة الدراسات الاجتماعية العليا «يجب أن أحذر من التعميم الكثير ولكن إذا كان فى المجتمعات الشرقية القصوى التى ترتكز على الصين نظام اجتماعى متين قوامه الأسرة والقرية. فإننا نرى علاقة سببية بين طريقة الزراعة التى ترجع إلى الظروف الجغرافية وبين النظام الاجتماعى الوحيد الذى نجده هناك [2]، ومهما تكن من براعة فى هذه الملاحظة ومن أحكام فى التحليل فإننا نجد هنا تفكيرًا مهلهلاً وطموحًا فى نفس الوقت: فثمة حضارات أخرى عديدة تمتاز بأساليب أخرى فى الحياة فى بيئات أخرى حيث نظام اجتماعى متين تكون الأسرة والقرية حجر الأساس، وأكثر من ذلك يجب أن نحذر الرأى القديم الذى يرى أن هناك تدريجًا فى المجتمعات البشرية من البسيط إلى المركب من أسفل إلى أعلى أى من العشائر، فالقرى فالقبائل

---

(١) قارن أيضًا ويكوف (١٢٤) ص ٢٢٨.

(٢) فيدال (٣١) ص ١٨ (يرجع هذا المقال إلى عام ١٩٠٢).

فالأمم. فليست الأسرة أول نظام. فلقد استقت نظمها فى جميع الحضارات وفى جميع الأقاليم من الخارج. إنها لم تأخذها من الظروف الجغرافية ولكن من قوة الدولة. من النظام السياسى كمجموع [1]، أما وقد توطد النظام الاجتماعى فريما أضافت إليه زراعة الأرز فى الشرق الأقصى حيث تسود قوة ماسكة تزيد فى قوته ونفوذه ولكننا لا نستطيع أن نتطرف ونقول مع دركايم ـ هذه المرة باحتراس ـ «إن المؤثرات الجغرافية أبعد من أن تكون تافهة. ولكنها لا تمتاز بصفة الشمول التى توصف بها . فليس هناك مظهر اجتماعى واحد يرجع إلى تلك المؤثرات على ما نعلم» ثم يضيف بعد ذلك «كيف يمكن أن يحدث هذا» حيث إن الظروف الجغرافية تختلف من مكان إلى آخر «بينما نجد تطابقًا فى الطرز الاجتماعية (إلا بعض الشذوذ فى الأفراد) فى معظم أنحاء العالم».

ولنضف مثلاً آخر. ولا نخش تعدد الأمثلة: إن المسكن البشرى أو المنزل من أبرز الظواهر فى «البيئة البشرية» التى يجب أن يدرسها الجغرافى بمنتهى العناية إننا نألف المسكن البشرى فى حضارتنا الغربية حتى إننا لنشعر بالدهشة إذا تفقدناه. فهناك فى فيافى أرومرويكا (Armorica) تهفو النفس إلى مرأى طاحونة هواء وهى تطل عملاقة من وراء الأفق. وتبعث فيها الشعور بالثقة والأمن بعض تلك الانفعالات التى مرّ بها برسيفال لاندن فى طريقه إلى لهاسا عندما رأى شجرة صفصاف فى هضاب التبت المرتفعة. ولكن هل نستطيع أن نقول إن هذا المنزل هذا المأوى البشرى مهما كان متلائمًا فى مظهره وترتيبه ومواد بنائه للتربة التى يقوم عليها أو للمناخ المحلى حقيقة جغرافية؟ قد يقال إنه حقيقة بشرية ولكن هذا لا يعنى أن يكون حقيقة جغرافية.

هناك بعض الجغرافيا فى حقل من القمح ولكن حقل القمح ليس حقيقة جغرافية. إن المنزل حقيقة جغرافية للجغرافى على الأقل. هناك بعض الجغرافيا فى هذا الموضوع وليس معنى هذا أنه كله موضوع بحث للجغرافى. أو ليس له الحق فى بحث الفكرة الأساسية للمنزل؟

من السهل أن نورد عددًا كبيرًا من الجمل المقتبسة عن الجغرافيين لكى نبيّن أن بعضهم لا يهتم بشىء خارج موضوع بحثه. ويظهر جهلاً فاضحًا بالعلوم

---

(١) انظر الجزء الثانى، الفصل الثالث.

الأخرى. ويكتفى بعدد من الألفاظ والقوانين ما دامت مختصرة وشاملة، فكم منهم مَن يخرج إلى العالم بعدد قليل من هذه المفاتيح الكبيرة يعالج بها الأبواب التى تصادفه ويستشعر السعادة إذا انصاعت أمامه بعض الأقفال الكبيرة مهما كان قاسيًا فى معالجتها «أولى ضروريات الإنسان هى الماء» فإذا كان الماء السطحى قليلاً نادرًا مثل الحال فى بوس (Bauce) أو شامبانيا البيضاء وأقاليم الأحجار الجيرية بصفة عامة تتركز القرى كثيفة حول النقط التى تغزر فيها المياه. وإلا فإنها تمتد عدة أميال بحذاء مورد ماء. ولكن حيث يغزر الماء ويوزع توزيعًا حسنًا كما هى الحال فى جزيرة فرنسا والليموزين وبريطانيا وويلز .. إلخ فإن المساكن تتفرق [1].

ثم يُضاف إلى ذلك جزءان من خريطة ذات مقياس كبير لتصور تلك القضية. وبهذا نجد بين أيدينا قانونًا عامًا قد يكون قانونًا جغرافيًا ثابتًا. لا يعرف تطبيقه أى حد. ولكن من الواضح أن الماء إذا انبثق من أى حفرة صغيرة تحفر فإن المنازل يمكن أن تتفرق فوق الإقليم وأن هذا التفرق أسهل لها من الحالة المناقضة [2]. ربما فهذه مسألة احتمالات. ومرة أخرى إذا كان أثر الظروف الطبيعية المحلية لا يمكن إنكارها. فهل معنى هذا رفض الظروف الأخرى؟ ألم يحدث مثلاً أن بناء القرية قد فكّر فيه وتصورته جماعة من المهاجرين فى بلد بعيد وتحت ظروف مناخية مختلفة. ثم حملوه معهم إلى حيث حط بهم الرحال؟ ألم يحدث أن بنى المهاجرون الجدد منازلهم على طراز منازلهم فى وطنهم الأصلى [3]؟ ألم يحدث أن التجربة قد أتت على هذه الطرز بالتغيير دون الأسماء؟ فلننظر إلى منطقة (Caux) السكان هنا يتفرقون فى الغرب ويتركزون فى الشرق، بينما تكاد الظروف الطبيعية فى كل قسم تنطبق على الآخر تمامًا. وليس ما يمنع الشرق من عمل برك وما يمنع الغرب من حفر آبار كالشرق [4]. أما مزرعة الـ (Cauchios): وهى الطراز السائد فى الإقليم كله، فهى ملائمة تمامًا لحاجاته. ولكن أنواع المزارع الأخرى من طراز آخر قد تفى بالغرض أيضًا [5]، تلك هى ملاحظات أحد

(١) لسباينول Lespagnol (١٧٩) ص ٥٢٣.
(٢) Sion (٢٢٩) ص ٤٦٥.
(٣) نفس المرجع ص ٤٦٦.
(٤) نفس المرجع ٤٩٣.
(٥) نفس المرجع ص ٤٩٥.

الجغرافيين التى تدل على أن صاحبها لا يقنع بالمفاتيح الكبيرة التى تحدثنا عنها آنفًا. إلاّ أنها لا تدل على أن هناك الكثير من الباحثين فى الجغرافيا الذين لا يكترثون لغير موضوع بحثهم ولا يهتمون بما عند جيرانهم. ففى حالة المساكن هناك ميل طبيعى لإهمال أو إنكار الأثر الثقافى «الذى يرجع إلى اختلاف السلالات» فى تشكيل المساكن. وهذا ما قال به متزين (Meitzen) دون أن يلقى معارضة [١]، رغم أنه يمكن إثارة كثير من الاعتراضات على نظريته أو إهمال الجانب التاريخى وهو لا يمت دائمًا إلى اختلاف السلالات ولكن هذه تحفظات يجب على الجغرافيين مراعاتها. مثل هذا التجاهل اللا شعورى أو اللا إرادى لقوة التقاليد وفعل العوامل الاجتماعية الدائب قد يؤدى بالاجتماعيين إلى إلقاء اللوم على الجغرافيين على الأخطاء التى يقعون فيها بسبب هذا التجاهل. ولكن تلك أخطاء علم حديث متوثب لا يعرف كيف يحدد مجاله أو مجال جيرانه.

والآن فنلخص ما أسلفنا. إننا نفهم الآن أفضل من ذى قبل ماذا يقصد المورفولوجيون الاجتماعيون عندما يصبّون جام غضبهم على ذلك العلم الكبير الطموح والذى يسمى نفسه بالجغرافيا البشرية [٢]، فهم يقصدون بالطموح أمرين - أولاً - أن الجغرافيين يحاولون أن يفسروا بجغرافيتهم أو على الأقل أن يشملوا فى دراستهم جميع المجتمعات البشرية من أبسطها حتى أشدّها تعقيدًا ومن أدناها إلى أرقاها. وأن المرء إذا استمع لهم - أى إلى الجغرافيين ليخيل إليه أن جميع العلوم الاجتماعية طوع أمرهم. بينما ليس الأمر كذلك. فالمجتمعات لكى توزع توزيعًا مكانيًا يجب أن تحرر من قبضتهم. وثانيًا - إنهم يحاولون تفسير تلك المجتمعات الأخيرة التى لا تدخل ضمن نطاق بحثهم بالجغرافيا - والجغرافيا وحدها. وهم هنا يرتكبون خطأ كبيرًا وهو إهمال شأن علم الاجتماع بنظرياته وطرق بحثه الحريصة لأن هدفه موضوعى ومحدد أمامه.

لقد اعتذرنا عن الجغرافيين فى النقطة الأولى. فإن الشكاوى ضد الجغرافيين فيها لا تقوم على أساس متين. فهناك مجتمعات بشرية لا تعتمد اعتمادًا تامًا

(١) المراجع (١٦٣) راجع أيضًا Brunhes (٦٦) ص (٧٦٠ - ٧٧٠).

(٢) سيمياند Simiand (١٧) المجلد ١١، ١٩٠٦، ١٩٠٧، ٧٢٣ (كلمة السطح كما يعنى بها الكتّاب الفرنسيون تعنى مظهر البيئة الطبيعية العام. فهى نتاج السطح والنبات الذى يغطى السطح. «المعرب».

على سطح الأرض. ونعنى بالسطح هنا أبسط ما يمكن أن تعنيه الكلمة. لأنهم لم يقتطعوا لأنفسهم جانبًا معينًا من السطح. ولكن هناك مجتمعات أخرى لعب السطح فيها دورًا رئيسيًا فى حياتها المادية. كما أن هناك عوامل أخرى بجانب السطح تؤثر فى حياة المجتمعات. وهذه العوامل تخضع لها المجتمعات التى لا تستقل بتوزيع مكانى خاص أو تقتطع لها إقليمًا خاصًا. ولكن هل تتحرر هذه المجتمعات من ربقة السطح حقيقة؟ إذا لم يكن كذلك فإن المورفولوجية الاجتماعية لا تفيدنا هنا. لأنها تقصر اهتمامها على شكل المجتمعات بالذات. فهل علينا أن نختار؟ ليس من السهل أن نقول ذلك لأنه لا تكافؤ بين أغراض الدراسة يمكن أن نختار منها؟

أما عن النقطة الثانية فإننا عندما نستعرض حقائقها أمامنا تحت ضوء واحد هو بيان دور العامل الجغرافى فى ظهورها أو أهمية هذا الدور، فنحن بالضرورة نغالى فى إظهار أهمية هذا العامل الذى كان له شأن لا شك فيه ولكننا نهمل أمر العوامل الأخرى لأننا لم نبحثها البحث الكافى.

هذا ما كتبه دوركايم فى تقديمه لراتزل [1] وهذه الملاحظة جديرة بالعناية ولكن الكاتب غالى شيئًا ما عندما قال إننا نفعل ذلك «بالضرورة» فلربما كانت هذه الكلمة مطابقة للحال تمامًا مع راتزل، ولكن هناك جغرافيين أبرياء من تلك التهمة «فالأسباب من كل نوع تتقابل وتتلاقى لتساهم فى المظهر الأخير الذى تظهر فيه بلادنا ذات التاريخ القديم. ودراسة تلك الأسباب أمر دقيق، فأمامنا أسباب ونتائج ولكن وليس أمامنا أى مجموعة من الأسباب يمكن أن تتصف بالضرورة. فقد تكون وقائع تاريخية معينة وجهت الأسباب والمسببات وجهة أخرى. وكان من الممكن أن تتجه وجهة أخرى لو تدخلت وقائع تاريخية غيرها. لا يمكن أن يكون هناك حتم تاريخى. وبالرغم من ذلك فالجغرافيا هى المفتاح الذى لا غنى عنه». هذا رأى دى لابلاش. وفى موضع آخر يقول «لتفسير هذه الوقائع المعقدة التى خضعت لظروف الزمان والمكان المتغيرة المتعقدة. يجب أن يساهم التحليل الجغرافى إلى جانب المؤثرات الأخلاقية والتاريخية بنصيب، أما استقلال إحدى الطرق بتفسير هذه الظروف فإنه لا يمكن أن يرضى عقلاً أوقف نفسه

(١) (١٧) مجلد ٣، (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩) ص ٥٥٧ (٩) فيدال، (٧١) هوكل.

على البحث عن الحقيقة ولم يسخر نفسه لطريقة من طرق البحث»، فأين من هذا اتهامات دوركايم «بالضرورة» أو ذلك الاقتصار على طريقة واحدة التى يتحدث عنها ماوس (Mauss) فى موضع آخر. هذه مقتطفات من آراء أحد الجغرافيين تنفى بشدة ذلك الاتهام مع كلمات فيدال دى لابلاش.

- ٣ -

خطأ راتزل: لماذا لم يشمل بحثه الجغرافيا البشرية كلها؟

سنناقش الآن غلطة مشتركة بين أصحاب طرق البحث الذين لم يتخصصوا فى العلوم التى تصدوا للبحث فيها. غلطة لم ينج من الوقوع فيها أشدهم حرصًا وحذرًا. هؤلاء يضطرون إلى تهيئة أنفسهم بالوقائع - عدة البحث - ولكن على أضيق نطاق ممكن. لذلك فلا مفرّ لهم من الانتصار على رجل واحد أو كتاب واحد. ولكن من الخطل الخطير أن نحكم على ناشئ لا يزال فى دور التكوين بكتاب واحد ينقد وتبين معايبه ثم تعمم أوجه النقد على العلم بأكمله. وهذا ما فعله علماء الاجتماع إلى حد كبير.

بدأوا بكتاب أحسنوا اختياره دون شك وهو كتاب الجغرافيا البشرية لراتزل. وعندما يقول ماوس بعد دوركايم: إن راتزل هو مؤسس علم الجغرافيا البشرية فإنه يغالى وإن لم يخطئ. فراتزل أحد مؤسسى هذا العلم فقط إلا أنه لا يحق لراتزل أو لتلاميذه أن يحتكروا هذا الميدان من البحث العلمى. حقًا إن المدرسة الفرنسية تعترف بهذا العالم المؤسس. إذ إن الحولية الجغرافية (Annales de Geographie) عندما ابتدأت سنة ١٨٩١ أفردت أول أعدادها لملخص واف لأهم آراء ومبادئ الجغرافى الألمانى بمقالة بعنوان «عناصر الجغرافيا البشرية» بقلم «ل. رافنو - L. Raveneau»، وعندما ظهر كتاب الجغرافيا السياسية بعد ذلك نوّه به وبأهميته فيدال دى لابلاش نفسه واعتمد عليه عندما كتب كتابه فى الجغرافيا السياسية. وأعقب ذلك هو كل (M. G. Huckle) بتلخيص أهم ما جاء فى كتاب جغرافيا التداول حسب فردريك راتزل [1]، فى مجلة الحولية

---

(١) أهم الآراء فى هذه الكتب موجودة فيما كتبه فالو وبرن (٦٨).

الجغرافية، إلا أنه ليس معنى هذا أن كل ما كتبه الجغرافيون الفرنسيون يعتمد كل الاعتماد على ما كتبه راتزل وليس فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة قط. فكتب النظريات وكتب عرض الطريقة والأغراض ووسائل البحث فى الجغرافيا. قليلة فى اللغة الفرنسية ولا نستطيع إلا أن نشير إلى مقالات فيدال دى لابلاش الملهمة التى تفيض حيوية والدقيقة فى نفس الوقت، ثم كتاب «Brunhes ـ برنز» الذى لا يضاهى غير أنه مفكك العرى وإن كان كثير المراجع، وأخير كتابا كاميل فالو (Camille Vallaux) وهو البحر والسطح والدولة (١٩٠٨ ـ ١٩١١) ثم ما كتبه فى أنسكلوبيديا دوان (Doin) العلمية، والتى يظهر فيها أثر راتزل واضحًا. وإن لم يكن دون تحفظ أو نقد أو تحرّز. هذا هو كل ما هناك، وهو قليل، ولكنه كاف للجغرافيين الفرنسيين فالجغرافيا البشرية لا تزال من الحداثة والجدة فى رأيهم ولا يزال الدرب أمامها طويلاً بحيث تتطلب عملاً كبيرًا ودراسة أوفى قبل أن يحاولوا تعريفها وتعيين مجالها. ومن الخطر أن نتسرع ونقصر بحثها على نطاق ضيق وإلا أضاعت على نفسها أحسن ما يمكن أن تقدمه، هذا رأى، ويمكن أن تضيف إلى ذلك أن هناك جغرافيين بشريين فى إنجلترا وأمريكا وإيطاليا وغير ذلك من الأقطار. لا يمكن أن نحشرهم فى طريقة راتزل. فلربما كانت الراتزلية فى فرنسا حديثًا لا يغنى عن حقيقة.

وثمة أمر آخر فبينما كان دوركايم يعلن أن كتاب الأستاذ الألمانى كان مجهودًا مضنيًا متعدد الجوانب لدراسة المؤثرات التى يمكن للتربة أن تمارسها على الحياة بصفة عامة، فإن فيدال دى لابلاش الذى يبدو أنه كان منسيًا وأنه أعاد تكوين وحده العلم الجغرافى على أساس من الطبيعة والحياة [1]، وهذان رأيان مختلفان فهل يمكن أن يكون أحدهما مخطئًا؟

الواقع أن راتزل شغل نفسه بأمرين فى وقت واحد؛ حتمية المؤثرات الجغرافية وأثرها على مصائر البشر وتوجيه التاريخ البشرى وإبراز أهمية الإنسان كعامل جغرافى قوى. أو بعبارة أخرى تأسيس الجغرافيا البشرية وخلقها فى الواقع.

---

(١) رقم (١١) جزء ١٢، ١٩٠٤ ص ٤١٧.

إن آثار أستاذ ليبزج ليست من السهولة بحيث يمكن صوغها فى عبارة واحدة. وقد فطن إلى ذلك دركايم ولاحظه. فقد قال فى كتابه النقدى الذى أشرنا إليه مرارًا واقتبسنا منه تكرارًا [1]، قال «هناك ثلاثة أنواع من الأسئلة فى الجغرافيا البشرية أولاً - أن راتزل شغل نفسه بكيفية توزيع السكان ومجتمعهم على سطح الأرض مستعينًا بذلك بتعاليم همبولدت الذى أوحى بنشر الأطلس الطبيعى لمصنفة برجهاوس (Berghaus) سنة ١٨٣٦. ثم أجهد نفسه فى تفسير ذلك التقسيم والتوزيع الناتجين من استمرار الحركات البشرية المتنوعة الأصول والتى أتبع الواحدة منها الأخرى خلال عصور التاريخ المختلفة. وأخيرًا فقط عنى بالمؤثرات المختلفة التى يمكن أن تحدثها البيئة الطبيعية فى الأفراد ومنهم على المجتمع بصفة عامة»... «وأن هذه المسألة الأخيرة تختلف عن سابقيها ولا تحتل إلا جزءًا صغيرًا من الكتاب، إذ لا يوقف عليها إلا الفصلين الأخيرين من الكتاب. وهذه المسائل كما يعترف المؤلف نفسه لا توجد إلا على هامش الموضوع [2]، ونستطيع نحن أن نضيف إلى ذلك أن هذا الجزء الثالث من الجغرافيا البشرية الذى تسيطر عليه الآراء الشخصية والنزعات الخاصة، سواء من الناحية السياسية أو غيرها. أقل الأجزاء شأنًا دون شك. ولا شك أن نقد دركايم كان موجهًا على هذا الجزء فحسب. وأنه أثاره العنوان الثانى للمجلد الأول من الكتاب وهو «مبادئ وتطبيق الجغرافيا على التاريخ»، بل إنه دفعه إلى دمغ هذا العلم الناشئ بالطموح والغرور (Grundzuge der Anwendung der Erdrunde auf die Geschichte).

وربما لم يكن خارج نطاق هذا البحث أن نتساءل كيف عرّض راتزل نفسه طائعًا مختارًا لهذا الضرب من النقد، فعالم كهذا ضليع فى العلوم الطبيعية قد اعتنق أكثر من سواه فكرة الوحدة الكونية[3]، تلك الفكرة كانت كافية لدينا بأن نعتبر برنارد فارينيوس (Bernard Varenius) سنة ١٦٥٠ المؤسس الحقيقى لعلم الجغرافيا[4] وكان راتزل كجغرافى، يعمل دائمًا على بناء الجغرافيا البشرية على

(١) رقم (١٧) جزء ٣، ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ص ٥٥٠ وما بعدها.
(٢) دور كايم نفس المصدر السابق.
(٣) فيدال (٢٩) ص ١٢٩ وما بعدها - جالوا Jour. de Savants ١٩٠٦ ص (١٤٨ - ١٦٢).
(٤) رافينو (١١) جزء ١، (١٨٩١ - ١٨٩٢) ص ٣٣٢.

أساس ما يمكن من الجغرافيا الطبيعية. فلماذا يخرج عن طريقه وينسى تعاليمه ومبادئه فى البحث ويمد يدًا لهؤلاء الطموحين الذين يبحثون عبثًا عن فلسفة للجغرافيا كما بحث سابقوهم عن فلسفة للتاريخ. أو لهؤلاء الذين لم يرتضوا للجغرافيا إلا أن تكون خادمًا ذلولاً لغيرها من العلوم. سندريللا للتاريخ كما كان يطلق عليها؟ فإذا كان صحيحًا - وهو صحيح - أن كثيرًا من مبادئ راتزل قد اعتراها الخسوف [1]، فى المجلد الأول من الجغرافيا البشرية وأن منطق راتزل كان يتسع لكثير من المتناقضات فهل هذا يرجع إلى نقطة الضعف التى أظهرناها من قبل؟ لا نظن ذلك. إن غلطة راتزل أنه قبل مسلِّمًا كثيرًا من المشاكل على وضعها التقليدى. ومعنى هذا أنه لم يفكر جديًا فى مراجعتها فقد كان راتزل وتلاميذه وكثير من الجغرافيين الذين يستحقون ما وُجِّه إليهم من نقد، كل هؤلاء كانوا ضحايا ظروف وملابسات خارجية لا طاقة لهم بها. أو بعبارة أخرى ضحايا التاريخ.

---

(١) نفس المرجع ص ٣٤٥.

- ٤ -

الجغرافيا البشرية وريثة التاريخ

من الغريب دون شك أن تعتبر الجغرافيا البشرية، إن كانت فى دور التكوين الآن؛ ربيبة المؤرخين لأنها فى نشأتها كانت نتيجة جهود رجال العلم - رجال التاريخ الطبيعى من ناحية والرحالة والسياسيين من جهة أخرى، إلا أنه من الصحيح أيضًا أن المؤرخين فى أحد عهود الجغرافيا الحرجة عندما لم يكن تحت علم منظم للجغرافيا. خطوا الخطوة الحاسمة كما بيّنا سابقًا فى تشكيل مستقبل الجغرافيا.

ففى عصر ميشليه بل فى عصر دورى (Durry) لم يكن هناك من رجال الجغرافيا إلا علماء ثانويون ورحالة هواة لا يجوبون إلا مكتباتهم العامرة لم يمارسوا إلا ما أسماه بيرسوه (Bersot) نقلاً عن فيدال دى لابلاش[1] تلك الجغرافيا الصعبة المستقاة من الكتب.

أمّا عن الجغرافيا السهلة فقد اختزلت فى النهاية إلى قوائم بأسماء الأعلام. كانت الجغرافيا فرعًا من المعرفة. له فائدته العملية ولكن لا قوام له ولا يدعو إلى الاهتمام. فلم يكن فى مؤلفات أساتذتها أو فى مذكرات خلفاء دانفيل (d'A) ما يمكن أن يقدم للمؤرخ على أنه آراء محددة ذات هدف وطريقة أو ذات علاقة بعلم للجغرافيا دون خلط بالوصف.

ولكن من ناحية أخرى فماذا كان التاريخ عندما نادى ميشليه فى مقدمة سنة ١٨٦٩، بضرورة إقامة صرح التاريخ على أساس الطبيعة؟ وماذا كان بعد جهود ميشليه لتوسيعه وإغنائه وتغيير الآراء التقليدية السائدة فيه؟ لتتبع تاريخ فرنسا

(١) (١١) ١٩٠٥ ص ١٩٤.

كان لا بد من إيضاح صورتى جهاد الملوك السياسى لتأسيس حكم المركزية والحكم المطلق فى الداخل. وتكتيل الأقاليم شيئًا فشيئًا حول الدومين الملكى وبذلك يملأ الفراغ الفرنسى فى ذلك الركن الخاص من أوربا الذى تحيط به «حدود طبيعية»، فهذا الصراع الطويل كان سياسيًا بطبيعة الحال: وبقى التاريخ فوق كل شىء دراسة سياسية. وإذا كان ميشليه ببصيرته النفاذة فوق الاتهام بأنه حدد فكرة التاريخ وابتسرها، وإذا كان قد أراد كـما كان يجب أن يقول أن يعيد حياة الماضى بأكملها؛ المسرح والناس والشعب والقادة والحوادث والنظم السياسية والاجتماعية والمعتقدات السائدة، وإذا شعر بضرورة إنارة التاريخ السياسى بضوء من التاريخ الداخلى أى بالفلسفة والدين والقانون والأدب، فإنه هنا لم يستطع سوى أن يتنبأ وأن يأمل إذ إن التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لم يخطر له ببال [1].

التاريخ السياسى والجغرافيا السياسية ـ ولم تكن الأخيرة كما تدل كل قواميس منتصف القرن الماضى إلا «فرعًا من الأول» ومن «الإحصاءات» كما كان يُضاف أحيانًا، فقد تعود المؤرخون أن يطلبوا من الجغرافى أن يوضح لهم شكل الدول. ومساحتها وتغير ذلك الشكل بالانقطاع أو الإضافة. وأن يساعدهم على فهمها فكان من الطبيعى أن يبدأ من الخريطة السياسية للعالم. كما انتهت إليها أجيال متتابعة من التاريخ ومن البشر ولم تكن مهمته أن يشرح بل أن يبرر، فقد كان هناك شعور غامض بأن ما انتهى إليه الأمر هو خير ما يمكن أن ينتهى به، وأن هناك نوعًا من الضرورة تخضع له الدول فى الشكل الذى تتخذه.

فقسم سطح الأرض إلى ممالك وجمهوريات أقسامًا ثابتة الشكل تحيط بها حدود طبيعية، ولنا أن نلاحظ أن الجغرافيين فى ذلك العهد لم يكونوا من نوع كفء لأن يغيروا من آراء المؤرخين. ولم تكن دراستهم عن الجغرافيا المقارنة فى بدء هذا القرن قائمة على أساس علمى صحيح.

عندما حاول كارل رنر أن يقارن الأشكال الجغرافية فإنه كان يفكر على طريقة المؤرخين القدماء، فقارن القارات [2] بعضها بالبعض الآخر. ونظر إليها بارتياح

(١) انظر المقدمة ص ١١.

(٢) جوليان (٤٥) ص ٤٧.

على أنها شخصيات أرضية وكما لو أن أوربا أو آسيا أو أفريقيا أو أمريكا تلك «الوحدات» التى لا يعترف بها المحدثون من جيولوجيين أو علماء نبات أو علماء حيوان كما لو كانت تلك الوحدات لا تتكون فى الواقع من مجموعات من أشلاء غير متجانسة أو مجرّد تجمعات أجزاء من السطح بعضها إلى البعض الآخر.

مشكلة التقسيم هذه يبدو أنها مسألة شكل لا غير. ولكنها فى الحقيقة مسألة على جانب عظيم من الأهمية وهى تدخل فى صميم - كما بيّنا - تصور أى فرد منا للجغرافيا. ومن المستحسن أن نقرأ عن هذا الموضوع المقال القيم الذى كتبه فيدال دى لابلاش عن «الأقسام الأساسية للأرض الفرنسية»، والذى ظهر كمقال نقدى علمى سنة ١٨٨٨ (١)، ثم أعيد طبعه كمقدمة لكتاب مقرر على المدارس الثانوية (٢)، ولكن هذا المقال لم يكن معروفًا أيام رنز أو حتى ما بعده.

وكانت جهود الكتّاب عند نهاية القرن الثامن عشر غير ذات جدوى. هؤلاء الكتاب من أمثال جتارد (Guettard) ومونيه (Monet) وجيروسلافى (Girau d Solaire) الذين أومضوا بفكرة الإقليم الطبيعى حتى أن جالوا (M. L. Gallois) قد أسس تلك الفكرة تمامًا (٣) وعبثًا حاول (Coquebert de Montabret وQualius d'Halloy) أن يقسموا سطح الأرض على أساس من طبيعة التربية ونوعها وموقعها الجغرافى «وعبثًا أيضًا ما حاوله كل من Elie de Beaumont وDufrénoy du Coumot وAntoine Passy سنة ١٨٤١ فى كتابهم الشهير عن «شرح الخريطة الجيولوجية»، حيث إنهم قرروا فى شجاعة ملحوظة وبصيرة نافذة العلاقة الوثيقة بين الجغرافيا الطبيعية وبين الجغرافيا بمعناها الضيّق، كما قالوا (٤) وبرروا الضرورة الملحة التى توجب على الجغرافى أن يتخذ الأقاليم الطبيعية أساسًا لبحثه ودراسته. تلك هى صيحة الجيولوجيين فى ذلك الوقت التى لم تجد أذنًا صاغية من الجغرافيين. ولعل معظمهم وجد أنه من الأوفق له أن يسير فى ركاب المؤرخين السياسيين والإداريين. فبعد وصف فرنسا

---

(١) Mehediniti (s.), La Geog. Comparée d'aprés Ritter et Perschel, xi, 1901, p. 7.

(٢) Bulletin Littéràire, vol., 1888-9 كتاب فرنسا للمدارس الثانوية.

(٣) لوسيان فيفر Rev. Synt. Historique, 1908, p. 269.

(٤) انظر جالوا (٣٤) ص ٢١ وما بعدها.

فى أقاليمها مزقوها إلى أقسامها الإدارية وبدل أن يحاولوا إبداع مبدأ معقول للتقسيم الجغرافى فإنهم ظلوا تحت أسر الآراء القديمة من رسم حدود سياسية وخطوط تفصل بين وحدة إدارية وأخرى. فهذا هو المحور الجغرافى للإحصاء العام والخاص لفرنسا يكتب «فى مقدمته عند مطلع القرن الحالى أننا نفترض» أن فرنسا تنقسم إلى عشرة أجزاء رئيسية أطلقنا عليها اسم «أقاليم»، وقد بدت لنا تلك الطريقة أكثر ما تكون فائدة فى أنها تستقل عن تقسيم السياسيين والإداريين [1]، هذا حسن ولكنه يضيف بعد ذلك «أن كلا من هذه الأقاليم العشرة تنقسم بدورها إلى عدد مماثل من الأقسام الإدارية».

لِمَ هذا التراجع؟ لكن ألم نر أيضًا أتباع بوش (Bauche) أنفسهم يوزعون أقسامًا أخرى على أساس «أحواض نهرية» يفصل بعضها عن بعض «خطوط تقسيم المياه» تلك الخطوط التى تسير فوق رموز الجبال على الخرائط والتى تعبر مستنقعات «البرييت وتقطع خريطة أوربا من طرف إلى آخر» من رأس فيجاتز إلى رأس طرفه؟

هكذا قصر الجغرافيون والمؤرخون جهودهم على الشكل بمعناه الظاهرى بنفس المعنى الذى نعاه أنجر (Ingres) فى نفس القوة على ديلا كروا (Delacroix) بالرغم من أن الفريقين لم يعرفا شيئًا عن ديلا كروا فى ذلك العهد بعد.

لقد ورد ذكر العلاقة بين السطح وبين التاريخ. وكان يعنى بالسطح مجرّد التضاريس مستقلة عما يعيش عليها من حيوان أو نبات أو أشجار أو بشر. كانت التضاريس الأصلية المسرح الصلب الذى تقتطع منه الدول نصيبها وكان همُّ الباحثين الوحيد درس تلك الأقسام كما اقتطعها السياسيون.

(١) فيما يتعلق بأحواض الأنهار، انظر جالوا نفس المرجع السابق.

- ٥ -

مخلفات الماضى: المشاكل القديمة والأحكام القديمة

ربما بدا أننا خرجنا عن موضوع هذا الكتاب الأصلى بأن شغلنا براتزل وبالمنافسة القوية بين مدرسة المورفولوجيا الاجتماعية والجغرافيا البشرية. ولكن هذا غير صحيح فى الواقع.

إن الآراء فى التاريخ والجغرافيا قد تغيّرت فى الواقع الآن عما كانت عليه من قبل، فليس يعنينا تاريخ الناس السياسى والقانونى والدستورى والحربى والدبلوماسى فحسب، بل إنما نعنى بتاريخ حياتهم كلها حضارتهم المادية والمعنوية. وتطور علومهم وآدابهم وأديانهم وصناعاتهم وتجارتهم وأقسامهم الاجتماعية وطبقاتهم، ولنضرب مثلاً بتاريخ الزراعة وحدها. وكيف لاءم الناس أنفسهم بطبيعة الأرض. فى جهادهم الطويل فى تهيئتها وقطع ما عليها من غابات أو تصريف مائها. فكم من مشكلة تظهر وتحتاج لحل يعتمد إلى حد ما على الدراسات الجغرافية؟ نمو التاريخ وتطور الجغرافيا؟ فليتأمل الناس تلك المشكلة الثنائية التى أشرنا إليها، حيث تشير إلى الطريق الصحيح لفهم العلاقة بين الأرض والتاريخ ولن نقبل بعد الآن أن يدرّس لنا التاريخ أو الجغرافيا كما درست عامى (١٨٣٠ ـ ١٨٦٠).

ولكن هذا المنطق الصحيح لم يفهم كما ينبغى بسرعة واستيعاب. فالإنسان كما نعلم عبد التقاليد. وبعد أن وجدت الجغرافيا البشرية ونظمت كعلم حديث ثم تعلم المؤرخون كيف يلجأون إلى الجغرافيا لحل ما يعن لهم من مشاكل جغرافية فى طبيعتنا. ولكنهم عندئذ وجدوا أنفسهم فى أرض غير أرضهم أسرى فى مجال غير مجالهم، وخاطروا بأنفسهم فى غير ما يعلمون، وتلك غلطة يمكن أن تغتفر ولكنها كانت غلطة كبيرة.

لا يمكن أن يوجد علم بدون تفكير لدى الطلاب، فليس العلم مجرد الإجابة عن عدد من الأسئلة باسم علم آخر أو مجرد التعاون مع علم آخر عن طريق روح البحث والمعرفة. فعلى المؤرخين أن يسألوا أنفسهم بطريقتهم الخاصة مهدفين إلى أغراضهم الخاصة. مثلاً فليحاولوا الإجابة عن مثل هذا السؤال. ما الدور الذى لعبته الظروف الجغرافية فى تطور سلالة ما؟ مثل هذه الإجابة قد تنفع المؤرخين وتغنيهم عن أبحاث عديدة كلما طرأت لهم هذه المشكلة من جديد، أما الجغرافيون فيجب ألا يقنعوا بالإجابة عن مثل هذا السؤال فحسب - ولكن أنّى لنا أن ندعى ذلك؟

لقد أشرنا من قبل إلى ذلك الخلط العام بين الأقسام السياسية والأقسام الجغرافية، ولكنا نجد أحد الجغرافيين يكتب مؤلفًا عنوانه «الجغرافيا الطبيعية والحضارات الأصلية» ثم يشرح هذا العنوان بعنوان آخر عن الأقسام السياسية أو على الأصح الإدارية لمستعمرة فرنسية دون أن يطرأ له قط أن هذه المنطقة الكبيرة تتقسم إلى مناطق طبيعية أحق بالدراسة (١).

ولقد لفتنا الأنظار إلى غلطة ريتز الكبرى عندما قارن بين خطوط ارتفاعات دون أن يبين لنا أصلها، وعندما تحدث عن القارات «كما يتحدث عالم الأجناس عن الزنجى أو عالم النبات عن شجرة النخيل (٢)، ولكن ها نحن نجد الآن جغرافيين يعقدون مقارنات بين أقطار تختلف بعضها عن بعض اختلاف إيطاليا عن كوريا - وهنا نجد جغرافيًا آخر يهاجم تلك الطريقة (٣)، ولربما أخذت بلبٌ من تغره الأشكال مثل هذه المفارقة فقارن بين اتجاه الجبال فى كل. وبين امتداد كل من شبه الجزيرتين. ثم بين موقع كل من سبول وروما، وذلك كل بمقارنة عامة قائمة على أطلس مدرسى عام.

لقد أشرنا من قبل إلى تلك الفكرة العامة فما زلنا نجد فى الكتب الوحدات هى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وإسبانيا. كما لو كانت تلك الوحدات جغرافيا صحيحة متجانسة. كما أننا نجد وحدات سياسية مثل برغانديا ولورين وفرانس

---

(١) Machat, F. Guinée Francaise, Les Rivricres du snd et Fonta- D Alon Paris, 1906.

(٢) نفس المكان من كتاب Mehedinti ص ٥.

(٣) فالو (١١٣) ص (٢٦، ٢٧).

كوتييه وبروفانس كما لو كانت وحدات طبيعية محددة منذ الأزل. وكما لو كانت تلك الوحدات الأبدية فوق النقد وفوق الفحص الدقيق.

وهكذا تستمر المعتقدات القديمة وهكذا تعرض المشاكل بوضعها القديم، وهنا بالذات تظهر غلطة راتزل إن كانت هناك غلطة من جانبه. فإن مؤلف «الجغرافيا البشرية» لم يحرر نفسه تماماً من هذه التقاليد العتيقة. واستعمل نفس التعابير الجغرافية القديمة ولم يكن مؤهلاً تماماً لنقدها ونبذها.

هناك فى «الجغرافيا البشرية» كما يقول دركايم ثلاث مسائل مهمة تختلف بعضها عن البعض الآخر. ولكن المسألة الثالثة أشد اختلافاً عن سابقيها. وهذا صحيح وربما كانت تلك الملاحظة هى الدافع لصاحبها على الاسترسال فى تفكيره الناقد. وفى حالة مشابهة نجد فيدال دى لابلاش يقول فى معرض حديثه عن مركز الإنسان فى الجغرافيا إنها مسألة دراسة عامل قوى مهم فى الإنسان يعمل على تعديل سطح الأرض - تلك مسألة جغرافية بحتة صرفة [1]، ونضيف إلى ذلك أنها مسألة رآها بوفون (Buffon) من قبل بكل وضوح وشرحها بكل قوة وهى مسألة أخرى مختلفة تماماً «تحدد تماماً أثر الظروف الجغرافية على مصائر البشر وتاريخهم»، والبحث كما يقول راتزل عن مبادئ تطبيق الجغرافيا على التاريخ: إن غلطة أستاذ لبيزج لم تكن فى عدم اختياره أحد الموضوعين دون الآخر. بل فى جمع القوانين عن كل هذه المسائل بعضها إلى البعض الآخر ووضعها فى صعيد واحد على قدم المساواة فى كتابه.

نفس المشكلة لا تقتصر على الجغرافيا البشرية، بل إنها تظهر أيضاً فى الجغرافيا السياسية، وليس هنا مجال تكرار ما وجه من نقد - ووجه بحق - على الأهداف المختلطة المتناقضة التى كان يرمى إليها راتزل فى الجزء الأكبر من كتابه. والتى تقول إن الدور الأساسى الذى يلعبه فى حياة المنظمات السياسية هى للمكان - المكان بمعناه الصحيح دون نظر إلى المميزات الجغرافية التى تكتنفه وتميزه، والتى نعتقد أنه انفصال له عنها. ونجد شرح هذه الآراء فى كتاب الجغرافيا السياسية، وفى كتاب آخر عنوانه المكان والزمان فى

---

(١) فيدال (٣٣) ص ٢٩٨.

الجغرافيا والجيولوجيا (Raum und Zeit in Geographie und Geologie (Nature-Philosophische Betrachtungen, Leipzig, 1907)-، وإذا كان راتزل صاحب هذه الفكرة فمن العجب أنه هدمها فى جزء آخر من كتابه. لأنه كان مأخوذًا بفكرة سياسية [١] ملكت عليه لبّه. لأنه بعد أن استعرض الدول المنتشرة على سطح الأرض فحص مميزاتها المختلفة ونواحى حياتها المتعددة فى نظرية واحدة. فى الرغبة والأمل والطمع فى التوسع ـ أو بعبارة أخرى لا يجد فى هذه النظرية هذه الغاية الكبيرة بالأشكال والمساحات والحدود الجغرافية الغامضة، وبعبارة أخرى اتّباع التاريخ السياسى تاريخ الوحدات السياسية؟

ورد فى كتاب أرنولد جيو [٢] (Arnold Guyot) تلك العبارة: «لقد حاول الأستاذ جيو تفسير التاريخ بالجغرافيا»، وقد عقب فيدال دى لابلاش على هذا بقوة وحماسة [٣] قائلاً «لو كان هذا قائمًا على أساس صحيح لكان أحسن من تفسير الجغرافيا بالتاريخ»، وهذا عين الصواب. إن كلاً من الحقائق الجغرافية والحقائق التاريخية فى الوقت الحاضر تنتمى إلى منهج خاص ومن المستحيل بل من السخف محاولة إدماج بعضها فى البعض الآخر. إنهما سلسلتان مختلفتان ولا بد من أن تظلا منفصلتين وإلا فلماذا نميّز بينهما؟

إن وظيفة الجغرافى الصحيحة عندما يعالج مشكلة بشرية فى بحثه هى أن يفهم ويوضح باستمرار العلاقات المعقدة بين الناس، الممثلين على مسرح التاريخ والصائغين له. وبين البيئة الطبيعية والبيولوجية بالطبيعة العضوية واللاعضوية، وهذا ما سنحاول شرحه بالتفصيل. تلك مهمته الأساسية. أما ما عدا ذلك فتعد على نطاق بحث العلوم الأخرى. وهذا ما لم يحسن المؤرخون تصوّره فى أول القرن الماضى ومنتصفه. من أين لهم هذا؟ لقد كانت الجغرافيا مجرّد علم وصفى. قوائم أسماء. حقًا توجهوا إليها بالسؤال ولكنهم أجابوا عن أسئلتهم كما يجيب المؤرخون، وما نُظم الجغرافيين فى ذلك الوقت بمقدمى أجوبة غيرها، أما

---

(١) قارن بصفة خاصة فالو (٩٢) الفصل الخامس ص ١٤٥، ويرين وفالو (٦٨) فصل ٧ ص ٢٦٩، وما بعدها.

(٢) عن جيو قارن راتزل (٨٣) الطبعة الأولى والثانية ص ٢٧.

(٣) (١١) ص ١٩٦ رقم ١.

إذا أقدم الجغرافيون المحدثون غافلين عن التقدم الكبير الذى جاهدوا حتى وصلوا إليه فى علمهم على معالجة تلك المشاكل بالطريقة التقليدية القديمة، وإذا أقدم رجال الاجتماع على اعتبار أنفسهم أندادًا للجغرافيين فى إرثهم العلمى بعد أن يتركوا قسطًا معقولاً من المنهج الجغرافى، عندئذ نجد أنه من السهل تفهم أسباب ذلك الموقف والصعوبات التى تكتنفه. وهكذا نرى أن النزاع على الطريقة بل وتاريخ البحث نفسه له قيمة أخرى غير مجرّد التشوّق للمعرفة.

- ٦ -

جغرافيا بشرية متواضعة

ما الجغرافيا كما يتصورها الجغرافيون الذين لا يسيرون وراء راتزل؟ والذين وصلوا إلى تصوّرهم هذا بعد جهاد عنيف وأخطاء كبيرة. على مراحل بطيئة اكتنفتها صعوبات عديدة. ولكنهم وصلوا إلى تصور للجغرافيا ولأغراضها ولمنهجها دون أن يعبأوا بالآراء المتباينة. إننا سنستعرض هذا الكفاح وسنعالج المشكلة من أساسها لكى نبيّن ما ترمى إليه الجغرافيا بوضوح.

كتب فيدال دى لابلاش رأس المدرسة الفرنسية فى الجغرافية سنة ١٩١٣، أى قرب نهاية حياته عندما تبلورت طريقته تمامًا يقول «للجغرافيا وهى تستمد معينها مثل شقيقاتها من العلوم الأخرى (مثل العلوم الطبيعية) من وحدة الكون. رسالة خاصة كيف أن القوانين الطبيعية والبيولوجية التى تتحكم فى الكون تتحد وتتعدل عندما تطبق على سطح الأرض. إن عليها أن تدرس المظاهر المتغيرة التى يتخذها سطح الأرض طبقًا لاختلاف المكان».

مثل هذا التعريف كان جديرًا بأن يسحر اسكندرفون هبولدت، مؤسس الجغرافيا النباتية ومؤلف التوزيع الجغرافى للنباتات طبقًا للمناطق الحرارية وخطوط العرض [١]، والذى كان يفرد مكانًا خاصًا باستمرار فى كتبه وسجلات رحلاته لشرح وتحليل المظهر العام (landscope) ونحن نعرف تمامًا أن فيدال دى لابلاش برع فى هذه الناحية الوصفية التحليلية[٢]، وأنه قام بدراسة طويلة لهمبولدت ورنز. ومن المصادفات الغريبة أن نقرأ فى رسالة ترجع إلى هذا العهد

---

(١) (٣٣) ص ٢٩١.

(٢) De distributione géographic plantanum secundum caeli temperiem et altitodinam montium, Paris 1817.

بالذات ما يلى «إننا نعترف بصراحة بأن كيان الجغرافيا يتكون من تحليل المظهر العام» ثم يستطرد الكاتب فيقول «إن كل آراء الجغرافى مستقاة من المظهر العام، ولكن أليس هذا التعريف يخرج من نطاق الجغرافيا كل مشاكل الإنسان والمجتمعات البشرية؟ كلا مطلقًا فإن نفس الجغرافى الذى اقتبسنا منه كل العبارات التى تدل على تأثره بالجغرافى النباتى فلاهولت (Ch. Flahault) يقول عن «وسائل المعرفة الأخرى ما يلى: إن استقلال الإحصاءات والتحليل التاريخى لتطور المجموعات البشرية طبقًا للوثائق والسجلات تساعدنا على تحديد آرائنا التى استقيناها من الطبيعة واستكمالها وتعديلها. ولكن ما دخل السجلات فى المظهر العام». الجواب على ذلك أن الإنسان كائن حى على الأقل له حقوق النباتات والأشجار ويعتبر عاملاً أساسيًا فى المظهر العام.

الإنسان عامل جغرافى ولا أقل من هذا، إنه يساهم فى كل مكان بنصيبه فى تعديل سطح الأرض. تلك المظاهر المتغيرة «والتى تعتبر مهمة الجغرافى الأولى» أن يدرسها خلال القرن تلو القرن. وخلال الجهود البشرية المتراكمة وما يقوم به الإنسان من أعباء فى جسارة وقدرة تبيّن لنا أن الإنسان عامل مهم أساسى فى تغيير مظهر سطح الأرض العام. إنه لا يوجد مصدر من مصادر القوة لا يستطيع الإنسان أن يستغلها طبقًا لإرادته. إنه لا يوجد قطر - كما قيل - لم تمتد إليه يد الإنسان ولم تُحلِ آثار ذلك التدخل أنه يعمل فى سطح الأرض فردًا وعضوًا فى جماعة من أصغر الجماعات إلى أكبرها. من الأسرة إلى الدولة وهذا الأثر - أثر الإنسان فى بيئته - هو الدور الذى يلعبه الإنسان فى الجغرافيا.

ويصر فيدال دى لابلاش على أن يقول المقال المشار إليه آنفًا: «الجغرافيا علم المكان لا علم الإنسان» ثم بعد ذلك نتحدث عن التحليل التاريخى لتطور الجماعات البشرية من السجلات والوثائق ... نعم على الجغرافيا أن تحصل على ما يمكن أن تقدمه مثل تلك السجلات والوثائق. ومثل هذا التحليل من مساعدة أننا لا نحاول أن نحصل منها على معرفة إلى أى حد أثرت البيئة فى الإنسان، ولا ننتظر منها أن تدلنا على الدور الذى لعبته الظروف الجغرافية فى تقرير مصائر البشر أو فى تشكيل تاريخهم. ولكنها تساعدنا على معرفة إلى أى حد كان نشاط البشر والجماعات الإنسانية ذا أثر فعّال فى تغيير مظاهر البيئة

«لشرح الظواهر الجغرافية التى شهدها الإنسان أو التى أحدثها الإنسان يجب أن تدرسه تطورها فى الماضى على ضوء الوثائق» تلك هى كلمات ديمانجون [1]، وسنرى أنه أيضًا لا يضحّى بالنطاق الجغرافى لكى يحصل على صورة عامة للتطورّ.

ويقول فيدال دى لابلاش أيضًا «إن الجغرافيا تهتم بأحداث التاريخ طالما كانت تثير وتكشف عن خصائص معيّنة فى البلاد التى حدثت فيها. وقوى دفينة التى بدونها لظلت خامدة مستترة» [2]، وهذا تعريف جغرافى محض كما يستطيع أن يرى أى إنسان. وهذا تعريف آخر له «الجغرافيا علم المكان وليس علم الإنسان» هنا صخرة النجاة. [3]

هل تستطيع أوجه النقد التى قدمنا أن تنطبق على هذه التعاريف؟ كلا.

لقد رأينا كيف يتعرّض أى باحث فى الظروف الجغرافية أو فى البناء الاجتماعى للضلال. نعنى بذلك إرجاع أهمية كبرى ليست نهائية. بل فريدة للظروف الجغرافية. فهو معرَّض لأن يرى فيها الأسباب «بعض مظاهر البناء الاجتماعى التى قد يجهلها تمامًا. ولكن دعنا نعيد السؤال على وجه آخر. لا تسأل ما أثر الجماعات البشرية على البيئة الجغرافية، ولكن بشكل أكثر دقة - فالجغرافيا علم المكان - فنقول ما المميزات فى «مظهر معيّن» ذات دلالة جغرافية معيّنة. أو شكل تاريخى يمكن أن تفسّر على أساس نشاط إيجابى أو سلبى لمجموعة معيّنة من البشر ذات شكل اجتماعى أو نظام اجتماعى معيّن؟ دعنا مثلاً بعد أن نبيّن انتشار محاصيل معيّنة انتشارًا غير طبيعى فى الأزمنة القديمة فى جهات لا تصلح لاستنباتها من العالم. نربط هذه الحقيقة بظاهرة العزلة التى تعمل الجماعات البشرية كلها تحت ضغطها كى تتحرّر من العوز الخارجى. وتكفى نفسها بنفسها مستغنية عن جيرانها. فى هذه الحالة إذا كنا دقيقين، والأولى أن نقول: إذا لم نكن نهائيين، فالكروم فى مورفان [4] كان من سعة الانتشار فى

---

(١) ديمانجون «فيدال دى لابلاش» ص ٨. Rev. universitaire, Juin 1918.

(٢) سور «٢٣٠» ص ١٠.

(٣) نفس المصدر ص ٣٩. La Recherches géographiques dans les archives, 1907, p. 195 et seq

(٤) (٢٢٥) (1521) De charmusse, Cartulaire d'Autun, 1,2, p. 74 & Levainville, p.

القرون الوسطى لدرجة أن أحد الكانتويات اشتق اسمه من الكرم Savignes (فى القرن الرابع عشر) بالرغم من أن التربة لا تصلح قط للكروم. ذلك المحصول الذى يحتاج لحرارة معيّنة مثل كروم الفلاند رزورماندى [1]، ولكن تلك كانت الضرورة التى أملتها العزلة ومن هنا جاء خلط النبيذ بالعسل والتوابل والمواد الأخرى لكى تسيغ طعم ذلك النبيذ الغريب المذاق.

فى الواقع إذا أردنا أن ننظر للجغرافيا من وجهة نظر الإنسان ـ وهى إحدى وجهات النظر المختلفة فإننا نجد أنها العلم الذى يدرس البيئة التى تحتضن الحياة الإنسانية وتحيطنا علمًا بكل ما يتعلق بها. إنها أولاً تصف ثم تحلل ثم تحاول شرح تلك الحياة، وهنا نتعرّض للهجوم على غيرها وإلى أن يُهجم عليها أنها تشمل الإنسان نفسه عن طريق نشاطه وعمله فى الهدم وعمله فى الخلق ـ عمله المباشر وعمله غير المباشر، أنها تشمله طالما يفاعل مع البيئة ويترك آثاره عليها ويغير فيها ويلائم نفسه معًا.

إنما لا نقول وما ينبغى لها أن تقول إن «بيت الإنسان تفسره التربة» بل إنها تقرر ويجب أن تقرر ببساطة أن «هذا المنزل الذى يكون أحيانًا بناءً متواضعًا وأحيانًا بناءً شاهقًا. شىء يجمع بين الجدة والقدم. وهو من هذه الناحية يخرج عن نطاق الجغرافيا ولكنه بالرغم من هذا ينتهى إلى «المظهر العام» ويعتمد على البيئة الجغرافية ويتلاءم معها فى أوجه معيّنة فى عناصر خاصة وترتيبات بعينها. وصفات ثانوية أو أساسية أخرى ومن هنا فقط يدخل فى نطاق بحثى».

كما أنها لا تقول وما ينبغى أن نقول «إن نمو وتوسع وتطّور تلك الدولة يفسّر بالسطح الذى تحتله ومميزات معيّنة فى موقعها الجغرافى». كلا إلا أن من الطبيعى أن يتقدم رجل الاجتماع ويقول «من غير الاجتماعى يعرف البناء المادى للمجموعات البشرية وكيفية توزيع عناصرها فى المكان؟ وهذا فى الواقع موضوع أحد أفرع علم الاجتماع وهو علم المورفولوجيا الاجتماعية».

(١) سيون (٢٢٩) Musset, Limite de la eulture de la ligne dans l'ouest de la France, XI, 1908, p. 268. بلانشارد (٢١٧) ص (٣٧ ـ ٣٨).

التربة لا الدولة ـ هذا ما يجب أن تقتصر الجغرافيا بحثها عليه. وهنا أيضًا لا تدل الدولة إلا أنها من الناحية التى درست بها الإنسان. ليس عن طريق الأمور المعنوية مثل المؤسسات الاجتماعية. وما إليها، كلا إنها كالإثنوغرافى يضع يده على الآثار المادية للحضارات ويرقيها ـ كذلك الجغرافيا تدرس الدولة من ناحية أثر الإنسان كعضو فى الدولة فى تعديل البيئة الجغرافية أثر الإنسان على التربة [١] ثم ماذا بعد؟

أمّا عن الآخرين فهم آخر مَن يتناولون أبحاث الجغرافيين ودراساتهم الإقليمية يستعدون كما يشاءون مثل هذا العالم الذى حاول أن يفسر تكوين الحشرات التى يدرسها على ضوء السطح والمناخ. أو «يوتمى» الذى حاول شرح طبائع الإنجليز أو الأمريكان له أن يستعير من الجغرافيا ما يشاء. على أنه سيكتب بحثًا وليطلق عليه ما شاء من الأسماء ولكن ليس له أن يدعى أنه يبحث فى الجغرافيا أنه استعار معلومات جغرافية لأغراض غير جغرافية.

كذلك الاجتماعى الذى ينظر إلى المجتمعات كأنها مجرّد مجموعات من البشر موزعة فى أرجاء مختلفة من الأرض، لا يخطئ فيقول: «إنه يعتبر المجتمعات مستقلة عن أساسها الأرض» هذا الاجتماعى حر فى أن يبحث عن أثر تضاريس السطح وخصائصها المعدنية ونباتها وحيوانها فى النظم الاجتماعية[٢]، إنه سيتناول معلومات جغرافية من كتب الجغرافيا ولكنه سيتناولها كعالم اجتماعى لأغراض غير جغرافية.

أو بعبارة أخرى ـ إن المورفولوجيا الاجتماعية لن تستطيع أن تقمع الجغرافيا البشرية وتستغلها لأغراضها. لأن الدراستين مختلفتان فى المنهج وفى الميول وفى الأهداف[٣].

---

(١) هذا عنوان لمقال مسجل فى مجلة Zeittschrift of social wissens chaft, 1903 t.v, p. 287.

(٢) بير (٢) ص ٨٣.

(٣) ماوس (٢١٥) ص ٤٢.

الفصل الثانى

مسألة المبدأ، ومنهج البحث

التطور البشرى، والتطوُّر التاريخى

ربما قيل لنا إننا أسلنا الزيت على الماء، وكنا فى ذلك من العاقلين، فمن الواضح أننا تخلصنا من اتهام علماء الاجتماع لنا بأننا طامحون، أى أننا قلّلنا من ادعاءات الجغرافيين وخففناها إلى أقل حد ممكن، وأننا لم نوف الجغرافيا البشرية إلا حقها، دون زيادة أو نقصان، فى أنها تساهم فى ميدان أوسع ولا تخلط بين الأمور كما حاول أتباع راتزل أن يفعلوا.

نعم إننا تخلصنا من هذا الاتهام - ولكن لنعرض أنفسنا لاعتراضات أخرى من طبيعة مختلفة - هناك اعتراضان يجب علينا أن نواجههما، أحدهما خاص بالمبدأ، ويجب أن نقول إننا لا حيلة فى اتهامات علماء الاجتماع لنا بالطموح باستمرار، وإذا قلنا إن الجغرافيا هى ببساطة، تقوم بنصيبها فى تفسير الحقائق الكبيرة التعقيد، وهى محقة فى ذلك دون أن تعتمد على الحتمية الصارمة التى يزعمون أنها تقوم بنشاطها فى آلية صماء، فإننا سنتخلص من هذا الاتهام. ولكن الجغرافيين لن يخلقوا علمًا بهذا العمل، أما الاتهام الآخر فهو لا يقل أهمية عن الأول، وإن كان منصبًا على المنهج، ومضمون هذا الاتهام هو أن الجغرافيين، وقد واجهتهم الظواهر الطبيعية والبشرية المعقدة المتداخل بعضها فى البعض الآخر، يجلون تلك الظواهر كما هى، مدعين أن بعض جوانبها يفسر البعض الآخر وهذا تعثر فى المنهج، أما الطريق الصحيح لحلها فهو أن يحلّل ذلك التعقيد إلى أبسط عناصره، بمنتهى الدقة، وندرس تلك العناصر واحدة بعد أخرى بطريقة محددة بعد فصلها عن غيرها، متبعين فى ذلك طريقة الدراسة المقارنة، وهذا ما تستطيع المورفولوجيا الأجتماعية أن تقوم بها، وتعترف الجغرافيا بعجزها عن القيام بمثل هذا العمل.

ونحن نكرر مرة أخرى، أن مجرّد وضع المشكلة ثم مناقشتها ليس معناه الدخول فى جدل أو بمعنى خاص منهاج البحث، ولكنه ليعرفنا بأسس المشكلة بشكل حيوى.

- ١ -

الاعتراض على المبدأ: هل هناك علم جغرافيا؟

إن الشكوى الأساسية الخاصة بالمبدأ قد ظهرت فى تقدير سيميان (Simiand) [١]، النقدى الذى حلل به عدة دراسات إقليمية قام بها ديمانجون عن بيكاردى بلانشار عن الفلاندرز وفالو وفاشروسيون عن بريطانيا السفلى وبيرى وفلاحى نورماندیا الشرقية فهو يقول [٢]: إن كل جهود الجغرافيين التى يحاولون بها أن يفسّروا الحقائق الاقتصادية تتلخص فى صميمها آخر الأمر على بسطها فى صيغ علمية (مثل المواد الأولية، الآلات.. إلخ) وفى تبيين أن هذه الظروف الاقتصادية تتفق مع الظروف الطبيعية لهذه المناطق موضع الدرس، أو أنها تعتمد عليها اعتمادًا كبيرًا، ولكن وجود أغنام فى إقليم لا يكفى لتفسير وجود صناعة نسيج الصوف، كما أنه لا يترتب على وجود مجرى مائى أن يعرف الناس كيف يستعملونه أو حتى يرغبوا فى استغلاله، كما أنه لا يعنى وجود أرض قابلة للزراعة، أن الناس فى هذا الإقليم سيعرفون كيف يحرثون الأرض ويفلحونها أو حتى يرغبوا فى ذلك، وأخيرًا، فإن أصحابنا الجغرافيين يقدمون لنا الأمثلة التى تنقص رسالتهم الجغرافية، وهل نحن نحتاج لواحدة من هذه الأسئلة، أن ديمانجون هو الذى يخبرنا عن وجود صناعة حديدية قد أقامت نفسها (كذا) فى إقليم خلو من الحديد والفحم جميعًا (بيكاردى وما حولها ص ٢٨٦ وما بعدها) ثم هو لا يجد ما يفسّر به تلك الظاهرة سوى وفرة اليد العاملة، وتلك حالة متوفرة فى كثير من الأقطار دون أن يستدعى ذلك نشأة مثل هذه الصناعة، غير أن هذا ليس بتفسير بل حالة ممكنة فقط، وعلينا أن نتذكر تلك الجملة الأخيرة تمامًا.

(١) (١٧) جزء ١١، (١٩٠٦ - ١٩٠٩) ص ٧٢٩ وما بعدها.

(٢) ثبت المراجع أرقام (٢٢٤، ٢١٧، ٢٢٩).

وقد نتخيل أن سيميان لا يلقى أهمية كبرى على نقده الموجه، لمؤلفينا، كما يدعوهم. ولكنه يريد أن يلفت نظرنا إلى النقطة المهمة الآتية، أن الحقائق الاقتصادية لا تتوقف دائمًا على توفر الظروف الطبيعية، ولا تعتمد على توفر الخامات وما إلى ذلك، بل على رأى الإنسان فى هذه الخامات، تلك مبادئ أولية نلقنها منذ زمن طويل لتلاميذنا فى المدارس ولكن سرعان ما ينساها بعض الجغرافيين فى مغامراتهم الحمقاء فى التعميم، ولكن مثل هذه الأخطاء البسيطة لا يعنى وجود ثغرة فى المبدأ.

ولكن هذا هجوم آخر يشنه سيميان على ديمانجون بالذات فهو يقول، «ها هو أحد الجغرافيين يحاول أن يدرس فى منطقة جغرافية محددة العلاقات بين الإنسان والطبيعة»، وبعد دراسة دقيقة متصلة بالظروف الجغرافية لهذا الإقليم، يستعرض أولاً الزراعة ثم الصناعة بفرض إيجاد ما يدين به كل منهما، أو لا يدين به، للبيئة الجغرافية، وهنا يجد صناعة معدنية ثابتة الأركان فى إحدى المناطق، ويجد أنها تلعب دورًا كبيرًا فى حياة الناس فى هذا الإقليم وكجغرافى يسأل نفسه، إن كان يوجد هنا سبب جغرافى لقيام هذه الصناعة، ثم يقوم بدراسته بإيمان وصدق علميين، دون أن يتقيّد برأى سابق فيصل إلى نتيجة سلبية [1]، وهذا دليل قاطع على أن الجغرافى، بعكس ما يقول دركايم «لا يبالغ فى إظهار أهمية العامل الجغرافى»، وأكثر من هذا فإن النتيجة فى غاية الأهمية والطرافة من الناحية العلمية، بالرغم من أنها، أو لأنها، نتيجة سلبية؛ إذ إن البحث الذى قام به أحد الجغرافيين قد انتهى بما أنه لا مكان للجغرافيا فى تفسير حقيقة معيّنة تنتمى إلى النظام الاقتصادى؛ فها هى الحقيقة قد ظهرت، والمجال متروك للعلوم الأخرى بمناهجها المختلفة لتساهم فى حل المشكلة. المهم أن الجغرافيين قد نفضوا أيديهم منها عند هذا الحد... أليس هذا سلوكًا طبيعيًا سهلاً؟

لما إذن هذه الاتهامات، لما لأن الاجتماعى قد صوّر لنفسه جغرافيا بشرية مثالية ثم وضعها هدفًا لسهام نقده، فهم لم يهاجموا الجغرافيا كما مارسها ديمانجون أو فالو أو سيون بل جغرافيا يصورونها هم لأنفسهم، إذن لا محل لما قال ناقدنا من أن ديمانجون ناقض بنفسه الرسالة الجغرافية؟ أى رسالة هذه؟

---

(١) سيميان (١٧) جزء ١١ ص z ٧٢.

لقد أثبت ديمانجون أن أصل صناعة الحديد وتطوّرها فى فيمو (Vimeu) لا يمكن تفسيرها بوجود الفحم أو الحديد ـ هذا هو ما قاله، فأى رسالة هذه ينقضها هذا المثال، إنما لا يمكن إلا أن تكون فكرة عامة كهذه، لا يمكن أن تقوم صناعة لا تعتمد فى أصولها على النظام الجغرافى. ولو أننا صادفنا مثل هذا القول فى أى كتاب جغرافى، فما قيمته الحقيقية. إن الجزء النفيس من أعمال الجغرافيين هى نتائج أبحاثهم وليس ما يقولون أو يفكرون فيه. ولكن نفرض أن أحدًا قال مثل هذا القول الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة، فلنسأل أنفسنا من قاله، وفى أى كتاب وفى أى صفحة؟

ولنعد إلى ديمانجون، حيث إنه الكاتب الذى نناقشه الآن، هل قال فى بدء رسالته على أننى أقصد أن أوضح كيف أن الجغرافيا وحدها كافية لشرح أوجه النشاط الاقتصادى فى سهل بيكاردى، إن كان قال هذا فعليه التثريب كما قدمنا ولكنه لم يقل هذا؛ كما أن فالو لم يقل فى بدء كتابه، «الأرض والدولة» نظرية حتمية طبيعية تحفظ حياة الدول فى الطريق الذى رسمته لها الطبيعة، على العكس من ذلك فقد بدأ كتابه بالإعلان التالى، أنه لا يوجد مجتمع سياسى واحد فى حدود المعمورة قد توقف تطوره على حتمية البيئة التى يعيش فيها[1]، ليس هذا فحسب، فإن الكتاب تعدى التقرير النظرى وشاعت فيه روح مثالية فى نقد الحتمية الراتزلية، ووضح فيه روح ناقد قوى وجو علمى محايد.

إن ما يتصوره سيميان، وما يفترضه وما يهاجمه، لم يدر بخلد فالو، أو ديمانجون وقد يرد الاجتماعيون على ذلك بأنهما كانا مخطئين فى اقتناعهما على قول هذا، لقد كانا مخطئين لأنهما كانا يصنعان عملاً علميًا، لأنهما كانا يكتبان كتبًا جغرافية، والجغرافيا كما يقولون علم وصفى، يبحث عن الأسباب بل ولو أنهما قالا مع فيدال دى لابلاش الذى استشهدنا بما قاله فيما سبق: إننا نجد فى بلادنا العريقة فى التاريخ كثيرًا من الأسباب تتداخل بعضها فى البعض، حتى إننا نجد أمامنا من الأسباب والنتائج، دون أن تكون فيها مسحة الضرورة العامة، وإن طالبا لطريقتهما الخاصة فى البحث وهى طريقة التحليل الجغرافى، مجرّد

(١) فالو (٣٩) ص ١٨.

نصيب فى تفسير الحقائق المعقدة فإنهما يتهمان. إنه التواضع والاعتدال اللذين جعل أمثال هؤلاء الجغرافيين يهجرون فكرة المعلم المفسر بمعنى الكلمة، بل إنهم تقدموا بالوصول إلى أحوال ممكنة وليس تفسيرات، ويقول سيميان [1]: من رأينا أننا استشهدنا بالمؤلفين بما فيه الكفاية، فخلف هذا الصراع الكامن وراء التحليل توجد فكرة معينة عن السببية المطلقة.

(١) قارن المرجع السابق ص ٢٧٠ وعن لنظة تفسيرات راجع ببير (٢٠) ص ٥٠.

- ٢ -

الجغرافيا لا تزعم إطلاقًا أنها علم ضرورات

٢إن المشكلة من الاتساع بحيث لا يمكن أن تُصاغ أو تُناقش فى سطور قليلة وليس فى نيتنا أن نفعل ذلك، ولكن النزاع قد طال بشأنها بين المناطقة [١] والعلماء، وظهرت فى صددها النظريات المتناقضة وذاعت شروح تلك النظريات المتناقضة وتطورت بحيث نرى لزامًا علينا أن نشير فى كلمات قليلة إلى أى اتجاه نميل.

تعرف السببية بمنتهى البساطة بما يلى، الظروف الواحدة تنتهى إلى نتائج واحدة ربما وجدنا تعريفًا أدق من هذا إلا أن هذا كله يذكرنا بمحاضرة (P. Langevin) عن تطور الزمن والمكان [٢]، والمناقشة التى تبعتها فى الجمعية الفلسفية الفرنسية عن المكان والزمان والسببية [٣]، فى العلوم الطبيعية الحديثة ولكن إيضاح تلك النظرية ليس من السهولة بحيث يمكننا من الخوض فيه الآن. وإذا قبلنا التعريف السابق، وهو أن الظروف الواحدة تنتهى إلى نتائج واحدة فإن المشكلة كلها تتوقف بعد ذلك على تلك الظروف، لا لأن تلك الكلمة غامضة أو أن هناك شكًا فى معناها، فالسبب القاهر، وهو مجموع الظروف الظاهرية تحتم حدوث ظاهرة أخرى، أو حسب قول مشهور للابلاش. إن الكون يبدو للناظر إليه نظرة واقعية، حقيقة واحدة كبرى [٤]، ومن هذا القول يترتب كما يقولون أن تكون كل حقيقة متضمنة فى تلك الحقيقة الكبرى، وأن السبب المحتم يتكون من

(١) راجع بصفة خاصة بيير مقدمة المرجع (٢١) و(١) ٤٢ وما بعدها.
(٢) (١٩) جزء ١٠ ـ ١٩١١.
(٣) مجلة الجمعية ١٩١٢.
(٤) بيير (٢٠) ص ٤٧.

عدد لا نهائى من الظروف فهذا حق، ولكن هل يستطيع الجغرافى أن يكتشف لنا تلك الحقائق البسيطة المجرّدة، هذه هى المسألة حقًا.

إن عالم الاجتماع لا يعترف له بتلك الفقرة، ولكنه بالرغم من أنه يمتلكها وهو وحده وذلك لأنه، على عكس الجغرافى، يحدد غرضه وهو فصل الوظيفة ليرى مظاهر تفاعلها المختلفة فى الزمان والمكان ليكن هذا، ولكن أين سيجد آراءه الأولى عن تلك الوظائف. هل سيستنتجها، ولكن على أى مبدأ، على أى أساس يقسم، (كالدبلوماسى الذى يخطط الحدود، وهو فى مكتبه فى لندن بالمسطرة والبوصلة حسب خطوط الطول وخطوط العرض) هل سينتهى إليها كالفيزيائى بعد تجارب يجريها فى معمله، ولكن عليه أن يقوم بهذه العملية بوضوح أو بالأحرى أن يقوم بعدد كبير من النظريات حتى ينتهى إلى العملية العلمية. يجب على الجغرافى أن ينظر إلى المشكلة نظرة عامة ثم عليه كإخصائى أن يحللها إلى خيوطها المختلفة خيطًا خيطًا؛ بنظام وطبقًا لخطة علمية سليمة وليس طبقًا للهوى الشخصى، ثم عليه تتبع خيوط المشكلة واحدًا بعد واحد؛ وبعد التجارب العديدة؛ المجهّزة بالحقائق الكاملة يستطيع أن يرتب العوامل المختلفة طبقًا لدرجة أهميتها ثم ينظر إلى المشكلة من جديد مفسرًا بعضها بالبعض الآخر، وهذا ما يحدث فى علم الأحياء مثلاً، ومن هنا كان لا بدّ للجغرافى أو الاجتماعى أن يقوم بأعمال تمهيدية عديدة، ويوقف نفسه للبحث المضنى الشاق حتى يطمئن إلى أن عمله حقيقى ومفيد، ولا يمكن أن يدعى أنه يقوم بعمل علمى صحيح إلا إذا أوقف نفسه عليه تمامًا.

هل نحن وحدنا فى هذا، هل هذا، الاحتجاج على ضيق أفق السببية التى تزعم أنها وحدها العلمية الصحيحة، منصب على علم الجغرافيا فحسب؟ كلا فمثل هذا النقد وجه إلى علم الاجتماع ففى كتاب للأستاذ هنرى بره (Berr) عن مشكلة المنهج والنقد وطرق الاستنتاج عند دوركايم، يقول المؤلف عن إيضاح النظرية التاريخية: لقد بيّنا أن علم الاجتماعيين الموضوعيين هو أنهم مطلقون فى أحكامهم ونظرياتهم، فها هو دركايم يقول، إن المجتمع عامل، وعامل مهم فى التاريخ، إنها تقوم بدور مهم جديرة بالقيام به، إننا نستطيع أن نسلم بأن طبقات

الباحثين المختلفة، تنبنى ولها وجهات نظر مختلفة، ونجد فى البحث عن طبقة معيّنة من الأسباب أن كلا يوجه البحث نحو العوامل المختلفة التى يرى أنها أجدر بالاهتمام، أننا نسمح بذلك، ولكن أى عمل عملى، غير جدير بهذا اللقب إن لم يكن تحررًا من كل تعصب لفكرة معيّنة، وإن لم يضع موضع الاعتبار العوامل المضادة لنظريته، يجب ألا يغالى فى تقدير عامل من العوامل، أو إعطائها أكثر مما يستحق.

ألسنا محقين أن وجّهتنا أن ننسب النقد نحو الجغرافيين، إننا نعلم أن بره كان يقصد تنظيم البحث وطرقه فى علم الاجتماع ولكننا لا نجد أمامنا من حتم هذا النقد إلا ما سبق أن بيّناه.

فى الواقع إننا إذا قرأنا آخر الكتب الجغرافية الحديثة التى كتبها جغرافيون مؤهلون، وأننا إذا تتبعنا هؤلاء فى أبحاثهم فإذا فهمنا تمامًا منهجهم والروح التى أملت عليهم عملهم، وإذا تذكرنا النقد الذى تلذعهم به الحولية الاجتماعية، فإننا نجد أن كلمة بالضرورة عند دركايم لا تعنى لديه ضرورة عملية، بل ضرورة منطقية ونظرية، وبالتالى إذا شئنا أن نطيل النقد فإننا نجد أن عبارة سيميان أصبحت مألوفة تمامًا لدى الجغرافيين، إن الإنسان يؤثر فى الطبيعة وأن الطبيعة تؤثر فيه ولكن لِمَ هذا الإلحاح.

هناك سوء تفاهم كبير يتصل بين الجغرافيين وعلماء الاجتماع قِبلنا، نجد الأولين يحاولون جاهدين فى أبحاثهم تجنب الوصول إلى استنتاجات ذات صبغة نظامية (Systematic) فبينما هم يحاولون مجرّد تحليل ما هو كائن مثلاً الذى يقصرون اهتمامهم عليه دون التقيد بأى آراء سابقة أو نتائج سبق إليها تفكير نظرى مبسط، فبينما يحاولون التحرر من آلية الحتمية وضيق أفقها لا نجد الآخرين يبذلون أى جهد فى تحرير أنفسهم من نوع السلبية عن تبادل التفاعل بين الإنسان والبيئة. هل نحن مخطئون هل نحن نبالغ، ولكن عندما يمنحنا ماوس الحق الشرعى فى البحث علميًا فى مشكلة إلى أى حد تؤثر طبيعة الأرض وشكل التضاريس وثروتها المادية ونباتها وحيوانها، فى النظم البشرية، ولكن عندما يقول

دوركايم: إن هناك سمات معيّنة للحياة الاقتصادية تعتمد على النبات والحيوان الطبيعيين فإن على الاقتصادى أن يلتفت إلى ذلك فى أى فكرة توحى بها هذه الأقوال.

هذه اللغة فى الواقع مادية، الفكرة أيضًا مادية، نحن نعرف الآن أن ليس هؤلاء وحدهم مَن يقول هذا القول. فهم يشتركون فى هذا مع المؤرخين الذين استغرقتهم هذه المشكلة ومع عدد من الجغرافيين، فنحن نجد هذه العبارة فى كتاب برنز (Brunhes) «الجغرافية البشرية» العبارة الآتية «ولما كان الناس يقطنون فى أماكن جغرافية معيّنة، فإنهم مضطرون إلى زراعة محاصيل معينة، هنا نخيل، وهناك أرز، وثمة قمح، عليهم أن يربوا الخيول هنا، فى سهول آسيا الوسطى وهناك ماشية مثل أواسط أوربا، أو فى جزر بحيرة تشاد أو على شواطئ بحيرة رودلف، وفيما عدا ذلك من غنم، مثل هضاب إسبانيا المرتفعة الجافة أو جبال أطلس [1]، هذا تطبيق لا شك لنظرية التلاؤم السلبى، وتكفى فيها عبارة «إنهم مضطرون» ولكن لو أن المرء راجع ما كتبه زملاء هذا الكاتب، بل ما كتبه هو نفسه فى غير هذا الموضع، للمس ما يمكن أن يسمى بالروحية الجغرافية، روحية بالمعنى الذى استعمله كارل ماركس وإنجلز فى الروحية الاقتصادية وهى فى الواقع ماركسيه [2].

تلقائية الإنسان وحركته: هذا ما يحاول الجغرافيون اليوم أن يؤكدوه، إنهم لا يحاولون أن يظهروا على أناس سلبية تحت وطأة المؤثرات الجغرافية، تحكمهم وتقرر مصيرهم أفرادًا، وجماعات، وتوجه تاريخهم عدد من القوى الطبيعية ذات الفعل المباشر والأثر الحتمى. كما أنهم لا يعتبرون الظروف الجغرافية كإطارات ثابتة ذات حدود معيّنة تطوى بداخلها أجناسًا معيّنة تأوى إليها وتعيش فيها وتتطاحن فى إطارها. بل إنهم يعتبرون الأرض والتربة كعوامل قوية فى اختلاط السلالات، إذ إنه لا تتيح العلاقات بين البيئة والإنسان إلا المصالح الحقيقية التى يسعى الإنسان إلى تحقيقها فى المكان، كما أنهم يعرفون، حسب ما يقول عالم

---

(١) (٦٦) ص ٥٨.

(٢) راو (٢٦) ص ٧١.

الحيوان، إن اعتماد الكائنات الحية على أصولها ـ وهى التربة ـ هو سبب حركتها الكبرى على هذا الكوكب، هذا صحيح بالنسبة للحيوانات والمجتمعات البشرية ومجتمعات حيوانية؛ ولا شك أن هذا قد قضى نهائيًا على الفكرة القديمة عن الكائنات الحية التى تؤثر فيها البيئة الطبيعية، أو موقفها السلبى.

هذا هو النقاش؛ وتلك هى المعارضة ـ وقد بذلنا جهدنا لإظهارها وإيضاحها لكل ذى عينين.

- ٣ -

مسألة الدراسات الإقليمية

هناك شكوى جديدة للاجتماعيين ضد الجغرافيين، وتلك الشكوى خاصة بالطريقة. فبعد مقالة النقد الطويل على الدراسة الجغرافية الإقليمية الفرنسية انتهى سيميان [1] إلى ما يلى: دعنا نتصور إذن، أن هؤلاء الكتّاب بدلاً من أن يعالجوا المشكلة التى لا تزال وستظل إلى وقت طويل قادم دون حل - أى مشكلة العلاقات القائمة بين الطبيعة والإنسان فى منطقة جغرافية معينة - بدلاً من ذلك أوقفوا أنفسهم على دراسة أشكال المساكن، أو توزيعها، ودرس صناعات معينة صناعة بعد أخرى فى فرنسا بأكملها، أو فى غرب أوربا إذا اقتضت الضرورة ذلك، فى الوقت الحاضر، بل وفى الماضى، كأنما هذا أمر ذو أهمية، إذ ليس المحتمل إذن أن يصلوا إلى صورة واضحة عامة للموضوع أو لتصوير مشكلة العلاقات بين الإنسان والبيئة. تصورًا كليًا كما فعل علم المورفولوجيا الاجتماعية. ليس هذا الاقتراح بقليل وليست المشكلة بجديدة كذلك، وقد سبق لنفس الكاتب أن هاجم الجغرافيين بعنف عندما كتب فى عام ١٩٠٢، فى مقالين فى مجلة التكامل (Revue de Synthèse) مقالين أحدثا شيئًا من الضجة فى وقتها، وكان عنوان أحدهما المنهج التاريخى والعلوم الاجتماعية، دراسة تقدير من مؤلفات لاكومب (Seignobos Lacombe) وقد بيّن نقده على أسلوب محبّب لدى المؤرخين وهو ما يسمى (Zusammenhang) أن المنهجيين المحدثين يدافعون عن أسلوب المدرسة التاريخية التقديرية باسم مبدأ عام يستحق إمعان النظر. هذا المبدأ هو: أن تتابع الحقائق التاريخية الذى يمكن تمييزه فى حياة مجتمع ما ليس

(١) (١٧) جزء ١١ (١٩٠٦ - ١٩٠٩) ص ٧٨٢.

له كيان مستقل أو تطوّر واحد، بل إنه يوجد بينها وشائج خاصة يربط بعضها بالبعض الآخر رباطًا متناسقًا ويؤثر بعضها فى البعض الآخر ويتأثر به، ويربط بعضها بالبعض الآخر رباط تناسق (zusammenhang)، وهو عنصر مهم فى تفسيرها [١]. وهذا ما يفسره هاوزر (Hauser) عندما يقول [٢]: كل شيء مترابط فى الحياة الاجتماعية فى أى لحظة ما، بين أى شعب ما، يوجد ترابط قوى بين المنشآت الخاصة الاقتصادية والقضائية والدينية والسياسية، ويرتبط التنوع فى سماتها بالأنواع الاجتماعية ارتباطها بالأنواع الحيوانية. ولكن سيميان يرد على ذلك بقوله: إن التاريخ وحده ومنهجه التاريخى الذى يؤكد لنا وجود عدد من هذا الترابط، والذى يصوِّر لنا أدق صورة للحياة الاجتماعية، وهذه غلطة كبرى فى عين الاجتماعى الذى يبشر بالمنهج المقارن بديلاً عن المنهج التاريخى.

إن امتلاك العالم، وصول الرجل الجديد إلى السلطة، التعديلات التى دخلت فى ملكية المواطن، سلطة الوالدين، تكون عامة فى المدن، لنرى فنون الإغريق والديانة الشرقية لإيطاليا، تدهور التقاليد اللاتينية القديمة... إلخ. كل هذا يكون عقدة واحدة لا انفصال لها، يمكن أن يفسر بعضها بعضًا، خير من أن نفسر الأسرة الرومانية بالأسرة اليهودية أو الصينية أو الأزتيكية، تلك هى نظرية المؤرخ كما يشرحها هاوزر [٣]، ويرد سيميان على ذلك بقوله: ولكن تحديد نطاق الدرس فى مجتمع لكى ندلل على وجود التضامن الاجتماعى معناه أننا نحكم عليها مقدمًا بالإعدام. فالعلاقات السببية لا يمكن أن توجد إلا حيث توجد علاقات منظمة وتكرار منظم للنتيجة الواحدة عند تكرار سبب واحد، إذن فالظاهرة الوحيدة لا سبب لها، ولا يمكن شرحها علميًا [٤]، نظريتان متعارضتان ولكن كما لا يحس مقدمًا المعارضة التى يعرض بها سيميان بين التحليل والمقارنة فى الدراسات الاجتماعية وبين آراء الجغرافيين الإقليميين المحبوكة.

---

(١) (١٨) جزء ٦، ١٩٠٣ ص ١٢٤ وما بعدها.

(٢) هاوزر (٢٣) ص ٤١٤.

(٣) نفس المرجع ص ٤١٤.

(٤) (١٨) جزء ١٩٠٣/٦ ص ١٣٨.

هناك شيء من الوجاهة فى نقد سيميان، للأسف، هذا النقد أقل تطابقًا على الجغرافيين منه على المؤرخين. دعنا أولاً نقول إننا على علم بتفسير سيميان المغرض لأثر المؤرخين المنهجيين فى تحديد التضامن الاجتماعى كما هو مفهوم وإن كان الجغرافيون قد ضلوا بهذا المنهج فلأنه يسمح له بالاستمرار فى تشجيعهم للحقائق البشرية طبقًا للأقاليم والأمم والوحدات السياسية تقسيمًا تقليديًا، وأنهم بذلك يبرهنون على اعتمادهم على التاريخ السياسى يستعيرون منه الحقائق ويرتبونها مهما كان ترتيبهم لها شيئًا ولكن تلك اللافتة لا تنطبق على الجغرافيين الكبار الذين أثبتوا أنهم يحترمون المبدأ الكبير، التقسيم الجغرافى، لا بدّ وأن يظل جغرافيًا صرفًا [1].

ومن البديهى أن أى مؤلف لكتاب إقليمى إذا كان ضيق المجال ممتنعًا عن عمل أى مقارنة، وفى نفس الوقت يتضمن كتابه عددًا كبيرًا من الحقائق الاجتماعية، فإنه معرّض إلى أن يخدع فى العلاقات التى يحاول أن يبعثها بين ظواهر اجتماعية معيّنة[2]، ولكن هذا معناه أن الجغرافى الخبير لا بدّ وأن يتصف بالذكاء وقدر معيّن من التدريب الجغرافى، وهذا الأمر بديهى إذ إننا نحب أن نعرف من هذا الجغرافى، ممن نقدهم سيميان، قصر فى معلوماته الجغرافية على إقليم معيّن، بيكاردى أو فلندرز أو شرق نورماندیا أو بريطانيا السفلى، وأنه كان على غير علم على الأقل بما يفعل زملاؤه حتى إنه لا يستطيع إيجاد العلاقات بين المساكن والبيئة.

وأخيرًا فنحن نعلم أن بعض الجغرافيين يشاطرون سيميان فيما يذهب إليه - فأحدهم قد كتب رسالة عن الرى [3]، ولا يمكن أن تسمى أنها رسالة جغرافية بالمعنى الصحيح، وقد كتب برونز فى كتاب مقرر عن الجغرافيا الاجتماعية [4]، متأثرًا بفيدال دى لابلاش يقول: فى رأيى يجب أن تتلو الجغرافيا الإقليمية المبحث الجغرافى لا أن تبدأه [5]، وهل لنا أن نقول إن أحدًا من هؤلاء جميعًا قد أقنعنا بعد.

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٢) فيدال (٣٠) ص ٩.
(٣) بيير (٢٠) ٩٣.
(٤) برين (١٠١).
(٥) برين (٦٦) ص ٦١٥.

لنعد الآن إلى مشكلة المنزل. فإذا أردنا مثلاً أن ندرس أشكال المساكن وتوزيع المنازل والقرى فى فرنسا كلها... فماذا نفعل؟ المشكلة بلا شك جسيمة أصعب وأشد تعقيداً من مجرّد مما تصوّر حالة إقليم بأكمله وفهمه فى الوقت نفسه [1]، تلك مسألة ترتيب فى قيم الفصول التى تفصل، ففى كتاب عن الجغرافيا الإقليمية لإقليم ما، يأتى فصل عن المساكن ضمن فصول الكتاب [2]، لكى يدل على أن المؤلف لديه خبرة ودراية بالإقليم من جميع نواحيه، وأنه قام بدراسة تحليلية طويلة للعناصر المختلفة التى تدخل فى تكوين المنزل الإنسانى. ولكن لا يمكن أن يؤتمن الجغرافى الإقليمى على مثل هذه الدراسة فى إقليم صغير كفرنسا أو إقليم كبير كغرب أوربا اللهم إلا إذا انتظرنا منه جهلاً بأبسط الحقائق وتبسيطاً فى العمل وسهولة فى النتائج وتضحية فى الدراسة وكلاماً عاماً معاداً، مما يستطيع أن يقوم به أى إنسان متوسط الذكاء لا يشترط فيه أى تدريب دقيق خاص، أو أن ننتظر منه أن يدرس كل إقليم دراسة دقيقة مستفيضة، وهذا أمر مستحيل بادى السخف [3].

هنا مشكلة تتعلق بتنظيم العمل تنظيماً معقولاً. إنه إذا كان لدينا عدد أكبر من الرسائل الإقليمية الجيدة التأليف، عندئذ، وعندئذ فقط نستطيع أن نضم الرسائل بعضها إلى البعض الآخر ونقارنها بعناية فائقة وننتهى إلى القواعد العامة ونتقدم خطوة جديدة فى موضوعنا. أما غير تلك الوسيلة فمعناها القيام برحلات سريعة مهتدين بهدى فكرتين أو ثلاث كبرى، ومعنى ذلك نتخطى الكثير من المسائل الدقيقة الخاصة الشاقة أو بعبارة أخرى كل ما يمكن أن يثير الاهتمام والشوق، بعبارة أخرى الخضوع لتلك الهوسة الخاصة بالتقسيم التى هاجمها جغرافى كبير أخيراً، هوس بالتقسيم، لا أكثر ولا أقل، ويجب أن نذكر أن هذه الجملة مقصود بها الجغرافيين وحدهم، وأن المثال الذى يضربه جوتييه (Gautier) مثال جغرافى دقيق أنه يتصل بتكوين الكثبان الصحراوية، حيث أشار

---

(١) فيثال (١٣).

(٢) سيميان، المثال السابق ذكره ص ٢٣٧.

(٣) من المفيد مقارنة الفصول التى كتبت عن المساكن فى كتب الجغرافيا الإقليمية الفرنسية وبين كتابى A. de Foville (١٦٤) و(١٦٤ أ).

المؤلف إلى صعوبة تصور، تعقد العوامل الطبيعية [1]، لأن الكثبان تكونها الرياح فلا بد أن تفسر الرياح كل شىء، ليس فقط الشكل الخارجى للكثيب بل تكون الرمال التى تكونها.

هذا حق صراح، ففى كل مرة نحاول أن نعرف أسباب الظواهر فى الجغرافيا الطبيعية، فإننا نواجه بتعددها وتعقدها. خذ مثلاً مسألة شدّة جفاف الصحراء الأسترالية، إنه لا يكفى فى تعليلها ندرة الأمطار [2]، فأهم العوامل فى ذلك شدّة الحرارة والرياح الجافة، كما يجب أن نأخذ فى الاعتبار طبيعة القارة التى لا تتخللها بحار داخلية، وتفاصيل تضاريس القارة وبنيتها، وعدم وجود تضاريس داخلية، ووجود الجبال المهمة فى شرق القارة دون غربها، وموقع أستراليا بالنسبة لمهاب الرياح التجارية وقلة أثر التيارات الهوائية المضادة التى يمكن أن تجلب الأمطار، وتغلب الرياح الجنوبية الشرقية الجافة على الموسمية الشمالية الغربية وعدداً آخر من الظواهر المختلفة ـ فهل يتصوّر أحد بعد ذلك أن يكفى قانون تحليلى واحد بسيط ليفسر إحدى ظواهر الجغرافيا الاجتماعية دون أساس إقليمى تكاملى.

بالتأكيد، لا نحتاج أن نقارن بين الطريقتين. (طريقة البحث فى الجغرافيا الطبيعية وطريقة البحث فى الجغرافيا الاجتماعية ـ المعرب) لكى نبيِّن عدم التكافؤ بينهما. فالدراسات الإقليمية التى تستبعد المقارنات لا قيمة لها، إن لم تكن مستحيلة، ولكن قد سبق أن قيل ببراعة؛ ليس هنا فقط بل هو مشروع وقانونى أن تستمر فى دراسات متفرعة من الجغرافيا دراسات مستقلة ولكنها جغرافية فى طبيعتها، ومن ناحية أخرى فالمبدأ من الظواهر الاجتماعية معناه إزاحة الجغرافيا إلى ركن قصى فى المؤخرة [3]، فعلم الاجتماع ليس مجرّد عامل إضافى بالنسبة للاجتماعى.

---

(١) جوتييه، دراسات صحراوية (١١) ٩٠٧ ص ١٢٣١.

(٢) هذا عن لسبانيول (٢٠٧).

(٣) بيير (٢٠) ص ٩٣.

- ٤ -

التكامل التام بين الجغرافيا السياسية والجغرافيا البشرية

الحق أن التاريخ السياسى والتاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى مرتبط بعضها بالبعض الآخر تمام الترابط. إذن فلا يمكن أن يكون ثمة جغرافيا تاريخية دون جغرافيا اجتماعية، ولا جغرافيا اجتماعية دون جغرافيا اقتصادية ولا جغرافيا اقتصادية دون جغرافيا طبيعية، فهذه جميعًا سلسلة متماسكة الحلقات وقد دعا تلك الحقيقة أحسن الجغرافيين وأجدرهم بهذا الوصف.

وقد كان ذلك منذ عهد قديم عام ١٩٤٨، بعد ظهور كتاب الجغرافيا السياسية فى نفس العام الذى بدأ فيه دركايم فحص هذا الكتاب بدقة وعناية عندما أعلن فيدال دى لابلاش من جانبه أن الحقائق الجغرافية السياسية ستظل غامضة غموضًا كبيرًا ما لم تتلاءم مع الجغرافيا الطبيعية، ثم أضاف إلى ذلك قوله: إننا نعتقد اعتقادًا راسخًا أنه لا يمكن أن يفيد الجغرافيا السياسية فائدة كبرى سوى ذلك التقدم الملحوظ الذى طرأ تحت أعيننا فى دراسة الكوكب دراسة طبيعية، فالعلاقات بين الإنسان والبيئة التى يباشر فيها نشاطه تظهر ظهورًا واضحًا إذا عنينا بدراسة ظواهر السطح وأنواع المناخ وتوزيع الحياة.

لقد كان رأيه هذا نهائيًا، لم يتزحزح عنه قط، فبعد ذلك بعدة سنوات ورد فى مقال له عن تدريس الجغرافيا: يجب ألا نعالج الجغرافيا الاجتماعية كمجرد تذييل، فإذا كانت تقوم على الجغرافيا الطبيعية فهى فى الواقع أساس الحقائق الاقتصادية وعماد الحياة الحديثة، ونستطيع أن نضيف إلى اللغة والتاريخ وهما يضيفان إلى المعرفة الإنسانية العلم بالظروف الطبيعية والبيئة، ويقول جالو فى أحد كتبه التى استشهدنا بها كثيرًا ما يلى: «إذا أردنا أن نشرح الحقائق البشرية. يجب أن نأخذ فى الاعتبار دائمًا إمكان تأثير البيئة. ولكن كيف نستطيع أن نعرف

مدى أثر هذه البيئة دون معرفة أولية بها قائمة على دراسة مستقلة للبيئة الطبيعية، كيف نميّز بين الحقائق البشرية والحقائق الطبيعية إذا بدأنا بالخلط بين ما هو عمل الإنسان وعمل البيئة. إن الموضوع فقط هو ضحية مثل هذا الخلط.

هل لنا أن نعذر إذا أصررنا على تلك النقطة التى تبدو لنا على جانب كبير من الأهمية؟ إننا نعرف أن الاجتماعيين لا يرضون بهذه الآراء، بالرغم من أنها آراء الجغرافيين المعتمدين، دون تحفظات ولكن إذا ظنوا أنهم يستطيعون رفض هذه الآراء، إذ كانوا يظنون أنهم يستطيعون شطر العنكبوت إلى شطرين بمقص ـ فإن جغرافيا الجغرافيين، إذا كان لنا أن ندعوها بهذا الاسم من جانب، والجغرافيا البشرية من جانب آخر ـ فإن هذا أمر مشكوك فيه لأنهم كانوا مقتدين فى هذا بأخطاء بعض قصيرى النظر المتكررة، وليس هذا فحسب، بل إنهم عادوا ببساطة إلى آراء المؤرخين وأخطائهم، فقد اقتفوا وجهة نظرهم وأعادوا نظرياتهم فى ثوب جديد. فإن المورفولوجيا الاجتماعية ليست ولا يمكن أن تكون مساوية للجغرافيا البشرية، ونحن لا نعترض قط على أن يكون لها كيان مستقل ونمو مستقل. بل إننا نعتقد أن الاجتماعيين يجب أن يهتموا ـ كما كان يهتم المؤرخون من قبلهم، بآثار الظروف الجغرافية على نمو المجتمعات البشرية. ولكن هذا يكون وجهًا واحدًا فقط من أوجه المشكلة التى تواجهنا، وهى لا يمكن أن تؤدى إلا إلى نتائج جزئية لا تفى بالغرض منها. ودعنا نلاحظ أن أى تقدم وصل إليه الاجتماعيون فى دراساتهم المورفولوجيا، وأى نتائج مضبوطة ومشوّقة، وصلوا إليها، لم يكن ممكنًا إذا كانوا اقتصروا على اتّباع المؤرخين من أمثال ميشليه أوتين. بل كان ممكنًا فقط بعد تقدم الجغرافيا التى يدينون لها؛ الجغرافيا البشرية متكاملة تمامًا مع الجغرافيا الطبيعية.

إنهم يعتمدون على الجغرافيا. كما أنهم يحتاجون إلى عون التاريخ، إذ لا ريب لديهم كما نتصوّر، أن الاعتبارات الجغرافية قد تحسّنت، وقد قال ذلك أحد الجغرافيين فى مجلتهم العالم الاجتماعى (L'annèe Sociologie) بشكل قد يبدو خياليًا ولكنه عادل. ولنا أن نتصوّر ألوان المعرفة اللازمة لذلك الباحث الذى يريد أن يرى، «إلى أى حد يكون فيه الإنسان عبدًا للتربة والمناخ، ولكى نرى بعد ذلك

إلى أى حد حرر نفسه من هذه العبودية» ثم يعدد فاشر (vacher) ألوان المعرفة هذه «أن يدرس بعناية مظاهر السطح وهندستها.. يعرف كيف نحت المناخ سطح الأرض لكى يعرف أى الأجزاء قد اجتذبت الإنسان بصفة خاصة وأى الاتجاهات سلك فى حركتهم، أن يبحث فى اضطراب النطاق الجوى وتغير الفصول وأثره، فعلى ذلك تعتمد الزراعة» ـ كل هذا يجب أن يتدرب عليه الجغرافى البشرى،وكل من يتصدى لبحث المجتمعات البشرية، تدريبًا طويلاً، وتلمذة طويلة، لكى يتكون تكوينًا علميًا ـ وكل هذا يبيِّن الصلة القوية بين الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية واعتماد الثانية على الأولى اعتمادًا مباشرًا، أما أن تتنكر لذلك الاعتماد، فمعناه إنكار صفة الجغرافيا البشرية الشرعية. ومعنى ذلك أيضًا عدم إمكان استيعابها فى المورفولوجيا الاجتماعية.

ولكن مَن يمنع المورفولوجى من استيعاب تلك المعرفة التى حددها فاشر؟ لا أحد. ولكن هل يكون صاحبنا جغرافيًا أو اجتماعيًا. أو هما معًا؟ ولكن سيكون ذلك عن جدارة، إذ إن الاجتماعيين كثيرًا ما أشاروا إلى خشونة المؤرخين الذين لا علاج لهم. هؤلاء الذين خاطروا بولوج مجالهم ونحن لا نقول إنهم مخطئون فى ذلك.

- ٥ -

مجال البحث المشروع

تأثير البيئة على الجماعات البشرية فى تطوُّرها التاريخى

علينا أن نرد أخيرًا على اعتراض آخر قبل أن نترك مشكلة المنهج. هذه المسألة تختص بالعلاقة بين المؤرخ والتاريخ ولكن مما لا شك فيه أنها - فى مناسبات عديدة - مسألة أخرى أكثر اتساعًا وشمولاً: فقد تحدثنا عن العلاقات بين البيئة والمجتمع البشرى فى تطوُّره التاريخى.

هل نحن نحاول أن نعقِّد مشكلة معقدة بالفعل؟ أم نحن نحاول أن نعالج خلطًا معينًا، ومسألة دقيقة تشمل الدولة والمجتمع وتخلط بين التطوُّر الاجتماعى والتطوُّر التاريخى، والجغرافيا البشرية بوجه عام بالجغرافيا السياسية التاريخية كما تسمى بحق؟

إننا نكرر قولاً قال به راتزل عندما نقول؛ إن الدولة ليست المجتمع، نحن نعرف هذا بالرغم من أن الدولة فى أقطار غرب أوربا، يبدو أنها تستمد كيانها ونموها من المجتمع، وأن النظام السياسى ينشأ من الحالة الاقتصادية والديموغرافية، والأخلاقية للقطر، فإن هذا لا يضطرد فى أقطار كالهند البريطانية (١)، حيث فُرض نظام سياسى بالقوة ومن الخارج على الأحوال الاجتماعية الأصلية التى كانت سائدة فى البلاد - نظام طبقات قديم، يشمل الأسرة والجماعات المهيمنة ولكنه عديم القيمة فى توحيدها (أى الأسرة والجماعة المهيمنة) وجعلهما يسيران جنبًا إلى جنب، أو أقطار مثل روسيا (٢) يبدو أن النظام الاجتماعى من صنع الدولة وحدها الذى كان سابقًا لها فى التاريخ، هناك حدد النظام السياسى إلى حد كبير شكل البناء الاجتماعى.

---

(١) فيدال (١٩٧).

(٢) ميليوكوف (٢٢٧).

ولكننا نعلم أيضًا، كما قال راتزل [1] «إن المجتمع هو الوسيلة التى تربط الدولة بالأرض» ويترتب على ذلك أن العلاقات بين المجتمع والأرض تؤثر فى طبيعة الدولة فى أى مرحلة من مراحل نموها، ثم يستشهد بأمثلة، «عندما يكون النشاط الاقتصادى لا يزال فى بداءته بينما مساحة الإقليم واسعة ومن السهل انفصال بعض أجزائها عن البعض الآخر، فإن الدولة فى هذه الحالة ينقصها التماسك والاستقرار، وإذا كان عدد السكان قليلاً موزعًا، ومعنى ذلك مساحة واسعة من الأرض، فإن هذا يؤدى إلى دولة من البدو الذين يمتازون تميُّزًا قويًا بالتصميم الحربى الضرورى بالدفاع عن مثل هذه المساحة الشاسعة من الأرض وهذا العدد الضئيل من السكان».

هذا تحليل بارع، ولكنه من البديهى، لا يزال يحتفظ بالأفكار الشكلية النظامية التى لا تثبت أمام النقد، كما وضحنا من قبل، وذلك الولع بالأفكار المجرّدة التى خبأت عن راتزل، عندما استطرده الحديث عن الجغرافيا النقل، كل حقائق التجارة، ولم تريه إلا آلية الحركة والانتقال [2].

ونحن من جانبنا نضفى معانى جديدة حتى على نظريات راتزل. فنحن لا نرى فى المجتمع مجرّد لعبة يضيق لولبها وتتسع فى صندوقها، ألا وهى الدولة. بل نحن نعنى كل العناية بدراسة الوحدات الاجتماعية، كما تحيا فوق الأرض، مستمدة حياتها منها، فى نفسها ولنفسها معًا.

نحن نرى تلك الوحدات مسيّرة - إلى حد كبير - بحاجاتها الاقتصادية ونحن نرى أن هذه الحاجات الاقتصادية أولاً، وجهود الناس لكى يشبعوها ثانيًا، هى التى تفسّر أثر الجغرافيا العميق فى تطوّر المجتمع الإنسانى.

نحن نرى الدولة تنشأ، كقاعدة، من استثمار التربة، أن الصلات بين الوحدات الاقتصادية السياسية، فى رأينا، لا تنشأ فقط من مجرّد تحوُّل شركة بالتدريج؛ كما هى الحال فى أيامنا هذه. من مجرّد شركة اقتصادية إلى دولة استعمارية

(١) راتزل (٣٦).

(٢) قارن هوكل (٧١) ص ٤٠٢، إن التوسع الجغرافى ولا سيما من الناحية السياسية يشبه تمامًا حركة الكائن الحى يمتد وينكمش وغرضه فى جميع الأحوال هو التوسع المكانى من أجل البحث عن مجال للدول؛ توسع إما من جانب البدو أو من جانب المستقرين.

فحسب، بل إننا نحاول أن نرجع القهقرى مع الزمن، كما يفعل كاميل جوليان [1]، لنفهم الأسباب العميقة التى جمعت قبائل معيّنة تحيا فى أقاليم تختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف فى وحدة سياسية هى الأمة الخالية المجتمع نحو نفس النهر، الاعتماد على نفس الطريق، الخضوع لنفس مفترق الطرق، التبادل الضرورى بين مناطق السهول ومناطق الجبال، هذه الأمم، وتلك الشعوب المكوّنة من قبائل مختلفة، كونت فى بادئ الأمر جماعات لتتبادل التجارة. وتتبادل الحماسة وانتهت إلى تضامن مادى ومعنوى، شعب وإقليم متبادلىّ التأثير والتفاعل بعضها عن البعض الآخر، تبادل ملاءمة بين الناس والإقليم الذى اتخذوه وطنًا، حتى فى وقتنا هذا فإن كاميل جوليان يلاحظ ببراعة أن مظاهر الإقليم التى تقع بحذاء مسالك فرنسا الرئيسية تتغير حيث كانت تقع حدود المدن الغالبة القديمة. فهذه المدن كانت وحدات سياسية كما قلنا من قبل. ولكنها كانت فى نفس الوقت وحدات سياسية كذلك.

إننا نعرف تمامًا أن هذه الآراء ستغير النقد وتقيم الاعتراضات علينا.

فهذا كميل فالو يقول شارحًا ومعدلاً آراء راتزل: إن العلاقات بين الأرض والدولة تنشأ مستقلة عن مصادر الثروة الاقتصادية وخارجة عنها، لأن الأرض هى القاعدة الأساسية والضرورية لنشاط الوحدات الاجتماعية، التى تم تنظيمها بغرض العمل المشترك، والتى نسميها دول [2]، ونحن نعرف كيف أن هذا الكاتب تحيّز بين الأرض السياسية، وهى مجال نشاط الدول بأشكالها المختلفة فى جميع أنحاء العالم، والأرض الاقتصادية وهى تشمل ثرواتها الطبيعية سواء كانت مستغلة أم لا، والتى تستمد منها كل دولة قوتها وقابليتها للاحتمال.

هذا التمييز بارع وله فائدته فإنه يجعلنا نحترس ونحذر من أن نتورّط فى فكرة معيّنة عن الدولة، وهى الفكرة الغالبة فى المادية، أو عن فكرة اقتصادية مغالية فى السطحية إلا أنه يجب ألا نمعن السير وراء هذا التمييز.

يتقدم كاميل فالو بمثل واضح يوضح فكرته من الصحراء الكبرى الفرنسية «لا يستطيع عاقل أن يزعم أن فرنسا قد ضمت الصحراء إلى ممتلكاتها الافريقية

---

(١) (١٧٢) جزء ٢، ص ٣٠ وما بعدها.

(٢) (٩٣) ص ٣٨.

لكى تستغل رمال، أو هضاب الحماد الصخرية أو لكى تنشئ خطوط مواصلات بين الجزائر والسودان» [1]، هذا صحيح، ولكن إذا انتهى المؤلف إلى أن هذا المثال «يمكننا من فهم القيمة التى لا تضفى، من وجهة النظر السياسية، أن المناطق أو الأقاليم عديمة القيمة الاقتصادية «فإنه يكون مغاليًا ألا ينزلق إلى الحديث، مخطئًا كرجل أعمال أو كحاكم مستعمرة شرقية، يحسب ما يمكن أن يغلّه استعمار مستعمرة، وليس كجغرافى؟

ليست الصحراء فى الواقع عديمة القيمة من الناحية الاقتصادية، فهى ذات قيمة لسكانها الذين اتخذوها مجالاً لنشاطهم وكيانهم - لقبائل الطوارق - الذين يحتلون بعض أجزائها وعلى اتصال دائم ببعض آبارها وعيونها وذات قيمة لغيرهم من سكان الواحات الذين نعرف تمامًا علاقاتهم الاقتصادية بالبدو.

مثل هذا التنظيم السياسى والاجتماعى الموجود فى الصحراء - خارج الحدود الاستعمارية الحديثة إن شئت - يقوم بصفة خاصة على أساس اقتصادى ومَن يستطع أن يزعم أن فرنسا عندما مدّت نفوذها على تلك الأرجاء، لم تفعل ذلك لأجل السيطرة على تلك المجتمعات التى تسكنها، والتى تقوم فى حياة اقتصادية مستمدة من الصحراء نفسها كما بيّنا؟ هل نستطيع أن نقول كذلك إنه لا مكان للاستعمار الأوربى فى التبت، نعم إن الجزاء ضئيل فى مثل هذه الأرجاء ولكن بالرغم من ذلك فهناك فوق الوديان المرتفعة فى جنوب التبت فى قلب آسيا قامت حضارة بشرية بفنها وأدبها ومصادر ثروتها الطبيعية، وزراعتها وتربية ماشيتها بقدر يكفيها الحياة [2].

«غير ذات قيمة اقتصادية». تلك جملة أخرى من الجمل التى لا محل لها. اللهم إلا إذا كان معناها اقتصاديًا وتجاريًا.

نستطيع أن نستمر طويلاً فى ضرب مثل هذه الأمثلة. ومَن يدرس الوحدات السياسية فى تطوُّرها السياسى عليه ألا يقتصر على مظهر حياتها الخارجى فحسب، بنموها وتوسعها، أو بعبارة أخرى ولعلها على شىء من الطموح بعلاقتها

(١) نفس المرجع ص ٣٩.

(٢) سيون (١٩٦) ص ٤٤.

الخارجية ومسائل حياتها ونموها الطبيعى. وسائل سيطرتها على الأرض التى تحتلها، بنيتها الداخلية ونموها، تلك هى المسائل التي يجب أن تدرس إذا أردنا أن نسبر عمق الأثر الجغرافى المتعدّد النواحى على تطوّر تلك الوحدات الاجتماعية ذات السيادة التى تسمى دول. فالمشكلة إذًا لا يمكن حلها. بعقد مقارنات واسعة، وقياسات عامة، ثم الوصول إلى نظريات لم تؤيد لم نصل إلى شىء فى الواقع بعد كتابه هذا العدد الكبير من تاريخ الحضارات (Kulturgeschichte) [١]، وملاءمتها مع بقايا كتابات رنز المهلهلة؛ والتى أعلن فيها بكل فخر «تحت قناع القوانين الجغرافية التاريخية التطورية» فإن الأقطار ذات السواحل المستقيمة ـ بقايا نظرية الاتصال البحرى [٢] ـ والأقطار البعيدة عن البحر ذات المناخ القارى، أى الأقطار التى تشبه كل بلاد العرب مهد الإسلام، ليس لها مكان فى تاريخ المدينة، بينما تلك الأخرى «ولنفرض مرة أخرى» مثل كورسيكا وكوريا... إلخ.

ليس صحيحًا أن أربعة أو خمسة مؤثرات جغرافية تطبع التاريخ بطابع ثابت منتظم ولكننا نجد دائمًا هذه المخلوقات التى وهبها الله الفطنة، فى جميع مراحل كيانها سواء كانت تحيا كحياة منعزلة، أم مجتمعة فى جماعات، تعمل دائمًا، وفى جميع الأزمنة تحت العوامل والمؤثرات الجغرافية المتناقضة، من شكل السطح، والمناخ، والنبات، وغيرها من قوة الطبيعة التى تكوّن البيئة الطبيعية.

(١) قارن مثلاً كتاب Handbuch der Kulturgeschichte de O. Henne am Rhyn Leipzig, 1900, in- 8.

(٢) نقد هذه النظرية فى فالو (٢٣٧) ص ٢٧ وما بعدها. وقارن أيضًا مقالة ديبوا «دور المواصلات الساحلية» (١١) ١٨٩٢ ص ١٣١ وما بعدها وانظر أدناه الباب الثالث، الفصل الثانى.

الباب الثانى

النظم الطبيعية والمجتمع الإنسانى

الفصل الأول

مشكلة التقسيمات: المناخ والحياة

كأتباع أستاذ كبير قد أعدنا القول مرارًا بأنه لا توجد مشكلة فى الجغرافيا أهم من مشكلة التقسيمات أو الحدود الفاصلة. وفى هذه المسألة كغيرها من المسائل نستطيع أن نصل إلى الإجابة من طريقة عرض المشكلة. وليس أسهل من هذه المشكلة فى عرضها التقليدى.

نحن نبدأ أول الأمر بتجريد: الإنسان، كائن سلبى، خاضع لمؤثرات البيئة الطبيعية ومن المفروض أن هذه البيئة (دعنا نقول الأرض) تؤثر فيه وتغيره عن طريق قوتين جبارتين: التربة والمناخ. ومن المعروف ولا شك أن الوراثة أحد العوامل المؤثرة فى التطور البشرى ولكل العوامل الأخرى عدا ذلك مستقاة من البيئة. وهذه تباشر قوتها على الأفراد والجماعات وهذه ليست آثارًا فعّالة فى التغيرات الجسمانية. بل إنها أيضًا تحدد اتجاه الآراء الأخلاقية والسياسية وتحقيقها، وهذا هو أساس التاريخ المتين.

- ١٠ -

الفكرة التقليدية عن المناخ: الرواد

وهكذا بدت المشكلة سهلة فى نظر مونتسكيه عندما كتب (روح القوانين) كما بدت بسيطة سهلة فى نظر سلفه جان بودان. إلا أنه لا ينبغى أن نغالى فى تقدير أثر هذا الأخير عليه (١).

ولو أن مونتسكيه قرأ بعناية أكبر الكتب الستة للجمهورية (Six livres de la République) للسياسى الأنجفينى (Angevin). ولو أنه قرأ الفصل الأول من الكتاب الخامس بعناية وشغف واستفاد منه أكبر فائدة وأغناها، وفيها ورد (أن هناك أصنافًا عدة من الناس، كما توجد أصناف عدة من الأقطار. ويختلف الناس فى المناخ الواحد باختلاف أقطارهم، فهناك الشرقيون وهناك الغربيون، بل إن أهل بلاد الشمال يختلفون عن أهل الجنوب ولو كانوا على بُعد واحد من خط الاستواء. بل إنه إذا تساوى المناخ الواحد والبُعد الواحد عن خط الاستواء فهناك فرق بين أهل الجبال وأهل السهول (٢)، فإنه قرأ مؤلفات أخرى وعرف كتّابًا آخرين، كتابًا أقرب إلى عقله من بودان فهناك الرحالة مثل شاردان (Chardin) الذى أظهر (Dupin) أثره على مونتسكيه أو الطبيب الإنجليزى (Arbuthnot) كاتب مقال عن «أثر الهواء فى جسم الإنسان» الذى ترجمه طبيب فرنسى من مونبلييه سنة ١٧٤٢ يدعى (Boyer de Pédramidé)، إذ لا شك، من إشارات ديديه (Dedieu) فى كتابه عن «الأصول الإنجليزية لروح القوانين» أن مونتسكيه قد تأثر

(١) هناك رسائل عديدة عن هذا الموضوع منها فلسفة التاريخ فى فرنسا وألمانيا لمؤلفه (Flint) ص ٢٥ و٧ بعدها، إيريرا، سابق لمونتسكيه وبودان (المجلة الأثرية البلجيكية ١٨٩٦، ومؤلف فورنول Fournol عن بودان، سابق لمونتسكييه ١٨٩٦، انظر ديويو (٤١) فصل ٧، شوفيريه ٣٧ ص ٢٤٨ وما بعدها و٥١٢.

(٢) بودان (٣٦) ص ٤٤٦ ـ ٤٦١.

بهذا الطبيب الإنجليزى فى الفقرات الرابعة عشر والخامسة عشر والسابعة عشر من كتبه (1).

ولكن مهما كان من أصل روح القوانين فإن صاحبه كان يعتبر الإنسان وحده ككائن منعزل شخصية مفردة، وحدة طبيعية، وليس من هذا ما يصقل عقل كاتب فى القرن الثامن عشر. معاصر لروسو وكتابه عن العقد الاجتماعى.

أمام الإنسان تقف قوتان التربة والمناخ قوتان كبيرتان؛ أدخلهما مونتسكيه فى اعتباره دون أن يدرسهما أو يشرح آثارهما فى تفصيل أو يدرسهما دراسة تفصيلية تنفصل إحداهما عن الأخرى، بل أجملهما معًا وتحدث عن آثارهما معًا.

درس مونتسكيه فى الكتاب الثامن عشر من روح القوانين أثر التربة فى النظم القضائية للإنسان دراسة سطحية مختصرة جدًا. لم يتعمّق فى تحليله كثيرًا، إنه لم يفهم من التربة ولم يهتم من أوجهها إلا ما سمّاه طبيعة الأرض، ولكنه لا يتقدم بأى فكرة جيولوجية أو طبوغرافية فيه محددة عن هذا التعبير، فالعلم فى وقته لم يعترف بهذا إلا فى النادر، ففكرته نفعية صرفة وأكثر من ذلك فهى غامضة، فالأرض فى نظره تتصف بإحدى الصفتين الخصب أو القحولة، فإن جدب الأرض فى أتيكا أنشأ حكومة شعبية وخصبها فى لاكيديمون أنشأ حكومة أرستقراطية (2). هذا مثل من استنتاجات مونتسكيه البسيطة.

فهو لم يتقدم كثيرًا عن بدوان فى الإشارة إلى نتائج قحولة الأرض شحذ أذهان السكان، اتزانهم، تجمعهم فى المدن، ولديك أثينا قديمًا ونورمبرج فى القرن السادس عشر تعج بأبدع الفنانين فى العالم، كذلك بمدينة ليموج، جنوة، وغنت، «فالأعداء لا يطمعون فى أرض قاحلة ولهذا يعيش السكان فى أمان يتكاثرون وعليهم أن يشتغلوا بالتجارة أو العمل»(3)، هذا مثال آخر من بدوان وفيه نرى أن تحليله أعمق وأنه أقرب إلى الروح الجغرافية من مونتسكيه، فلو أن الأخير أدخل فكرة التضاريس من حين إلى آخر فى كتبه السهل والجبل - فإنها لا تبين فكرة الخصب به أو عدم الخصوبة، فالبلاد الخصبة هى «السهول حيث

(1) ديوبو ٤١ فصل ٧ ص ٢١٢ ومونتسكيه باريس ١٩١٧، ص (٥٥ - ٥٧).
(2) المرجع السابق.
(3) مونتسكييه (٤٠) ١، ١٨ فصل ٢.

لا يستطيع أن يرفع أحد رأسه أمام القوى»، بينما فى البلاد الجبلية يستطيع الإنسان أن يحتفظ بما لديه وليس لديه إلا القليل [1].

وبنفس الطريقة عندما يتحدث المؤلف فى الكتاب الثامن عشر عن الحِرف المختلفة مثل الصيد والقنص وتربية الماشية (هذه الآراء لا تظهر بوضوح فى كتاب بودان) فإنه يفعل ذلك لكى يبيِّن أهميتها الضئيلة، جانب الحرص والزراعة فالقنص والصيد كما يقول مونتسكيه فى الفصل التاسع من أرض أمريكا (يمدان الناس بالوفرة) فهم بكل بساطة يعملون عمل الطبيعة التى تمدهم بالخيرات الوفيرة التى تقيم أوْدهم. تلك آراء مبسطة وتعميمات غير سليمة.

أمّا عن المناخ فإن مونتسكيه يفرض له مساحة أوفر وعناية أكبر فإنه تقليد قديم أن نرجع إليه قدرًا كبيرًا من التأثير. وكاتبنا لا يتأثر فيه ببدوان فخسب بل يذهب أبعد من هذا إلى هيبوقراط الذى كان تراثه قد بدأ فى الأحياء على يدى ديدييه (Dedieu) ولذلك فإن مونتسكيه لم يحتج إلى كتاب واحد بل إلى أربعة لكى يبيِّن العلاقة بين المناخ وبين القانون بصفة عامة ثم بقوانين «الاستعباد المدنى والاسترقاق وأخيرًا الاستعباد السياسى» ولكن لا يزال التحليل جزئيًا، وليس معنى هذا أننا ننتقد مونتسكيه، لأنه لا يستطيع أن يسبق الحركة العلمية فى زمنه، ولكننا نقول: إن المناخ، فى كتبه الأربعة كان له معنى واحد هو الحرارة، المناخ حار أو بارد أو معتدل. تلك الإرهاصات بالأقاليم الطبيعية ولكنها فجة سطحية: فمثلاً فى الكتاب السابع وفى الكتاب الثالث يلاحظ مونتسكيه أن ليس فى آسيا منطقة معتدلة بمعنى الكلمة، بل تتلاصق بالأقاليم الشديدة الحرارة فى الأقاليم الشديدة البرودة.

وعلى العكس فى أوربا فالمنطقة المعتدلة واسعة الانتشار، وبالرغم من أنها تتمثل فى أنواع مختلفة من المناخ. ولكن لما كان المناخ يضطرد فى البرودة كلما اتجهنا من الجنوب إلى الشمال فإنه يترتب على ذلك أن كل قطر كبير الشبه بالقطر الذى يجاوره. ومن هذا الاختلاف بين القارتين يعقد مونتسكيه مقارنة كاملة. وبنفس الطريقة يستطرد مونتسكيه قائلاً فى الفصل السابع من الكتاب:

---

(١) بودان ٣٦ ص ٤٨٥.

إن إفريقيا تتشابه فى المناخ مع جنوب آسيا، ولكن ما هى مميزات مناخ جنوب آسيا فى نظر مونتسكيه؟ نحن الآن تتبادر إلى ذهننا الأمطار الموسمية أما مونتسكيه فلم يكن يفكر إلا فى الحرارة. فجنوب آسيا قطر حار جداً. وجنوب إفريقيا قطر حار جداً ولا يتعدى تحليله هذا الحد لا يبعد أكثر من أرسطو فى الكتاب السابع من السياسة. سكان الأقاليم الباردة شجعان حاربوا فى سبيل الحرية أما الآسيويون فتعوزهم الطاقة لذلك هيئُوا للسيطرة والاستعباد.

ولكن لِمَ كل هذه الملاحظات على نظريات مونتسكيه القديمة؟ لِمَ هذه الرحلة فى الماضى؟ أولاً إذا أردنا أن نعرض للمشكلة العلمية فى وضعها الحالى فإن الأمر لا يخلو من فائدة إذا رجعنا إلى الماضى، وثانيًا هل لمجرّد العلم أم لشىء آخر؟ هل الاتجاه الذهنى الذى كان سائدًا فى القرن الثامن عشر قد اختفى تمامًا إلى غير رجعة. يجب أن نعترف بأنه هو لم يتغيّر.

لا يزال الجغرافيون من أتباع رتزل مستمرين فى اعتبار العلاقات بين البيئة والإنسان أمرًا بسيطًا عامًا بالرغم من تكلف شىء من الحذر فى منهجهم.

فمس هلين تشرشل سمبل فى مطلع كتابها الشيّق عن الجغرافيا الاجتماعية، أثر العوامل الجغرافية فى البيئة [1]، تعرض صورة منقحة لتقديرات راتزل، وتعرض فى فقرتها الثالثة منهجًا فى البحث كما يلى: أن تقارن بين مختلف الشعوب من طراز معيّن من مختلف السلالات فى جميع مراحل المدنية أو فى الظروف الجغرافية فى البيئة الواحدة. فإن كان ثمة اختلاف فهو راجع إلى السلالة وإن كان ثمة اتفاق فهو راجع إلى البيئة، وهكذا كان لدينا عنصران «البيئة وهى فى غاية التعقيد بحيث يصعب تحديدها، والإنسان فى غاية التجريد» حتى لو درسناه فى حدود السلالة، بل إن فكرة السلالة لا تزال غير محدودة فهل كنا مخطئين إذا كنا نرى تلك الآراء لا تزال بدائية؟

ويظهر ضعف موقفهم أيضًا من اتجاه الراتزليين أنفسهم، فهم يؤكدون بجرأة مثلاً ثبات أثر العوامل الجغرافية والبيئة اللهم إلا فى بعض الحالات العارضة، فهم يستنتجون أن الجزر والصحارى والستبس تخلق ظروفًا اقتصادية وبشرية

(١) سمبل (١٥).

وتاريخية متشابهة. بل إن بعضهم يجد من نفسه الجرأة بحيث يقارن ظروف إنجلترا واليابان وميلاينزيا وزيلنده الجديدة وكريت قبل التاريخ، أو يقولون إن سهول وصحارى العالم القديم قد ولدت قبائل بادية غزت بالتتابع الأقطار الغنية التى تحيط ببلادهم ثم لا يقارنون بين قبائل البادية التى تعيش فى الوقت الحاضر، بل التى كانت تعيش فى جميع العصور ... ثم يفقدون فيما بينهم موطنهم الأصلى. فلكى تشرح مس سمبل لماذا اضطر الهون والقوزاق ويفصل بعضهم عن البعض مئات السنين إلى الهجرة من بلادهم. أكدت لنا أن ذلك متصل بطبيعة الهواء الجاف النشط (عامل غامض جداً) وصعوبة الحياة فى إقليم فقير وهذا فرض جديد ليس معناه البيئة تماماً بالرغم من أنه يعتمد عليها.

وبنفس الكيفية يرجع تطور التاريخ الإسبانى كله إلى عوامل البيئة، ألم تكن الجغرافيا كما تساءلت، هى التى عرضت بلادهم لغزو العرب. وفى نقطة عرضها نشاط البربر المسلمين؟ هذا لا شك فيه. ولكن أين العامل الجغرافى بمعنى الكلمة هنا؟ ثم تقول إن الحاجة إلى طرد العرب فرضت نوعاً من التبلور السياسى فى الدولة الأيبيرية فأصبحت معسكراً للمغامرين المسيحيين مركزها قشتيلة الصحراوية. هذا حسن، ولكن أين العامل الجغرافى هنا؟ ثم يضاف إلى ذلك أنه لم تكن هناك حركة تجارية أو صناعة فى إسبانيا فى ذلك الوقت وأن الحياة كانت أكثر تركيزاً فى السهول والسواحل أكثر منها فى الداخل. ولكن هل هذا العامل متعلق بالفرض المزدوج عن الإنسان والبيئة؟ ثم جاءت حرب ١٤٩٢، وسقوط غرناطة فتغيرت الظروف القديمة، كما قالت. ربما ولكن هل كان سقوط غرناطة عاملاً جغرافيًا صحيحًا؟ ثانيًا أليس من الحسن أن نتذكر أن إسبانيا كانت تعرف ببلاد تقع على حدود الدول الإسلامية؟ ولكن الآن ظهر اكتشاف جديد فهى أصلاً - كما يُقال لنا - بلاد تقع بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسى. يسكنها شعب محارب مغامر بطبيعته. ولذلك قدر له أن يكون ذا تاريخ حربى واستعمارى. ثم المأساة النهائية انهيار الإمبراطورية الإسبانية. وهنا يتدخل التحالف الإنجليزى والهولندى، ولكن لم يذكر قط أن العنصرين المهمين لدى راتزل، وهما البيئة والسلالة؛ لم يتغيرا تغيراً محسوساً ومع ذلك وقعت الكارثة التى لا يمكن شرحها (أو شرح الثورات الكبرى التى ستعقبها) جغرافيًا.

الحق أنه فى جميع الحقائق التاريخية التى ذكرتها مس سمبل يبدو أن تطبيق نظرية تين (Taine) الذى أضاف إلى عاملى البيئة والسلالة عامل «الزمن» جعل هذه النظرية أكثر قبولاً[1]، بحيث لا نتردد فى قبولها، ولكننا على الأقل نقول إنه كان يبرر ذلك. إذ إنه أمر مستحيل وبادى السخف أن نحاول معالجة مثل هذه المشاكل المعقدة بالجملة. ومن العبث أن ننظر إلى البيئة من وجهة نظر واسعة، ولكن بفعل الحقائق الراهنة لا بدّ من أن نأخذ فى الاعتبار البيئة فى الماضى والحاضر. ولكن مثل هذه التعقيدات غير ذات جدوى. فنحن نرفض أن نصدق أن ضوءًا قويًا سيلقى على تاريخ النمسا بتقسيمها إلى قسم أدرياتى، وقسم دانوبى وقسم غير دانوبى؛ ثم دراسة الأثر اللاتينى والإغريقى أو الروسى فى كل قسم على حدة؛ حتى ولو أضفنا الغزو التركى وسياسة هامبرج المتغيّرة تبعًا لكل من السلطان وقيصر، أو بعبارة أخرى: أى المشاكل ستحاول حلها؛ إذا لم تكن مشكلة واحدة منها؟

لعلنا قد رأينا الآن استحالة دراسة العلاقات بين الإنسان والأرض دراسة عامة، هذا ما قد تمناه الفلاسفة من قبل، أو حل مشكلة العلاقات بين عالم الطبيعة وعالم الروح. إنه من الضرورى، إذا أردنا أن نتقدم فى بحثنا أن نستبدل بعبارة الإنسان، الجماعات البشرية ثم نفصل كل عامل من عوامل البيئة. وأثره فى حياة الإنسان حتى نستطيع أن نصل إلى تكامل (Synthesis) ونعيد إنشاءها من جديد بشكل يقبله العقل. وبعبارة أخرى يجب أن نحلل المشكلة إلى أجزائها المستقلة. وهذه بعد أن تختار مبادئ متفقًا عليها ثم تدرس قيمتها الحقيقية بشكل ينفى أى شك فيها. أو يعرضها لأنواع النقد التى قدمنا بها. ونحن هنا لا نغمض أعيننا عن فكرة وحدة العالم الطبيعى ـ تلك الوحدة التى يظل تصورها الواضح الحق أساس الجغرافيا كلها، ولكن تقسيم المشكلة إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء لا يزال، منذ أيام ديكارت المنهج السليم للبحث العلمى.

(١) عن نظرية تين Taine قارن أيضًا Lacombe لاكومب (٤٨) ص ١٤.

- ٢ -

المناخ وبناء الجسم الإنسانى

لا شك أن فكرة المناخ أكثر تعقدًا لدينا منها لدى مونتسكيه ومن باب أولى بودان فنحن نعرف عادة، بل وإن أكثرنا تعميمًا ليسلّم بأنها لا تشمل الحرارة فحسب، ونحن عن طريق مجددى الجغرافيا الطبيعية. نستعير آراءنا صحيحة من علم الفلك، وعلم الظواهر المناخية، وعلم الطبيعة. ولا ننسى الدور الذى يلعبه الارتفاع عن مستوى البحر أو الإشعاع، أو أثر الكتل القارية والتيارات البحرية والرياح السائدة والبُعد عن خط الاستواء وحتى لو رأينا بوضوح أن التقسيم القديم للمناخ إلى حار وبارد ومعتدل لا يعطى فكرة الموقع الجغرافى أو القرب والبُعد عن خط الاستواء فهل نحن برءاء مما وقع فيه مونتسكيه من أخطاء؟ كلا، إذا كنا نواجه أفرادًا منعزلين بقوة طبيعية أو عددًا من القوى، وملاحظته على مزايا المناخ التى تتمتع بها المناطق الغريبة من القارات فى نصف الكرة الشمالى بمقارنتها مع النصف الشرقى [1]، وهى ميزة لا تمنع الشرق من أن يكون من وقت إلى آخر مركزًا للقوة المدنية، أننا نعارض سوء استعمال المنهج. وعرض علم [2] غير صحيح وعدم المقدرة على وضع المشكلة وبالتالى حلها، ولكنها على أى حال لا تلغى المشكلة من أساسها وهو أثر المناخ على الإنسان.

كيف إذن نعرض المشكلة؟ إننا نرى من أول وهلة أنها مشكلة مزدوجة وأننا يجب أن نختبر آثارها على أجسام البشر وصناعتهم: على الجسم أولاً على المجموع العضوى.

---

(١) انظر بصفة خاصة مس سمبل (٩٠) فصل ١٧.

(٢) فى كتاب مس سمبل مثلاً إشارة إلى إقليم التندرا وظاهرة استئناس الحيوان.

هذا أثر احتل جزءًا كبيرًا من تفكير العلماء من زمن قديم. هؤلاء الذين كانوا يميلون إلى اعتبار العوامل المناخية ذات أثر مباشر على الجسم الإنسانى. مماثل لما لاحظوه على الأجسام الحية جميعًا. من حيوانية ونباتية، فتحت مؤثرات خاصة. كما يُقال لنا تظهر استجابات عضوية خاصة. وقد جعل داروين من ذلك أحد عناصر الانتخاب الطبيعية. وبنى عليها لامارك نظرية التطور: وأرجع بعض الفلاسفة مثل هربرت سبنسر وأوجست كونت أهمية كبرى وفى أعقابهم جميعًا حشد كبير من العلماء والأنثروبولوجيين أضافوا مقدارًا كبيرًا من الملاحظات والتأكيدات التفصيلية. وقد استعملت من وقت طويل اعتبارات خاصة بأن مختلف أنواع المناخ استعملت أحيانًا وأسىء استعمالها أحيانًا أخرى. فالحرارة تثير الأعصاب وتهلك القوى وتجعل التراخى يدب فى جسم الإنسان، والبرد يجعله أكثر بطئًا وهدوءًا ولكنه أرزن وأكثر تركيزًا، تلك أمور عامة شائعة استخدمت آلاف المرات منذ بودان. وكذلك رفضت آلاف المرات بحقائق أولية جدًا. ولكن علماءنا كانوا يطمحون إلى ما هو أعمق من ذلك وأشمل.

ولكن إذا تركنا العموميات جانبًا. واستمرينا فى التحليل. فهل معنى هذا أننا خاطرنا بالخروج عن نطاق الجغرافيا؟ نعم لا ريب، بالدخول فى نطاق الأنثروبولوجيا والباثولوجيا.

دعنا نناقش إحدى الحقائق التى احتلت من زمن طويل حيّز انتباه الدارسين وأثارت تعليقاتهم، أحقًا (كما لاحظ الناس) أن هناك علاقة لا ريب فيها بين المناخ. وخصوصًا الحرارة، من ناحية وبين لون الجلد من ناحية أخرى؟ ولكن هل وضع هذه المشكلة الدقيقة ومحاولة حلها ضرورى للجغرافى؟

لا ريب أن الجغرافيين يستطيعون معاونة الأنثروبولوجيين فى تقرير الحقيقة التالية: أن لون الجلد، كما تبدو الأمور الآن، لا علاقة له بالعوامل المناخية، فهناك حقائق بسيطة يمكن ملاحظتها، وهى وجود شعوب جلودها فاتحة نسبيًا فى المناطق الحارة مثل الهنود الحمر، كما أنه توجد شعوب سوداء نسبيًا فى المناطق المتجمدة الشمالية مثل هذه التى يقول عنها بودان [1]، إنها اسمرّت من البرد

(١) بودان (٣٦) ص ٤٦٥.

القارس مثل «اللاب والإسكيمو» وهناك حالات من الصعب فيها أن نحدد اللون. فهل الفولا والأحباش من البيض أو من السود، هنا يسرعون إلى ملاحظة إميل جوتييه (Emile gautier) وهى أن المشكلة بدت صعبة فى جميع الأوقات [1] بشكل ملحوظ، وجعل أن الإغريق القدماء من الرومان، بل والعرب فى الجزائر لم تكن لديهم كلمة فى لغاتهم تعنى «زنجى» فقد كان من الصعب لديهم أن يضعوا حداً فاصلاً بين الألوان العادية التى تتدرج فى سلسلة من مختلف الظلال.

ولكن عندما ينتهون من ذلك ويذهبون أبعد من ذلك إلى أن قبائل أمريكا الجنوبية الذين يقضون حياتهم فى ظلال الغابات أخذت لونًا من هؤلاء الذين يعيشون فى أرض غير ذات ظل دائمًا، وأن قبائل إفريقيا المدارية الذين يعيشون فى ساحل الكاميرون أدكن لونًا من الذين يعيشون فى الجبال ذات الغابات[2]. فهل سيكون من نصيب الجغرافيين كجغرافيين أن يقولوا إن المناخ، وخصوصًا درجة الحرارة يبدو أنها ذات أثر ضئيل وغير ثابت فى لون البشرة؟ هل سيكون من نصيبهم أن يدرسوا توزيع الصبغة اللونية وأن يربطوا بين الأجزاء الفاتحة فى جسم الإنسان وبين درجة الضوء التى تتعرّض لها؟ هل سيكون من عملهم أن يميطوا اللثام عن الأسباب العامة التى تجعل الشعر فاتحًا أو غامقًا عند مختلف السلالات. أو التى تفسر الاختلاف فى طول القامة، ودرجة النمو والاختلاف فى عرض الجسم فى المناطق الحارة، وانتشارها فى المناطق الباردة.

وماذا عن مشكلات السلالات البشرية بأجمعها؟ ليس فقط أصلها بل مميزاتها المختلفة، وتلك المجموعة من الحقائق التى عددها زمرمان (Zimmerman) منذ وقت مضى فى مقاله الناقد لكتاب برين (Bruhnes) [3].

لا شك أنه لا يسع الجغرافيا، كما يقول زمرمان، إلا الاهتمام بهذه الحقائق، ما دامت تتضمن اعتبارات التوزيع والتحديد فى المكان وهى بلا ريب جغرافية - حيث إنه لا توجد فى الوقت الحاضر سلالات مبعثرة بل يبدو أنها

---

(١) جوتييه (١٨٤) ص (١٣١، ١٣٢).

(٢) سمبل (٩٠) فصل ٢ وما بعده.

(٣) (١١) جزء ١٩، ١٩١٠، ص ١٠٩.

جميعًا ترتبط بأقطار خاصة تكون مناطق أكثر ملاءمة لنموها وانتشارها، فشمال الدائرة الأرضية الأربعين تفتك الأمراض الصدرية بالزنوج، تلك حقيقة، كما أنه من الحق أن يُقال إن من اعتاد الحياة بين درجة حرارة ٥° وبين درجة حرارة؛ ١٧م يجد من الصعب أن يحيا فى درجة حرارة ٢٥° م، وتتابع الحرارة والرطوبة يؤثر فى الدماغ، والكبد والعكس وهذا ينتج ضعفًا عامًا ولا سيما عند مَن اعتاد شرب الخمر، تكون النتيجة لذلك ارتفاع نسبة الوفيات إلى جانب نقص الإنتاج. ولكن إذا استطاعت الجغرافيا أن تساعد فى حل المشكلة. وإذا أوضحت أن إحدى الحقائق المهمة هى الأولى، فهل نستطيع أن نجد الحل؟ لا بالتأكيد ويعترف بذلك المؤلف الذى نقتبس منه؛ مثلاً عندما يكتب عن الصحراء. وعما يبدو مفتاح الاستجابات المختلفة التى يبديها سكان الصحراء لأحوال بيئتهم المناخية «وهو وراثتهم الفسيولوجية وتركيب جنسهم الجسمانى وهنا، كما يقول: مشكلة خاصة بالجغرافيا الطبية.

هذا صحيح. وهناك مشاكل عديدة من هذا القبيل، فكلما ازددنا معرفة بالبشر وبالعالم، كلما ازداد عدد المشاكل التى تتطلب حلاً. لقد بذلت محاولات عديدة من وقت طويل لكى تتشر توزيع الميلانيزيين فى البحار الجنوبية بوجود التيارات البحرية [1]، وهل كان هناك عامل آخر تدخّل فى موضوع اختلاف مقاومة الشقر والسود للملاريا. فأسوأ الظروف لم تمنع البولونيزيين من استثمار بعض الجزر الخالية من هذا الوباء، ولكن الجزر الغنية بثروتها النباتية اجتذبت الميلانيزيين، الذين كانوا أكثر تحمُّلاً وأقدر على ملاءمة أنفسهم لأخطر أنواع المناخ وأكثر قابلية على اكتساب مناعة ملحوظة من الحميات الخطرة مع الزمن: هذه مشكلة أخرى للجغرافيا الطبية.

وهل هناك مشكلة أكثر أهمية للجغرافى من تلك [2]، التى ثار غبارها فى السنوات الأخيرة عما إذا كانت هناك سلالة أمريكية تتكون ببطء من الناحية

---

(١) عن هذه النقطة وحدها اقرا كاترفاج (Quatrefages)، (٢٠٩) وقارن (Tilenius) فى مجلة الأنثروبولوجيا ـ فينا، جزء ٣٦، ١٩٠٦ ص ١٢٢.

(٢) عرض نظرية بؤاس فى عدد ديسمبر سنة ١٩١٣ Rev. generale de Sciences.

الأنثروبولوجية، وتحت مؤثرات يمكن إرجاعها دون شك إلى تربة أمريكا ومناخها؟

نحن نعرف النتائج الباهرة التى وصلت إليها لجنة التحقيق التى شكّلها مجلس النواب الأمريكى لهذا الغرض، تحت رئاسة أنثروبولوجى معروف، هو الأستاذ بؤاس (Boas) وكيف تتحد العناصر المهاجرة المختلفة فى طراز واحد حتى شكل الرأس، طويلاً كان أو عريضًا، تغيّر وسار نحو متوسط متساوٍ فى الجميع. وهذا يرجع إذا صدقنا اللجنة على الأقل - إلى أثر البيئة، والمناخ والضوء والطعام. ولكن ليست هذه مشكلة للجغرافيين، إذ ليس الجغرافيون بقادرين على حلها.

وإذا أخذنا مثالاً آخر يختلف عن المثال السابق، نجد أن ليس لهم أن يدخلوا فى مشكلة أقلمة الأوربيين من أقطار معتدلة، مثل الهولنديين، فى مستعمرات مدارية مثل جزر الهند الشرقية [1]. فهل يبدو عليهم تغير جسمانى إذا قورنوا بمواطنيهم الذين لم يغادروا هولندا؟ وهل هذه التغيرات مهمة أم أنها قاصرة على بعض الأمور الثانوية - مثل ليونة فى الأنسجة ومرونة فى الأطراف بحيث تجعلهم يستطيعون الانحناء كما يستطيعه أهل الشرق الأقصى، يبدو على هذه الأسئلة البساطة التامة، وأنها نظريًا سهلة الحل. ولكنها فى الواقع أثارت كثيرًا من الجدل.

على كلٍّ، يجب ألا نقصر أنفسنا على المؤثرات المناخية فقط. ونهمل أثر التربة، وتلك فرصة سانحة تنقذنا من تكرار كثير. هل صحيح أن الأجزاء العظمية فى الحيوانات مفرطة فى النمو فى البلاد الجيرية؟ بينما هى غير نامية فى البلاد التى ينقصها الجير؟

هذا اعتقاد قديم لا يزال مستمرًا حتى الآن، هل السير على الأرض المستوية كان له أثر كبير ملحوظ فى الصفات الجسمية التى لوحظت فى الفلاتورز بين الماشية والخيل، بل والإنسان مثلاً الإفراط فى نمو الحوض واستعراض الأرداف وكبر البطن واستعراض القدم وانتشارها واستدارتها؟ لقد قال البعض فى هذا

---

(١) قارن أبحاث (Kohlbrugge) فى مجلة الأنثروبولوجيا (الفرنسية) (١٦) ١٩١١، ص ٢٠٥.

أمر لاحظه وأكده باروه وسـرجنت (Baroux & L. Sergeant)[1]. وإلى هذا القبيل أيضًا نرجع ما يسمى بنظرة الفلمنك العالية «أليست تلك طريقة طبيعية لأهل السهول فى السير، بحيث يستطيعون أن يكتشفوا أكبر مساحة من الأفق دون أن تعوقهم تضاريس السطح كما تعوق أهل الجبال».

بنفس الطريقة ننتقل إلى بيئات أخرى فهل لا يوجد مكان لدراسة التغيرات الجسمانية التى تحدثها الحياة على ظهور السفن بين مَن تجبرهم بيئتهم على قضاء حياتهم فوق سطح الماء مثل ضعف الساق العصبى وقوة الذراع التى تلاحظ بين سكان باروتس لاند (Barotse land) والزمبيزى وبين أهل بتيراولفويجو الأصليين وجزر الوشيان[٢]، بل وبين الفلمنك[٣]، حيث نجد بروزا فى لوح الكتف الأيمن وانثناء فى الجلد فى الردف نتيجة لما يقومون به من تسيير القوارب الصغيرة فى القنوات والأنهار، وأخيرًا فهل مجرّد العزلة أو الحياة الجزرية هما المسئولان عن صغر حجم خيول أيسلنده وشتلنده وقورسيقا وسردينيا، ثم اضمحلال حجم الخيل التى جلبت إلى فوكلنده سنة ١٧٦٤[٤]؟ وهل عزلة القرون والبُعد عن الاختلاط والتزاوج والاتصال بتيار الحضارات الكبرى مسئولة عن نظرة البريطانى (Bretons) الخاصة إلى الحياة وصفاتهم الجنسية المميزة التى تمتاز بها البجودان (Bigoudens) فى (Pont l'Abbé) مثل الوجه المستوى المسطّح والقامة القصيرة والسحنة السمراء[٥]؟ إن علينا أن نعتبر هؤلاء سلالة أجناس غريبة - أورالية أطلسية استوطنت تلك الأطراف من القارة نتيجة هجرات قديمة جدًا[٦].

هذه بعض المسائل ذات أهمية خاصة للجغرافيين أخذت على سبيل المثال ولكنها لا تدخل فى نطاق بحثهم. وربما ساعدوا فى عرضها عرضًا صحيحًا

(١) مس سمبل فصل ٢ من (٢٩٠) ص ٣٣، ٣٤، ٣٥ بصفة خاصة.
(٢) باريس، ١٩٠٦.
(٣) مس سمبل (٩٠) فصل ٢، ص ٣٥.
(٤) بارو وسرجنت، ذكر من قبل.
(٥) سمبل، ذكر من قبل.
(٦) فالو (٢٢١) ص ٦٣، ٦٤.

ولكنه غير مؤهل أن يعرضوها بأنفسهم، عليهم أن ينتظروا حتى تحل بواسطة غيرهم وليس بواسطتهم.

إننا نصرّ على هذه النقطة ولنا فى ذلك حجة. فلقد كان من خطر النظريات العلمية عادة كما قد لاحظنا من قبل أن يقتنصها رجال الآداب فى نفس اللحظة التى تفقد فيها قيمتها وتصبح عديمة الجدوى، ففى نفس اللحظة التى طلق فيها رجال التاريخ الطبيعى نظرية الأقلمة القديمة لا يحق للجغرافيين أن يتمسكوا بها فى عناد وإصرار. ويكفى أن نقول كلمة عن هذا الموضوع إذ إن لنا إليه عودة.

الأقلمة بمعنى الكلمة القديمة، أى فكرة اكتساب الكائن الحى مميزات خاصة ذات فوائد معيّنة وغير ذات فوائد معينة، وذلك عن طريق الفعل الآلى للبيئة. هذه الفكرة كانت ذات شأن فى نطاق العلم. وهذه الفكرة صحيحة بالنسبة للنبات، وغير صحيحة بالنسبة للحيوان. وقد هاجمها علماء الأحياء المشتغلون بالكيماء الطبيعية، وعارضها كونيو (cuénot) سنة ١٩١٢، بفكرة التهيئة السابقة فى كتابه الكبير عن أصل الأنواع الحيوانية.

ومما لا يقبل الجدل أن مشكلة المؤثرات الجغرافية قد أدخلها فى التاريخ خلال السنوات الأخيرة رجال شعروا برد فعل هذه النظريات الكبرى التى اقتسمتهم فيما بينها، ولا سيما الداروينية واللاماركية، فكان من نصيب لامارك أثر البيئة، ومن نصيب داروين التأقلم، «الملاءمة» وكان أثر هذه النظريات واضحًا مقصودًا ولم يكن خياليًا.

هل هذا الأثر مشروع؟ هل هناك قياس حقيقى بين المشاكل التى يعرضها علماء الأحياء والمشاكل التى استحوذت باهتمام الأنثروبولوجيين؟ هناك مقارنة وتقابل بين حياة الأفراد وحياة المجتمعات البشرية، ولكن أليس هذا التحليل أمرًا شفهيًا قاصرًا؟ وأكثر من ذلك ماذا لو كانت الملاءمة مجرّد تسمية، وأن البيئة مجرّد نظرية شكلية، وإذا كان علماء الأحياء قد بدءوا يهجرون وجهة نظرهم القديمة التى اصطبغت بالنهائية، وإذا كانوا قد بدءوا فى اعتماد نظريات أكثر تعقيدًا خاصة بطبيعة الفيزياء الكيميائية مثل نظريات لويب

(Loeb)[1] أبنا سنكتفى الآن بوضع المشكلة وسنبيّن العناء الذى سيلاقيه الجغرافيون إذا خاطروا فى مجال أجنبى عنهم، عناء دونه عناء، رجال الاجتماع أو المورفولوجيون الاجتماعيون عندما يخاطرون فى مجال الجغرافيا. كما أنها ستظهر لنا أثر المناخ على الصفات الجسمانية للإنسان، مثل طول القامة ولون البشرة وتفصيلات التشريح، مشكلات تبدو بسيطة نسبيًا ولكنها أبعد ما تكون عن اليقينية فى حلمها فما بالك بالمشاكل الأكثر تعقيدًا التى سنضطر إلى معالجتها؟

(١) على سبيل المثال: La Dynamique des Phénoménes de la vie (الطبعة الفرنسية - باريس ١٩٠٨) الدرسان السابع والثامن.

- ٣ -

المناخ، الصفات البشرية، وآثاره

وكما قيل إن هناك أثرًا مباشرًا للمناخ على طبيعة الإنسان الجسمانية فثمة أيضًا أثر له على طبيعته المعنوية ـ على خلقه. وهذه الفكرة ليست جديدة بل إنها أثارت انتباه الباحثين من أول الأمر أكثر مما أثارها أثر المناخ على الصفات الجسمانية، لأنها ذات صفة أدق ومجال جيد للتفكير والذكاء.

والواقع أن مجهود بودان الجبار لم يترك المميزات الفيزيولوجية، ويجب ألا يغيب عن أذهاننا غرضه وهو أنه كان يريد أن يبرهن على أن شكل الجمهورية ينبغي أن يتطابق مع صفات البشر المختلفة [١]، ومن هنا بدأ يعلم وسائل معرفة طبائع البشر، وكيف أن أهل الأقاليم المعتدلة المناخ على جانب أكبر من القوة من أهل الجنوب، وأقل مهارة فى الصناعة وأذكى عقلاً من أهل الشمال، وأمّا عن هؤلاء الأخيرين فيلاحظ عليهم قسوتهم الوحشية كالوحوش الضارية، بينما الأولون مثل الثعالب يصرفون كيدهم لشفاء ما فى صدورهم من غل وانتقام، أما عن الباقين فإنهم لا يعرفون أن روح الابتكار ثاوية لدى أهل الشمال، وأن معرفة الطبيعة والقوى الإلهية والمقدرة على فصل الغث من السمين، من نصيب أهل الجنوب، وأن صرامة الجد اللازمة عند مَن يتولى قيادة الناس من نصيب أهل البلاد المعتدلة[٢]. ولم يقف بودان عند هذا الحد بل إنه يذهب إلى حد القول: إن سحر البلاغة التى يتصف بها المفوّهون من الخطباء مثل المحامين والمؤرخين والشعراء وغيرهم، مَن يأسرون القلوب بسحر البلاغة «يكاد هؤلاء جميعًا أن يكونوا من المنطقة المعتدلة، إذ إن الجدل المنطقى أمر أهدأ من أن يصبر عليه

---

(١) بودان (٣٦) ص ٤٦١.

(٢) نفس المصدر ٤٦٧.

أجلاف الشمال [١]، وأخفى من أن يفهمه أهل الجنوب الذين يريدون أن يروا علامة من السماء أو معجزة إلهية لكى يقتنعوا» [٢].

تلك أوهام وخرافات، ولكنها مع ذلك ليست أشد ضلالاً مما كتبه الطبيب ديبو (Debos) الذى زعم، بعد بودان بوقت طويل، أنه قادر على حل مشكلة العبقرية باختيار أعضاء الجسم وصفات الدم على أساس أن الدم بالذات يعتمد على الهواء الذى يستنشقه الإنسان والذى تتغذى عليه المعدة [٣]، أما فونتيل (Fontelle) فكان أكثر علمية إذ كتب فى حذر ١٨٦٦، فى مطلع كتابه عن ملاحظات على القدامى والمحدثين [٤]، يقول إن الآراء الحية كالنباتات والأزهار تنمو نمواً حسنًا فى جميع أنواع المناخ ثم يضيف إلى ذلك قوله: «إن أنواع المناخ التى تربط جميع أنحاء العالم المادى بعضه بالبعض الآخر تجعل بعضه معتمداً على بعض، يجب أن يكون لاختلافاتها أثر فى العقول كذلك» يا لها من ملاحظة حذرة تعطى لها صبغة الفرض الذى لم يثبت بعد؟

نستطيع أن نعذر بودان وخلفاءه، ونستطيع أن نعذر مونتسكيه بعد الأب ديبو، فإذا بدت لنا فجاجة تفكيرهم فيجب أن نذكر أنها لم تبد لهم فجة كما تبدو لنا اليوم. وتدل على ذلك فقرة من الأدب ديبو، اقتبسها براونشفج فى مقاله الناقد دون تعليق [٥].

«لِمَ اختلفت الأمم بعضها عن بعض فى الشكل والقامة، وفى الرغبات والملكات العقلية، بالرغم من أنهم اتحدوا فى حد واحد؟» من هذا الفرض الذى لم يجرؤ أحد فى ذلك الوقت على مناقشته بدأ البحث فى المناخ. ومهما يكن من شىء، فإن الشىء الذى كان ينقص كل هؤلاء النظريين هو تحليل عناصر المشكلة.

ما معنى الشخصية؟ هل معناها حياة الأفراد السيكولوجية؟ إن بودان، بجرأته المعهودة، وجه همه إلى الملكات العقلية العقلية [٦] «ولما كانت لدى الفرد ثلاثة

(١) نفس المصدر ٤٨٠.   (٢) نفس المصدر ٤٧٨.   (٣) انظر المقدمة أعلاه.

(٤) Disgression sur les Anciens et les Modernes, 1742 t 11-126.

(٥) ٣٩ ص (٤٥) و(٣٨) ٢، ص ٢٦١.

(٦) بودان (٣٦) ١، ٥، ص ٤٨٠.

أجزاء رئيسية للروح، وهى الخيال، والحاسة العامة، والعقل، والملكات ثم بعد ذلك يستطرد فى استطالة ويفصل كل نوع من أنواع المناخ بما يمتاز به من حرارة وبرودة أو اعتدال وازدهار، ملكة من الملكات الرئيسية الثلاث. وعندما أعلن مونتسكيه من جانبه أن المناخ الحار ينتج حضارة ثابتة كان يتحدث [1] - كما يبدو - عن النشاط البشرى، لقد بدأ من الفكرة العامة وهى «أن صفات العقل ونزوات القلب تختلف اختلافًا كبيرًا فى أنواع المناخ المختلفة [2]»، أما بيكل (Buckle)، فقد قصر نفسه على نطاق الحساسية عندما أرجع نمو الخيال والخلافات فى الهند إلى أحوال المعيشة فى ذلك القطر. ولكنهم جميعًا يتفقون (ربما تابعهم بعض البيئيين فى الوقت الحاضر) على أنهم جميعًا ينقصهم تحديد المشكلة هل هم يعنون بالنفسية الفردية أو النفسية الجماعية.

يكفى أنه من الصعب تحديد الشخصية بالنسبة للأفراد، كما أن علم الشخصية (أثيولوجيا) لا يزال فى مهده [3]، فما بالنا بدراسة الأثيولوجيا الاجتماعية التى تحاول دراسة صفات جماعة تاريخية معينة يمكن تمييزها - فى الحاضر أو فى الماضى - ومنظمة تنظيمًا سياسيًا متصلة بالأرض ولها شخصية خاصة [4].

الشخصية الإنجليزية، الشخصية الفرنسية، الشخصية الألمانية. ألم تستعمل تلك التعابير الدارجة ويُساء استعمالها إلى حد كبير ولأغراض معيّنة، ألم يتصوّر الفرنسى المثالى، أو الأمريكى أو الألمانى - بل واللاتينى أو الأنجلوساكسونى، فى جميع العصور والأزمنة، بمساعدة علم يدعى أنه تاريخى، وألم ترسم صور عديدة لمثل هذه الشخصيات، قائمة على أساس جغرافى، مثل هذه المحاولات مضحكة وفى نفس الوقت ضارة، هل ثبت المثال الفرنسى منذ أيام قيصر

---

(١) مونتسكيه (٤٠) فصل ١٤، ٤.

(٢) نفس المصدر ١٤ - ١.

(٣) بير (٢٠) ٧٣، فيفر Apropos d'une étude de Psychologie historiques (١٨) جزء ٢٧ - ٣ - ١٩١٣.

(٤) بير (٢٠) (٨٠، ٨١).

(Vercingetorix)، هل ملاحظات شيشرون وقيصر على الغال لا تزال صادقة على الفرنسيين اليوم، وهل هذا الطراز قليل التأثر والتغير بحيث إنه يمكن أن تجمع خطوطه من وثائق سان لويس ولويس الرابع عشر وعصر الإرهاب وأخيرًا الجمهورية الثالثة حتى قبل الحرب العالمية، وبالرغم من أحداث التاريخ وما انتاب الشعب من كوارث ومحن وثورات، أن التضليل واضح بلا ريب ومن هنا تتسرب فى كتب التاريخ الآراء الخاطئة، نتيجة لاستعمال ألفاظ ينقصها التحديد إذ لم تحدد بعناية. ومن قبل ذلك تلك الفكرة عن البرجوازية فى العصر الحديث، وهى فكرة خاطئة من أساسها بشكل لم يعهده التاريخ الاجتماعى.

ولنعد إلى نطاق بحثنا الخاص، فمن لا يستطيع أن يدرك الوهم فى محاولة اعتبار ماضى شعب ما (كالنهر الذى يتجه تياره فى مجرى دائم واتجاه ثابت دائمًا [١])، وأكثر من هذا «حتى إنه إذا أمكن اكتشاف صفات شعب فلا بد لهذا الشعب أن يكون ذا شخصية [٢]»، أى ترابط عدد من الصفات الأخلاقية حتى يشترك فيها آلاف الرجال من هذا الشعب، وبشرط أن ينفرد هذا الشعب بتلك الصفات دون بقية الشعوب «هذه المشكلة كما يصورّها تصويرًا بديعًا الكاتب القوى بول لاكومب (Paul Lacombe) الذى يملك عنان تخمينات هبوليت تين (Hippolyte Taine) العديمة الجدوى. وعندما يضيف إلى ذلك قوله «من أين نستطيع أن نرسم تلك الشخصية؟ من ملاحظة الأفراد ـ ومن هؤلاء نطبق مشاهدتنا على شعب ـ وهو فى الواقع لا ذاتية له فإنه فى الواقع يبدو متشائمًا بالرغم من مسحة التفاؤل التى تسود كتابته. ألا يذهب إلى أصل المشكلة عندما يقول [٣] «إن الرجل الفرنسى لا يقترب من الحقيقة مما يفعل «الإنسان»، فهو مجرّد تجريد، كما نجرد ونقول الإنسان ... ثم يقتبس ملاحظة تين «إنى أرى أناسًا ولكن لا أرى الإنسان»، ويمكن أن يضاف إلى ذلك، إنى أرى كثيرًا من الفرنسيين ولكنى لا أرى الفرنسى، ومجهودنا أقل فى تجريد الفرنسى من محاولة تجريد الإنسان، وهذا المجهود فى الوقت نفسه أكثر فائدة وتحقيقًا للرجاء من تجريد الإنسان».

---

(١) لاكومب (٩٤) ص ١١.

(٢) نفس المصدر ص ١٠.

(٣) نفس المرجع، ص ٤١، وأيضًا ٤٧ ـ ٤٩.

ونستطيع أن نختتم ذلك بقولنا إن هذا العمل ينقصه التحليل، «تعلم الشخصية» «الأثيولوجيا»، لم يقم بعد، ولن يقوم إلى أمد بعيد «فما زلنا فى مرحلة التخمين ولذلك فمحاولة الحديث عن أثر البيئة الجغرافية، أو عن أثر المناخ على صفات الشعوب هو محاولة شرح المجهول».

هذا صحيح فقد يتفق معنا فى هذا، ولكن ريثما ننتظر تحليل شخصيات الشعوب، أو تحليل المعلومات المختلفة والحقائق التى تكوّن تلك الفكرة المعقدة المتغيرة عن الشخصية، أليست هناك صفات سهلة وبسيطة يمكن أن تلاحظ حقائق عارية عن الإحصائيات الأخلاقية أو إحصائيات الإجرام يمكن أن تكون دليلاً لا يقاوم على أثر المناخ فى نشاط الإنسان؟، ولكن إلى أين ستقودنا تلك الحقائق وكيف يمكن شرحها؟

هذا مثلاً دراسة عن إحصاءات الإجرام تتعلق بالجرائم الجنسية فى إيطاليا[1]: المؤلف سينيور فيكاى (Ficai) يثبت أن هذه الجرائم أكثر شيوعًا فى جنوب إيطاليا منها فى شمالها، فهناك زيادة ٩٠ ٪ فى جرائم الجنوب كلما اتجهنا من لمبارديا إلى صقلية وينتهى بعد ذلك إلى أن المناخ هو السبب؟ أليس من الواضح من الإحصائية، أن الجرائم الجنسية متعلقة بالمزاج؟

ولكن هل هذه النتيجة صحيحة؟ هل هناك حقًا أثر مناخى مباشر بسيط بديهى؟ ويلاحظ المؤلف أن فى إيطاليا، التى اختارها لدراسته، هناك علاقة مباشرة بين عدد الجرائم الجنسية والطاقة الفيزيولوجية للأفراد، كما تدل على ذلك نسبة المواليد، وهى فى نفس الوقت ذات علاقة مضطردة مباشرة مع زيادة عدد الجرائم ضد الأفراد. أما البرهان العكسى فقاطع، إذ إن عدد الجرائم الجنسية يضطرد اضطرادًا عكسيًا مع نسبة الأمراض والانحطاط الخلقى، بل إنه يوجد عدد أكبر فى المستشفيات من المرضى بأمراض سرية، وأمراض عقلية وذلك فى شمال إيطاليا منه فى جنوبها. ولكن هل الطاقة الفيزيولوجية ونسبة المواليد المرتفعة؛ وبالعكس الانحطاط الخلقى والأمراض العقلية تتوقف كلها على المناخ؟

(١) Scientia Positiva يناير ١٨٩٨ وأيضًا (١٧) جزء ٢ ـ ١٨٩٨ ص ٤٢٧.

يبدو أن الجرائم ضد الأخلاق، أى الجرائم ضد الأفراد تخضع لنفس القانون، هل هذا القانون داخل فى نطاق الجغرافيا بحيث نستطيع أن نتحدث عن قانون المناخ؟ وإذا كان صحيحًا أن جرائم الأخلاق أكثر شيوعًا حيث تقل نسبة الانتحار وحيث يقل التعليم العام، فهل نستطيع أن نقول إن الانتحار والجهل بدورهما نتائج مباشرة للمناخ؟

ولهذا يجب أن نشك فى الحلول البسيطة وفيما تدعى بالبراهين القوية التى لا يمكن أن تعارض. جنوب إيطاليا، جرائم جنسية! ثم يقول فيكاى: إنه المناخ! ولكن فى نفس العام يرد (Nico Foro) قائلاً: إنه الجنس والعوامل الاقتصادية (١). وهذه نتيجة أتت من نفس الإحصاءات بالرغم من أنها كانت مجملة عامة فى إحداهما، مفصلة فى الأخرى فمن بين ١٠٠٠٠ سردينى مثل ١٧٨ شخصًا بين يدى المحاكم الجنائية، ومن بين ١٠٠٠٠ صقلى مثل ١٠٠، ٩٧ شخصًا ومن بين ١٦٠٠٠ كالابرى و٤٨ فقط من بين ١٠٠٠٠ لومبارديا. أما السبب فى رأيه فكان جنس البحر المتوسط، العنيف العصبى المزاج الميال للبطش بالإنسان، يُضاف إلى هذا النظام الرأسمالى نظام اللاتيفنديا الإقطاعيات واستغلال الفلاحين سردينيا وصقلية... كما لو كان معنى الجنس البحر المتوسط سوى مجرّد فكرة، وكما لو كان معنى جنس البحر المتوسط مزاجًا عصبيًا عنيفًا، وكما لو كانت تلك الصفة لاصقة بالضرورة بكل الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الجنس، لا داعى إذًا للبحث عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية العامة التى يعيش فى ظلها الأفراد؟ وأخيرًا كما لو كانت الرأسمالية، التى لا تتمثل هنا فى صفاتها المميزة جميعًا التى قد تؤدى إلى تركيز السكان من الطبقة العاملة فى المدن وإلى ارتباط هؤلاء السكان بظروف الحياة التى يضطرون إليها، كما لو كانت كل هذه التفسيرات لا تفسّر شيئًا فى الواقع.

المناخ، الجنس، الرأسمالية. لِمَ لا يقال «المدنية» بكل بساطة. فعندما نجد نسبة الإجرام مرتفعة فى إسبانيا فى الوقت الحاضر باستثناء قطالونيا، وسردينيا وصقلية إلى حد ما وكورسيكا، والولايات الرومانية ونابولى. لِمَ لا نقول

(١) نحن نتبع هنا المناقشة الحسنة الموجودة فى الحولية الاجتماعية (١٧) جزء ١١، ١٨٩٨، ص ٤١٤ وما بعدها.

إن هذه الأقطار جميعًا من نهاية القرون الوسطى حتى آخر ثورات القرن التاسع عشر كانت تعانى نفس المؤثر الذهنى والكبت ورد الفعل السياسى والقضائى وما إلى ذلك مما لا نحتاج لتفصيله، بدلاً من أن نرجع هذه الأمراض إلى أمر غامض كالمناخ، ودون أن نخلق خرافة جنس البحر المتوسط العصبى المزاج؟

إن هناك عددًا من الجغرافيين يشعرون بتلك الصعوبات فى قرارة نفوسهم ولكنهم يكتفون بنقل تلك المؤثرات وترديدها هربًا من الوقوع فى مصاعب أخرى، ولكنهم لا يتحدثون عن أثر مناخى بسيط مباشر، بل يتحدثون عن «أسلوب الحياة» الذى يشمل المناخ فيما يشمل ولكن ما الغاية القصوى لكل هذا؟ هل تنتهى إلى تقسيم العالم إلى أقاليم حارة، وأخرى باردة كما فعلت مس سيمبل؟

البلاد الحارة ـ فلاحو الأندلس المبتسمون الذين يعيشون حياة راضية، من هنا عدم الاهتمام، من هنا المرح، ومن هنا الحياة العاطفية المشبوبة الخيال ـ وهذا يطبق على جنس البحر المتوسط بأجمعه وعلى الزنوج. وفى نفس الوقت نجد الميل نحو الإسراف والتبذير، والأمور المهيئة للحياة السهلة بأجر منخفض، ومن هنا كانت الأجور المنخفضة، الدهماء المستغلة، وانخفاض المستوى.

البلاد الباردة ـ فلاح أستورياس (Asturias) الجلف ـ تظهر عليه آثار عدم الراحة، ومن هنا كان بعد النظر ـ ومن هنا الجد، ومن هنا الخلق المتين الذى يحسب حساب العواقب، وتلك صفات الأوربيين الشماليين. وفى نفس الوقت ميل نحو الاقتصاد والاعتدال والانعكاف فى المنازل والقناعة بمباهج متواضعة، ثم الأجور المرتفعة، التى يصرف منها العامل الحذر فى حكمة، ثم سلم الرأسمالية.

ثم تدعم تلك الصورة بمقارنة جد الصينى الشمالى بمرح الصينى الجنوبى. مرح الأوكرانيين النسبى بجد الروس الشماليين، روح الجنوبيين المتساهلة بحزم ساكسون البلطى ونشاطهم، بل إن الجنوبيين كاليهود يتصوّرون الجحيم ملتهبة النيران، بينما الشماليون مثل الإسكيمو [١]. يتصوّرونها منطقة متجمّدة، ويجب أن نعترف أن كل هذه اللباقة لا تتقدم بنا كثيرًا، فهى ترديد لبودان بعد أن روجع وصحح وزيد عليه، ولكنها لا شىء سوى بودان [٢].

(١) سمبل (٩٠) فصل ٢، ١٧.

(٢) بودان (٣٦) ٥٠١، ١، ص ٤٨٦.

وبالرغم من هذا فمن المفيد البحث فى تلك الشخصية.

ولكن ما هذا الذى نسميه مناخًا؟ لا ينبغى أن يُقال إن البحث عن المناخ قد تقدم الآن، وأنه يسير قدمًا إلى الأمام بإضافة عدد من الكتب عن المناخ أو عن الظواهر الجوية، بل المهم هنا هو تحليل مفصل لأنواع المناخ من حيث علاقتها بالإنسان. ولكن مَن يجرؤ على هذا التحليل فى الوقت الحاضر؟

هناك فرق محسوس بين المعنى العلمى والمعنى الشائع لكلمة المناخ. تلك حقيقة عبّر عنها راؤول بلانشارد فى كتابه عن الفلاندرز (1). مناخ هذا الإقليم لا يتمتع بشهرة طيبة فالغرباء الذين يفدون إليه لا يفتأون يتحدثون عن الملل الذى يصيبهم به هواء الفلاندرز، إلا أن دراسة المتوسطات المناخية تدل على أن المناخ الفلمنكى مرض فى مجموعه «هذا عرض للمشكلة، ومن الملاحظ أنها عن إقليم لا يمتاز بتفاوت كبير فى المدى الحرارى، أو تفاوت فى كمية الأمطار الساقطة، إقليم معتدل فى جميع الوجوه».

لا شك أن محاولات عديدة بذلت فعلاً إن لم يكن لحل المشكلة، فعلى الأقل لعرضها عرضًا صحيحًا، ولكن كم يبقى حتى تستوفى المسألة بحثًا؟ ربما فضلت عوامل المناخ على التقويم الإحصائى. ولكن تقابل تلك العوامل وتفاعلها وتلاقيها وافتراقها وتأخرها وترتيبها الزمنى، واتحادها واختلافها، كل هذه العوامل التى تكوّن مجموعها أنواع المناخ، والتى تعطى للمناخ صفاته المميزة، وأثره على الحياة وأهميته وقيمته للإنسان - هذه أبعد ما تكون عن أن تقوم إحصائيًا. ولا نزال محتاجين لتقسيم أنواع المناخ بصفة عامة - تقسيم المناخ وعلاقته بالإنسان تقسيمًا أكمل وأضبط وأوفى بالغرض من تقسيم كوبن (Koppen) فتقسيمه على أية حال مؤسس على الحياة النباتية وهى حياة تستطيع أن تعبر بوضوح تام، إذا حسن اختيارها عن الآثار المتجمعة للظواهر المناخية المختلفة، وإذا تركنا جانبًا دراسة المميزات الكاملة لأنواع المناخ (2) المختلفة فكم من المسائل تحتاج إلى حل فى دراسة كل إقليم؟ دع عنك قيمتها وأهميتها للإنسان. وهو أمر دقيق. آثار العناصر المختلفة التى تكوّن أى مناخ من النواحى الميكانيكية والفيزيولوجية والنفسية.

---

(1) بلانشارد (١٧)، ص ١٤.

(2) برون (٦٦)، ص ٢٠٥.

ودراسة المناخ من حيث علاقته بالنبات، هذا العنصر الحيوى الذى يمتاز بالثبات نسبيًا لا يزال فى طفولته، فنحن لم نبدأ إلا حديثًا فى ملاحظة توزيعه، لا فى جميع الإحصاءات عنه فحسب ولا نزال محتاجين لجهود مثل هذا فيما يختص بعلاقة المناخ بالإنسان، ولكن هذا سيكون أطول[1] وأشق وأكثر تعقيدًا بدرجة كبيرة [2].

ملخص ذلك: أن الآراء الوحيدة التى اجتذبت انتباه الباحثين وكانت مهتمة بدراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة اقتصرت على حقائق الأنثروبولوجيا - الطب والمناخ والأيثولوجيا. أما ما يبدو لنا أساسيًا فهو إما أهمل وإما أصابه التجاهل.

---

(١) قارن هذا بأقاليم هربرتشون The Natural Regions of The world (Geog. Teacher, III, 1905)

(٢) لم نستطع أن ندخل فى هذه المناقشة رأى هنتنجتون إذ وصلنا متأخرًا Climate and Civilization (٧٣).

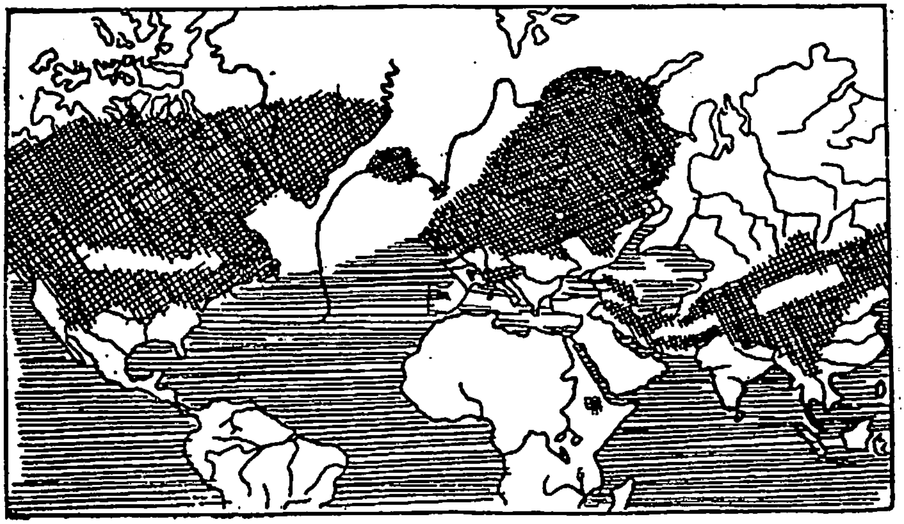
- ٤ -

المناخ يؤثر عن طريق المملكة النباتية

لا ريب فى أن المناخ يؤثر على الإنسان ولكنه تأثير غير محسوس، كما أنه لا يدخل فى نطاق الجغرافيا التى تهتم بالمناخ من حيث علاقته بالبيئة الطبيعية فحسب. أو بعبارة أخرى لا بد من معرفة أثر المناخ على البيئة الطبيعية التى يعيش فيها الإنسان قبل أن نستطيع فهم أثر المناخ على الإنسان.

هذا الأثر ينصب أولاً على شكل الأرض وتضاريسها. فأقوى عوامل النحت وأبعدها أثرًا وأكثرها دوامًا واستمرارًا وهى المياه الجارية والثلاجات والرياح - كلها ترجع إلى المناخ بشكل أو بآخر - أما العاملان اللذان لا يتعلقان بالمناخ فهما البحر والنار، هذا العامل المناخى يزداد قوة إذا علمنا أنه لا يقتصر على وقت معين. فمن يرد أن يعرف كل ما يتعلق باتخاذ إقليم ما شكله الحالى، عليه أن يدرس الدور الذى لعبه المناخ ليس فى الحاضر فقط بل فى الماضى أيضًا. وهل نحتاج إلى الأعمال العلمية الكبرى التى تابع بها العلماء دراسة تقدم الجليد، أو تتابع تقدمه فى العصر الرباعى فى أوربا وآسيا وأمريكا فى نفس الوقت؟ ألم تكن «المشكلة السببية» فقط هى التى أثارت انتباه العلماء، وإمكان إيجاد علاقة بين انتشار الجليد فى أحد عصوره وظهور الأرض التى كانت تربط بين أوربا وأمريكا الشمالية وارتفاع درجة الحرارة فى المحيط المتجمد[1]، ولكنها أيضًا مشكلة الآثار المترتبة لأن التتابع لا يقل أهمية فى هذه الدراسة.

(١) نظرية (٢٤) (Krischtafowitch (Bull, Soc. belge Geolog ١٩١٠، ص (٢٩٢-٣٠٥).



شكل رقم (١) أقصى امتداد للجليد فى عصر البلايستوسين
(عن دى مورجان)

إنها ليست الآثار المترتبة المحلية فقط، وهى تشكيل السطح فى المكان مثلاً، موقع شيكاغو، وبحيرة جاردا، أو موقع سيون فى ثاليه وغيرها من الأمثلة التقليدية والتى يمكن أن تملأ بها صفحات عدة كثيرة. ولكن الا تزال ظروف الحياة فى أقطار مثل كندا [١] وفنلندة والهضبة البلطية متأثرة تأثرًا كبيرًا بوجود شبكة من الأنهار مع عقبات طبوغرافية من أصل جليدى أخرى [٢]؟ أليس من المهم من ناحية أخرى لمن يرد أن يفهم توزيع المناطق الاقتصادية فى روسيا وغرب سيبيريا أن يعرف كيف يستطيع أن يكتشف أصولها فى جغرافية الحاضر [٣]؟ فإقليم تربه الشيرنوزم (السوداء) فى سهول جنوب روسيا كان قد تم جفافها فى الميوسين. وإقليم النباتات المستنقعات فى الوسط منطقة رواسب بلايستوسينيه. فالتندرا المتجمدة بطحالبها

(١) بوليج (١١) ١٩٠٨، ص ٤٤١.
(٢) رافينو (١١) ١٨٩٨، ص ٣٥٨.
(٣) هذا عن التعمير قبل التاريخى، أما عن تعمير روسيا التاريخى، انظر أدناه الباب الثالث فصل ١.

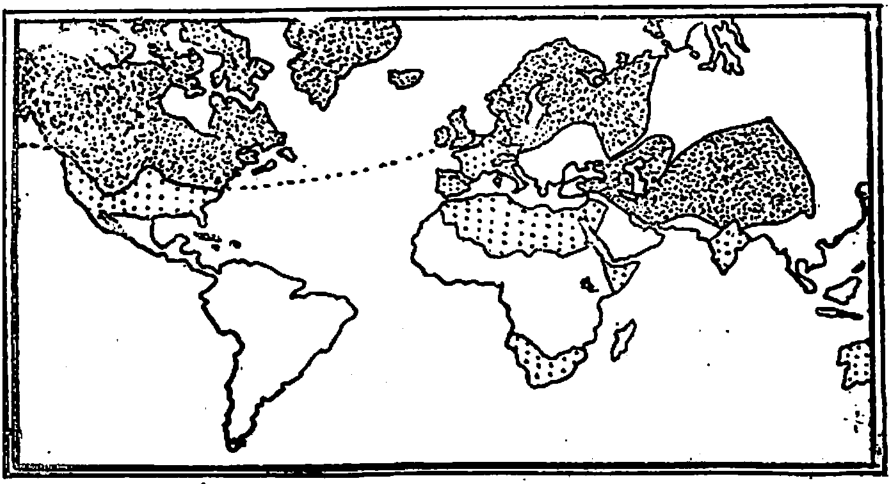
ومستنقعاتها اللبادية منطقة تكوينات جليدية. ولكن يجب أن تعرف أيضًا أن أهم أجزاء هذه المناطق عمر حديثًا نسبيًا ـ وهذا لأن الجليد لم يتقهقر عنها إلا حديثًا. ومن الظاهر أن الجزء الجنوبي فقط من السهول، إقليم التربة السوداء كان أول إقليم عمره الإنسان [١] ـ ١١٦ ـ ثم وسط روسيا، إقليم النباتات ولكن هذين في القرن العاشر قبل الميلاد. أما في الشمال فقد استمرت حضارة العصر الحجرى ويقى الرنة حتى عصر قريب من الزمن الميلادى [٢]، حتى في القرن الثامن عشر شاهد بالاس (Pallas) الوجول (woguls) يعيشون في كهوف، على الصيد والقنص، ويكسرون العظام لصنع نوع من الحساء وهذا مثال لاستمرار حياة تشبه حياة الإنسان الموستيرى حتى القرن الثامن عشر [٣].

ولكن لم نهتم بدراسة أقطار سحيقة؟ ألم يكن لانتشار الجليد الرباعى أثر في تطور الحياة في أقطار غرب أوربا؟ لقد بيّن فيدال دى لابلاش كيف أن الأقاليم المنخفضة المشمسة التى تمتد من الجارون [٤] حتى جنوب بريطانيا، أقدم الجهات تحرّرًا تمامًا من الثلاجات، كانت من أوائل الأقاليم التى بدأت فيها الإنسانية في الازدهار وأنه ليشاطر علماء قبل التاريخ آراءهم في قدم فرنسا وأنه يصف نفس الأقاليم لنفس الأسباب أنها كما يقول (Sophus Muller) أهم مركز للحضارات القديمة في أوروبا [٥]، ومن المهم بلا شك لمن يدرس أصول العمران البشرى أن يعرف أن «أوربا العصر الحجرى القديم لم تكن أوربا المعاصرة» ولكنها الأجزاء من أوربا فقط التى تحرّرت من الجليد [٦].

إذًا فالمناخ الذى يتحكّم في التعرية له أثر كبير في تشكيل سطح الأرض، وأن تشكيل سطح الأرض بدوره مهم جدًا في توجيه حياة الإنسان.

---

(١) زابور وسكى (١١) ٩٠١، ص ١٤٣.
(٢) دى مورجان (١٧٤)، ص ٤٢١.
(٣) فيدال (٢٣٢) ص ٢٩.
(٤) نفس المرجع، ص ٢٠ – ٢٩.
(٥) ١٧٤ ـ ص ٤.
(٦) نفس المرجع ٣.



شكل رقم (٢) امتداد الجليد وانتشار إحصاءات العصر الحجرى القديم
(عن دى مورجان)

وهنا يظهر لنا سؤال. فإذا كانت الأشكال التى تتخذها القشرة الأرضية مهمة للإنسان فهل هى بصفتها أشكالاً؟ لا بالتأكيد، أو إذا اعتبرت كذلك فإن أثرها ضئيل جداً على الجماعات البشرية، حتى من ناحية صلتها بمواقع المدن أو المحلات الصغيرة، إذ إننا هنا أيضاً تقابلنا مسائل الإضاءة والتخطيط والتعرض للأشعة وهذه متصلة بالمناخ كذلك. ولكن كيف نستطيع أن نفصل القشرة الأرضية، عن غطائها النباتى؟ كيف نستطيع أن نجرد الأشكال البسيطة حيث يلعب المناخ دوره فى تغطيتها بغطاء هو متنوع أشد التنوع وله أهمية كبيرة فى حياة الإنسان.

الحياة النباتية هى الوسيط الصحيح بين عالم الجماد والعالم العضوى. تستمد من الأول العناصر الكيميائية التى تحللها ثم تمتصها من التربة عن طريق الجذور وعن طريق أعضاء التنفس من الهواء الطلق حتى تستطيع أن تكون ما يسميه فيدال دى لابلاش مصنعًا حيًا للطعام، وعلى هذا بصفة خاصة، ويكاد يقتصر عليه، يتوقف استمرار بقاء أو فناء الحيوان فى قطر ما، سواء أكان آكلاً

للعشب أم لا. وهذا هو السبب الذى من أجله يمكن أن تسمى الجغرافيا النباتية الحلقة الوسطى بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا السياسية.

تهتم الجغرافية النباتية بالمناخ قبل أى شىء آخر، ليس فقط لأن الأيكولوجيا أى علم البيئة المحلية، الذى أسسه شمبر (Schimper) فى كتاب الجغرافيا النباتية (Pblanzengeograpie) تأسيسًا قويًا على الفيزيولوجيا، ليس فقط لأنها تهمل دراسة أى شىء بجانب المناخ، مثل أثر التربة، سواء كانت خصبة أم غير خصبة، درجة مساميتها للهواء والماء، وغناها فى المواد الكيمائية ونوع استجابتها للنباتات المختلفة مثل النباتات الغنية بالكلس Calcioles, calcifuges et les hlaophiles وليس فقط لأنها تهمل اعتبارات سطح الأرض، وأثر الحياة النباتية فى إقليم سهل أو إقليم جبلى، إقليم مشمس هنا وظليل هناك، فما هذه جميعًا كل آثار المناخ على صفات التربة وعواملها النباتية. أليس من المسلم بها أن التربة الواحدة، كما قد لاحظ بنك (Penck) فى البيئات الجغرافية المختلفة تختلف فى درجة تعرضها باختلاف المؤثرات المناخية، ألا تدل النباتات نفسها، للعين الخبيرة فى مظهرها الخارجى على الصفات الأساسية للمناخ - تأثير الحرارة والبرودة، الضوء أو الظلمة، الرياح التى تحمى النباتات أو تعجزها أو تميتها وفوق كل شىء الرطوبة أو الجفاف أثر يطول أمده أو يقصر، يشتد فعله أو يضعف.

الماء هو العامل الأساسى الذى يدخل فى أى فحص للنباتات، ماء يتبخر فى الهواء أو ماء يجرى فى التربة ويروى الجذور. ولم يكن اعتباطًا دون سبب أن يقترح بنك عام ١٩١٠، تقسيمًا للمناخ قائمًا على تأثير الماء على التربة، مثل المناخ الجليدى الرطب والمناخ الجاف بالتقسيم القديم للمناخ القائم على الحرارة. فهناك فى الواقع سيماء كاملة للنبات قائمة على علم وظائف الأعضاء، أوراق النباتات الخضراء العريضة المنتشرة معرضة للبخر، وأوراق الأشجار الصلبة الجافة الباهتة التى تتحوّل أحيانًا إلى أشواك، عوامل امتصاص دائم واقتصاد دائم على النتح، وقد دلّت على ذلك التجربة التى تؤيدها الملاحظة.

نحن نعلم كيف أن النباتات المعتدلة النوع إذا انتقلت إلى جبل بارد تغيّر مظهرها بسرعة تلتصق بالأرض وتجف، وتتقوى ضد البرد - باختصار تكتسب

صفات النباتات النفضية وتتحوّل إلى نبات نصف سنوى، ثم إلى نبات سنوى، وهذه تجارب جاستون بونيه (Gaston Bounier) لا تترك مجالاً للشك فى هذا الموضوع (١). وبالمثل تتحوّل إلى نباتات فى المناطق المعتدلة إذا انتقلت إلى منطقة حارة، تحت عوامل أيكولوجية مختلفة إلى شجرة مورقة فالنبات الصينى (Sencio Vulgarise) الذى ينمو على حواف الطرق فى فرنسا يتحوّل إلى نبات شاهق الارتفاع (Seneciojohustoni) فى إفريقيا ... تلك الأمثلة تقليدية لأثر المناخ فى العالم النباتى - ولا نضيف إلى ذلك أن هذا دليل قاطع على صحة نظرية الملاءمة (٢).

ولكن هل هذا ينطبق أيضًا على عالم الحيوان؟ لا شك أن هذا صحيح فالأوراق العريضة أو المنخفضة، الأفقية أو العمودية، مثل أشجار البلوط، الفروع المرتفعة أو المنخفضة أو الزاحفة، الأنسجة السميكة أو الإسفنجية أو الرفيعة، فتلك آثار عديدة على النباتات، وجلد الدب القطبى الأبيض وحيوان الصحراء الرمادى النحيف، صوف الغنم الصحراوى الدقيق الناعم، الريش الكث المتراكم على الطير القطبى، تلك آثار أخرى عديدة للمناخ. ولكن أثر المملكة النباتية أعمق وأبعد أثرًا فى المملكة الحيوانية.

وقد لوحظ أمر معيّن منذ وقت طويل. فليس حيوان الرنّة على حافة الدائرة القطبية الذى يقيم نبات العشب الضئيل فى الشمال، بل الطحلب الذى يكون غذاءً شحيحًا للرنة. وليست اعتبارات الطعام وحدها هى التى تعنينا، وقد بيّن هاهن (Hahn) فى دراسته الجيدة للحيوانات المستأنسة وعلاقتها بالاقتصاد البشرى (٣)، دراسة اتسمت بالسمة الجغرافية، وقد بيّن الصلة الوثيقة بين الحيوان الذى يدرسه مع الزراعة وبين وسائل استثمار التربة وبأشكال التنظيم الاقتصادى المختلفة. أمّا الحيوان الوحش القافز، الزاحف، أو المتسلّق. ذو الظفر أو المخلب، والمخلوقات ذات القدم المسطحة التى تعيش فى الستبس، الحيوان

---

(١) بونيير عالم النبات، باريس ١٩٠٧، ص ٣٣٥ وما بعدها.

(٢) قسطنطين ١٠٤، ص ١٩٤ وما بعدها.

(٣) انظر مجموعة كوينو cuénot، ٥٢ ومناقشته.

النحيف القوى السيقان. أليست جميعًا متلائمة لأنواع معيّنة من النبات ولمناطق نباتية معيّنة؟ وهنا أيضًا أثر المناخ على الحيوان، عن طريق المملكة النباتية.

وبنفس الطريقة، إنه النبات أيضًا الذى يلعب الدور الأساسى فى حياة الإنسان، سواء كان آكلاً النبات أم اللحم. إنها تمدهم مباشرة أو عن طريق غير مباشر بالطعام. ولكنها تمدهم غالبًا بمواد نافعة للبناء. نافعة للأدوات والملابس وهل يحتاج إلى شرح هذا؟ إنها بكل بساطة تؤيد ما قلناه ـ إن فعل المناخ على الإنسان يأتى عن طريق غير مباشر ولكنه بالرغم من ذلك أثر مهم مستمر.

والنتيجة لذلك كله بسيطة ـ أن الحدود الطبيعية التى نبحث فيها لا ترسم إلا طبقًا للمناخ كوسيلة تضبط توزيع النبات.

وهكذا استوثقنا من المبدأ. لا يمكن أن يكون الإطار إلا مناخيًا نباتيًا.

الفصل الثانى

تحديد الأقاليم الطبيعية

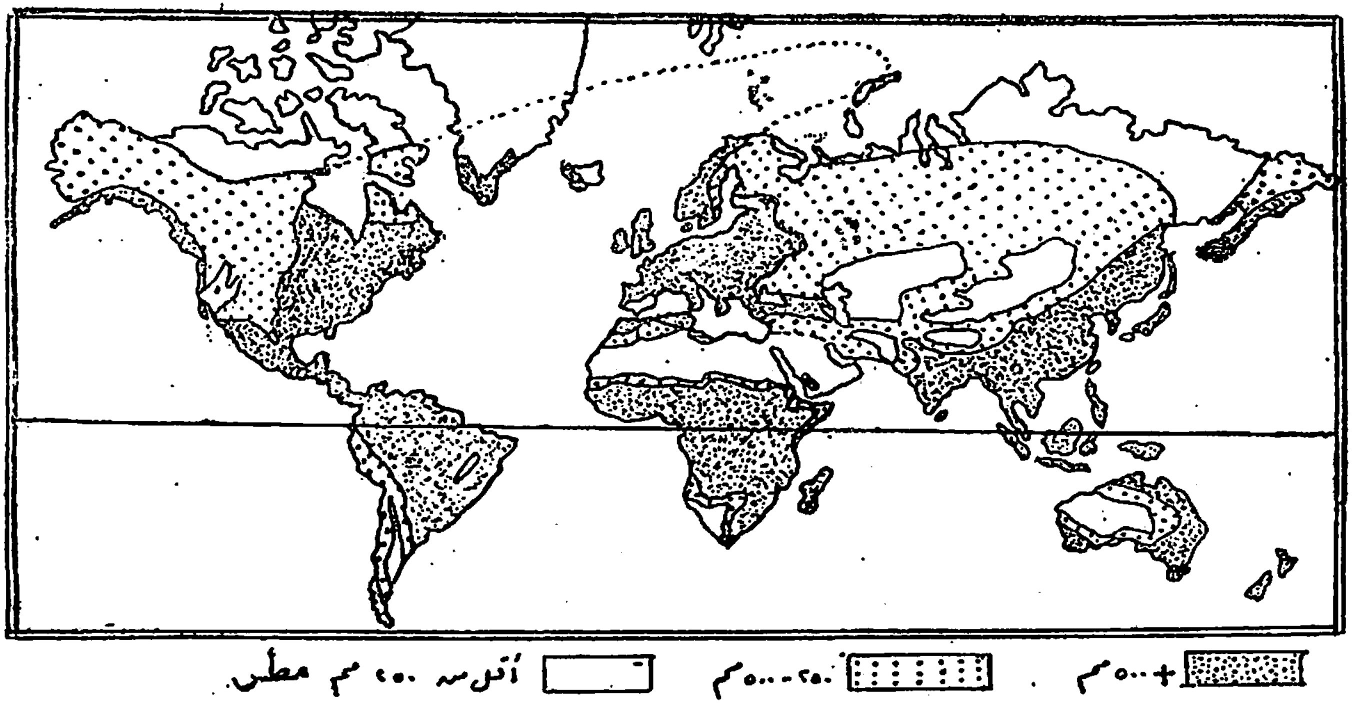
- ١ -

تعقد فكرة المناخ

قد استعملنا فى الفصل السابق عبارة الإطار المناخى النباتى. ليس مناخيًا فقط ولا نباتيًا فقط. ولكن إطار مناخى نباتى معًا. وأن مَن يقارن ثلاث خرائط للهند تبيّن سقوط الأمطار والنبات وكثافة السكان ليجد العلاقة قوية بارزة بين هذه الخرائط الثلاث. فبعض الجهات غزيرة الأمطار ويترتب على ذلك غنى الحياة النباتية، وكثرة السكان وجهات أخرى نادرة الأمطار فقيرة النبات قليلة السكان، أمور يترتب بعضها على البعض الآخر.

تلك خرائط ثلاث. ليست مفرطة فى التبسيط. ولكنها أنشئت على معلومات وثيقة مختارة منتقاة. يفسّر بعضها بعضًا حتى فى التفاصيل. فإذا كانت الخريطة النباتية تمكننا من أن نعرف لماذا يمتاز إقليم ريجور بالقطن والذرة بدلاً من الأرز فإن هذا الإقليم أقل سكانًا من إقليم الجانجز بالرغم من وفرة مياهه. فإنها لا تفسر لنا - بالرغم من ذلك - لماذا كان الساحل البرمى الذى تسقط عليه ٣ أمتار من الأمطار أقل سكانًا من السند الذى لا يسقط عليه أكثر من ٨٢ سم، أو لماذا كان إقليم ميسور الجبلى أقل سكانًا من ميدان فى الشرق «أ» على أن هذا لا يعنى أن مثل هذه الخريطة الصعبة الإنشاء والصعبة التفسير ضرورية لفهم أثر المناخ على الإنسان.

إننا نصّر على هذه النقطة لأن أى باحث يقارن بين خريطتى توزيع وكثافة السكان، سيجد الصلة قوية والتشابه واضحًا وبديهيًا دون نظر إلى الحلقة الوسطى. وربما قفز من ذلك إلى أن طرفى السلسلة متصلان، أى أن المناخ يتوقف على المطر. وربما أبعد بين الباحث وبين الحقيقة أو أصبح متعصبًا نحو الحتمية. ثم يرفع الخطر القديم رأسه مرة أخرى. الخطأ القديم وهو الاعتقاد فى أثر المناخ على الإنسان تأثيرًا مباشرًا سريعًا لا مندوحة فيه.



شكل (٢) توزيع الصحارى والمناطق الرطبة الحارة والرطبة الباردة

عن سوپان Saupan, Verteilung d. Mittl- Jàhr Regenmenge auf du Erdoberflache. (Hann, Lehrb. d. Metcorol. 3 me ed. 1915)

ولكن من الممكن الوصول إلى نتائج شاملة تركيبية عن العلاقات العامة (بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية) دون الوقوع فى الأوهام أو الأخطاء. ومثل الهند هذا من أبدع الأمثلة فى إظهار العلاقات بين تلك الظاهرات رغم أنه ليس المثل الوحيد. فهناك مثل أستراليا وخرائط أمطارها [١]، ونباتها وسكانها التى تبيّن العلاقة القوية بين هذه الظواهر المختلفة ولا سيما بين الأمطار والسكان، وهذه علاقة قوية ملاحظة فى جميع أنحاء العالم ولكن مثل هذه الاستنتاجات تحتاج لتحفظات خاصة.

قد كنا نتحدث عن الخرائط المناخية وليس المطر إلا عنصرًا واحدًا من عناصر المناخ. والآن ما مدلول خرائط الأمطار الحقيقى؟ إنها مجموعة خرائط متوسطات أمطار ومعناها أيضًا أنها تهمل جميع عوامل المناخ الأخرى سوى الأمطار كما هى. إنها خرائط جمالية قد تغفل عن التفاصيل. إلا أن مجموع الأمطار فى حد ذاته ليس أمرًا خطيرًا. لسبب مهم هو أن التساقط يختلف ما بين مطر وجليد وليس هذا بالأمر اليسير [٢]، وقد شارك ويكوف (woikof) إلى أهمية هذه النقطة فيما يختص بروسيا وسيبيريا. فالفلاح الروسى يحتال كى يحفظ الجليد فوق أرضه ولا تذروه الرياح ويلاحظ ويكوف أن الأرض فى جبال خمار ـ دابان شرق بايكال لا تتجمد باستمرار بينما تتعطل الطواحين فوقه خمسة أو ستة أشهر فى وديان وهضاب ترانسبايكال [٣]، والسبب فى ذلك أن الوديان والهضاب تتعرّض للشمس ويحدث البخر فى بحيرة بايكال ويتساقط على هيئة ثلج على المرتفعات ويبقى الجليد على الأرض ويحميها من الصقيع. وإلى الجنوب من ذلك ببعض درجات يتحول الثلج إلى مطر وتتعرّض الأرض للصقيع. ولكن بالرغم من ذلك فخريطة توزيع الأمطار لا تعطينا إلا مجرّد أرقام.

---

(١) انظر (١١٦) خريطتى ١١، ١٢، ص ٨٩ La Géog, Humaine, J. Bruhnes إذ يضع خريطتين من نفس مقياس الرسم (١ : ٩٠,٠٠٠,٠٠٠) إحداهما فوق الأخرى، الأولى للنباتات الطبيعية والثانية لتوزيع السكان لإظهار العلاقة بينهما ـ وقارن أيضًا خريطتى (١١٨ ـ ١١٩) فى Grauds emblenes, Climatiques و Zones de transitions

(٢) ريكوف (١١٨)، ص ١٩٦.

(٣) المرجع رقم (١٨٩).

ويجب أن يلاحظ أيضًا أن طول فصل المطر عامل مهم جدًا. كما أوضح باسيرا (Passerat) فى دراسته الكاملة للرياح الموسمية الآسيوية [1]، فإذا تساوى قطران فى كمية الأمطار الساقطة فإنه من المهم أن نعلم ما إذا كانت هذه الكمية تسقط فى أحد القطرين فى ثلاثة شهور أو موزعة بالتساوى على أشهر السنة. ففى الحالة الأولى سينمو نبات قصير العمر ولكنه غنى، ثم يتبعه جفاف يأتى على الحياة النباتية، أو على الأقل يوقفها. أمّا فى الحالة الثانية فينمو نبات منتظم يعيش أثناء العام كله. ولكن خرائط توزيع المطر لم توضح هذه الحقائق ولا تظهرنا على هذه الاختلافات. إذ إنها لا تبيّن إلا تشابهًا نظريًا مجرّدًا بين الإقليمين. تشابهًا رياضيًا بينما المسألة التى تدل عليها مسألة حيوية. ويوضح ذلك أبلغ إيضاح مثل باسيرا لـ/قنبات الشاى يزرع بنجاح فى جنوب الصين واليابان وانام وسيلان، وتلك هى أربعة أقطار تختلف فيها سقوط الأمطار اختلافًا واضحًا ولكنها من ناحية أخرى تتشابه فى أن المطر فيها موزع بانتظام على مدار السنة، فوجه الشبه أهم بكثير من وجه الاختلاف.

هذا عن طبيعة الإسقاط وطول فصله ولكن عامل الزمن أيضًا مهم جدًا [2]، وتكفى بعض الأمثلة القليلة من البلاد المنتجة للقمح مثل روسيا، ولعلها أفضل من غيرها من الأقطار الزراعية الكبرى لأن المحاصيل الفاشلة بها ترجع إلى الجفاف وحده تقريبًا، وهذا الجفاف لا يرجع إلى نقص فى مجموع كمية الأمطار الساقطة، ولكن إلى سوء توزيعه أى إلى نقص الرطوبة فى شهرى أغسطس وسبتمبر، وهذا يفسد البذور الشتوية فى شهرى أبريل ومايو وهذا يفسد البذور الربيعية [3]. كذلك الحال فى الهند التى تقع أقرب إلى حدود المنطقة الموسمية منها إلى وسطها، يتوقف كل شىء على نظام هبوب الموسميات المتغير عند بدء فصل هبوبها فى يونيه وعند انتهائه فى أواخر أكتوبر. ويتوقف ذلك أكثر ما يتوقف على تفاوت كمية المطر. أهم محصول وهو محصول

(١) باسيرا (١١) ١٩٠٦، ص ١٩٣ وما بعدها.
(٢) نفس المرجع ص ١١٢.
(٣) هينير (١١٦)، ص ٢٦٦.

الخريف، الذى تتغذى عليه تلك الملايين المتلاصقة، وكما قيل تتوقف حياتها على «خيط واه ضئيل»[١]، والحق أن الخطر يكمن فى ازدحام السكان فى كل من الهند وجنوب روسيا. كما أننا يجب ألا ننسى أن ندرج فى الأقطار شبه الصحراوية أو الصحراوية كل الأقطار التى لا يسقط عليها أكثر من ٢٠ بوصة مطر فى العام. وهذه تشمل ثلاثة أخماس مساحة اليابس. ولا نظن أنها أقطار قليلة الخطر من الناحية التاريخية. فإن حضارات العالمين القديم والجديد القديمة لم تقم إلا فى مثل هذه الأقطار[١] الجافة، حيث يحتل زمن سقوط الأمطار الأهمية الكبرى.

لا داعى لتكرار الأمثلة. فهى متفاوتة متعددة معقدة ولكن قد تدخل بعض الاعتبارات الأخرى فيها. فلقد نلاحظ أثر الصقيع السيئ سواء كان مبكرًا أم متأخرًا. وهذا يفسّر قلة المحصول أو تعرضه للخطر فى أقطار ينبغى - باستثناء عامل الصقيع - أن تكون غنية فى الإنتاج مثل مانيتوبا التى يقصر فيها فصل الصيف ويطول فيها فصل الشتاء مما يؤخر فصل الزراعة حتى شهر يونيه، ومما يجعل المحصول معرّضًا للصقيع قبل أن ينضج[٢].

لقد قلنا كل ما هو مهم ويبقى بعد ذلك مثل واحد نأخذه من منطقة قريبة منا فدعنا نفحص كمية المطر الساقطة فى أوربا. إننا سنجد أن الهرسك من أحسن أقطارها أمطارًا وأكثرها ملاءمة للإنبات. فإحدى مدنها كركفيس (Crkvice) وتقع على ارتفاع ١٠٥٠ مترًا يسقط عليها ٤,٥٥٦ متر من المطر بينما يسقط على كتارو على الساحل الدلماشى ٣,٨٣٢ متر فقط، ليس فهذا فحسب بل إن متوسط سقوط الأمطار فى الهرسك يجعلها من أغزر أقطار أوربا أمطارًا ولكنها فى نفس الوقت أكثرها جدبًا وأشدّها قحولة، فأى تناقض؟ ولكن هذا نتيجة اقتران عدة عوامل. عامل مناخى (أمطار غزيرة متدفقة) وعامل جيولوجى (مساحات واسعة من الحجر الرملى المشقق) وعامل زراعى

---

(١) فيدال، المرجع السابق ص (٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) بدل «المناخ والتطور» (١٦) ١٩١٦، ص ٤٩٨.

(افتقار الإقليم لتربة) مع عامل تاريخى بشرى (وهو قطع الغابات ولا سيما فى العصر البندقى) فلا دهشة ولا تناقض، هذا بالرغم من أننا لم نتعمق فى تحليل تلك العوامل وخاصة العامل المناخى.

ولكن أليس فى هذا تحذير لمن يحاول أن يقارن خرائط توزيع الأمطار بخرائط توزيع السكان دون دراسة الخريطة الثالثة التى تبين توزيع الحياة النباتية فى الكمية والنوع.

- ٢ -

علاقة الأقاليم المناخية النباتية بالحياة البشرية

هل ينبغى أن نقلع عن أى محاولة تحليلية ونترك الأمور معلقة غير محدودة، وقد قابلتنا كل هذه الصعاب الكبيرة؟ كلا مطلقًا فإنه بالرغم من تعقد الحياة النباتية وتعقد أسبابها فمن الممكن أن نرسم حدودًا عامة تفصل سطح الأرض إلى أقاليم عامة بينها أوجه شبه مهمة وحقيقية من حيث تأثيرها فى أصول الحياة البشرية.

هناك أولاً منطقة تقطع بين المدارين واضحة كل الوضوح. فتتعامد الشمس مرتين فى السنة ما بين خط الاستواء وكل من المدارين، فترتفع درجة الحرارة ارتفاعًا كبيرًا فيتمدد عمود الهواء ويصعد الهواء إلى أعلى حيث تكون الشمس فى السمت. هذه المنطقة تسمى منطقة الرهو الاستوائية وتسبب حركة الهواء الصاعدة سقوط الأمطار الاستوائية الغزيرة التى تستمر طول العام تقريبًا بالرغم من وجود قمتين للأمطار عند خط الاستواء نفسه، ولا تزال هاتان القمتان تقتربان فى الزمن كلما بعدنا عن خط الاستواء شمالاً وجنوبًا حتى تلتقيا فى قمة واحدة، تاركة فصلاً جافًا بالقرب من المدارين، فينقسم العام إلى فصلين متواليين. أحدهما قصير مطير حار والآخر طويل جاف وربما كان أقل حرارة.

وبالرغم من الاختلافات المحلية العديدة التى يسهل ملاحظتها ويفيد تغييرها فإن هذه المنطقة تتحد فى ميزات عامة فى جميع أنحاء العالم. فالحرارة فيها مرتفعة جدًا وثابتة [1] والأمطار غزيرة وتتوزع بانتظام تقريبًا على شهور السنة. والظروف كلها ملائمة لنمو نبات غنى، تسوده الأشجار الضخمة التى ترتفع إلى

(١) مثلاً بوجوتا فى كولومبيا على عرض ٤٣٥ ° ش. متوسط المطر السنوى ١,٦٠ متر، يسقط منها ١١ ٪ فى يناير وفبراير و٢٥ ٪ فى أبريل/ مايو و٩ ٪ فى يونيه/ أغسطس و٢٨ ٪ فى أكتوبر/ نوفمبر.

٢٠٠ قدم. كما أنه إقليم الأنهار الكبرى مثل الكونغو والأمازون وأرض الغابات العذراء ونباتاتها العملاقة الضخمة الكثيفة ونباتاتها المتعددة الأنواع، الزاحفة والمتسلقة فى إقليم (Hyloea) كما سماه هبولدت فى حوض الأمازون والكونغو، لا تكاد تختلف فى طبيعتها وتتشابه فى مظهرها. وهنا أيضًا الغابات التى تغطى شمال أستراليا، وأرخبيل الملايو وسيلان ومدغشقر.

تختلف الظروف خارج تلك المنطقة فالحرارة والرطوبة قد اتحدتا على تحويل مساحات واسعة من الصخور الأركية إلى تربة حمراء (لاتريت) قاحلة. وبالتدريج كلما بعدنا عن خط الاستواء شمالاً وجنوبًا تتحول الغابات إلى حشائش السافانا ثم إلى حشائش جافة. هذا الانتقال ملاحظ بصفة خاصة فى الإقليم الذى يتلو المنطقة الاستوائية شمالاً وجنوبًا، إقليم الرياح التجارية.

هذه الظروف تظهرنا على احتمالات مختلفة تمامًا، فقد سبق أن ذكرنا أنه كلما بعدنا نحو المدارين تقترب قمتا المطر رويدًا رويدًا وكلما بعدنا عن خط الاستواء شمالاً أو جنوبًا، مقترنة فى ذلك مع اقتراب فترتى تعامد الشمس على نقط الإقليم الواقع بين المدارين. لذلك لم تتقسم السنة إلى أربعة فصول، فصلين جافين نسبيًا وفصلين ممطرين، بل إلى فصلين فقط يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف، فصل مطير قصير وفصل جاف طويل(١)، وهناك تفاوت فى درجة الحرارة فالجفاف يزداد تبعًا لاختلاف درجة العرض(٢)، كما تختلف أيضًا ظروف الضغط.

(١) بومباى مثلاً على عرض ٥٨,٥٤ ش. متوسط سقوط المطر ١,٨٥ متر. نسب سقوطها على السبعة أشهر من نوفمبر إلى مايو ٦,١,٢,١، ٥,٠ ومن يونيه إلى أكتوبر ٢٣١٤٦,٢٠١,٢٤٢,٢٦٣ (حسب أنجو Angot).

(٢) هاهن و(٥٧) جزء ثان و١ وص٧.

خطوط العرض	المتوسط السنوى ف م	درجة الحرارة العظمى	درجة حرارة الدنيا	الفرق
عند الاستواء	٥,٩	٢٦,٢	٣٥,٥	٠,٧
خط عرض ١٠° ش	٢٦,٤	٢٦,٧	٣٥,٧	١,٠
خط عرض ٢٠° ش	٢٥,٧	٢٨,١	٢١,٧	٦,٤
خط عرض ٣٠° ش	٢٠,٣	٢٧,٣	١٤,٦	١٢,٧

=

فالفرق بين الضغط البارومترى المرتفع فى المناطق المدارية والضغط المنخفض فى الرهو الاستوائى تُحدث نظام الرياح التجارية التى تهب من الشمال والجنوب نحو خط الاستواء ولكنها تتحرف فى اتجاهها تبعًا لدوران الأرض.

هذا التطرُّف فى الحرارة والجفاف فى جزء من السنة يجعل الظروف صعبة سيئة بالنسبة للزراعة، فالرياح عاتية منتظمة تعوق نمو الأشجار الحديثة، كما أن ظروف الحياة النباتية نفسها تتغير مثل اللانوس حول حوض أرويتوكو فى فنزويلا وكولومبيا. والفلد أو السافانا فى إفريقيا. وهنا تزداد إمكانية الاستقرار أو الهجرة وحيث يزداد الفصل الممطر طولاً بحيث يسمح للتربة بأن تكفى عددًا من السكان يمكن أن يقدم العمران البشرى. وهذا العمران عادة ينتشر لأن طبيعة الإقليم الحشائشية تسمح للسكان بالتجوال الواسع بحثًا وراء الرزق. إلا أن خطوات الانتقال لا تزال أمامنا. فالمنطقة الواقعة بين خطى عرض (٢٠ ° - ٣٠ °) شمالاً وجنوبًا منطقة جافة نسبيًا تهب عليها رياح جافة، ذات ضغط مرتفع وبصفة عامة قليلة الأمطار جدًا. وهذه ظروف غير ملائمة، فإذا أضيف إلى ذلك أن الإقليم على شكل حوض تحيط به جبال تكثف أى رطوبة يحملها الهواء من المحيط المجاور فإن المطر فى حد ذاته غير كاف لأن يقيم أود النبات، فيتضاءل العشب ويجف ويختفى تمامًا، وتنتهى إلى الصحراء حيث لا ينمو إلا القليل من النبات الصبيرى. ولا يمكن الاستقرار إلا حيث تتوفر ظروف عارضة خاصة وحيث يتم الإنسان ما بدأته الطبيعة، فى بقع صناعية مهدّدة بالخطر دائمًا. فى الواحات. تلك هى الحالة فى الصحراء الكبرى وفى الصحراء اللوبية وصحراء بلاد العرب وصحارى ثار - فارس - تركستان - المكسيك وكولورادو - والحوض

=

خطوط العرض	متوسط الحرارة نصف الكرة الشمالى	متوسط الحرارة نصف الكرة الجنوبى	أشد الشهور حرًا ش	أشد الشهور حرًا ج	أشد الشهور بردًا ش	أشد الشهور بردًا ج
خط عرض ٣٠ °	٠,٣	١٨,٤	٢٧,٣	٢١,٨	١٤,٦	١٤,٦
خط عرض ٤٠ °	١٤,٠	١٢,٠	٢٤,٠	١٥,٦	٤,٩	٩,٠
خط عرض ٥٠ °	٥,٨	٥,٦	١٨,٦	٨,٣	٧,٠	٢,٩
خط عرض ٦٠ °	١,٠	٢,٠	١٤,٠	٣,٢	١٥,٧	٧,٦

الكبير فى نصف الكرة الشمالى، وبالمثل فى صحارى كالهارى وجنوب مدغشقر وأستراليا وباتاجونيا فى نصف الكرة الجنوبى. وخير ما توصف به الحياة النباتية هنا هى عدم الاستقرار والتعرُّض للخطر.

إن المناطق الصالحة للاستقرار توجد فى الأقاليم دون المدارية حيث ظروف المناخ والنباتات الملائمة للسكان، وهذه تمتاز بالرياح المتغيِّرة والحرارة المعتدلة والنبات المتنوع.

ونلاحظ هنا وجود اختلافات ظاهرية بين نصفى الكرة الشمالى والجنوبى، حيث يختلف توزيع المياه واليابس، فنصف الكرة الشمالى قارى، بينما النصف الجنوبى جزرى، ولهذا أثره فى توزيع حرارة الشمس. ويترتب على هذا أن يكون متوسط درجات الحرارة السنوى فى نصف الكرة الشمالى أكثر ارتفاعًا منها فى النصف الجنوبى. ولكن جنوب خط ٣٠° جنوبًا يرتفع متوسط درجات الحرارة لأبرد شهر فى نصف الكرة الجنوبى عنه لنظيره فى النصف الشمالى. وأكثر من هذا فليس لدينا نطاقات منتظمة للضغط المرتفع أو الضغط المنخفض. ولكنها تتمزّق إلى مناطق يتركز فيها الضغط المرتفع أو الضغط المنخفض تندفع منها أو إليها الرياح وهذه الحالة المترولوجية تسود فى جنوب إفريقيا. وبعض أجزاء الأرجنتين وجنوب أستراليا فى نصف الكرة الجنوبى وتسود معظم أجزاء أمريكا الشمالية وأوربا وآسيا فى نصف الكرة الشمالى.

فى هذه المناطق حيث مركز الحضارة الغربية الغنية القوية تسود الرياح الغربية حاملة المطر الغزير. ويسود أيضًا المناخ المعروف بمناخ غرب أوربا فى الأجزاء الغربية من القارات على مهب الرياح العكسية الغربية. وليست الأجزاء الشرقية من القارات فى مركز أفضل من نظيراتها الغربية، وأكثر من هذا فهذه السواحل الغربية معرّضة لمرور التيارات الجوية الدفيئة وخصوصًا فى نصف الكرة الشمالى، وهذا عامل آخر فى اعتدال درجات الحرارة ـ فمتوسط درجات الحرارة فى لشبونة ٥٢,٥° فى يناير، و٧٥,٥° فى يوليو بينما هو فى نيويورك التى تقع على نفس خط العرض تقريبًا ٢٩,٦° فى يناير، و٧٧,٥ فى يوليو أى أن هذه المناطق المعتدلة بالرغم من الاختلافات المحلية صالحة تمامًا لنمو غطاء نباتى يمتاز بالتنوع والغنى.

ومن الممكن أن نميّز هنا إقليمين نباتيين رئيسيين، هما إقليم الغابات ويمتد من الشمال للقارات حيث رواسب الجليد الرباعى، ومن الجنوب حيث قيعان البحار القديمة الداخلية مثل بحيرة أجاسيز والبحر الأسود (Sanmaro Pontic).

ومنطقة واسعة تغطيها تربة اللويس حيث لا تستطيع الشجرة أن تنمو إلا عندما تزيل التعرية طبقة من التربة القديمة.

أما الإقليم الثانى فهو إقليم الحشائش - سهوب واسعة يغطيها بساط من الحشائش التى تشمل دون شك تنوعًا كبيرًا فى النباتات ولكنها تبدو جميعًا متشابهة. إلا أن هذه المنطقة قد أتت عليها يد الإنسان بالتعديل والتغيير. فمناطق اللويس تخضع بسهولة للممرات بل للعصا الأولية التى كان الإنسان فى أولى مراحل حضارته ينبش بها الأرض. وقد أشار فيدال دى لابلاش إلى أن البيئة الطبيعية هنا سهلت الزراعة سهولة كبيرة مما كان له أبعد الأثر فى تكاثر السكان وفى تطوّرهم التاريخى. وليست خصوبة التربة هى العامل الأول فى النشاط البشرى فى هذا الإقليم. فالسهوب منطقة خصبة فى جميع أجزائها. تضم داخل حدودها منطقة الشيرتوزم أو التربة السوداء (Czernosjem-Czernozim) فى جنوب روسيا التى تشمل أحواض الدون والدنيبر والفولجا التى تبلغ مساحتها أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ ميل مربع أو ما يقرب من نصف مساحة فرنسا. ويتراوح سمك التربة فيها من ٣ - ١٦ قدمًا، بل أحيانًا من ٣٠ - ٦٠ قدمًا ولا تغطيها الغابات أو الأشجار، وهى منطقة شاسعة صالحة لنمو القمح أعدتها آلاف القرون من أجيال الحشائش. وتشمل السهوب أيضًا سهوب البوستزا (Pustza) المجرية - وهى سهوب متموّجة من الحشائش تمرح فيها المواشى نصف متوحشة يرعاها فرسان التشيكوس (Czikos) قبل أن تحشد الجهود لتحويلها إلى حقول قمح وذرة غنية. فيما عدا ذلك فلدينا سهوب القوزاك والقرغيز وهى جافة تغطيها تربة فقيرة لا تغطيها الحشائش أو الكلأ. موحشة فى الشتاء وليست أقل قسوة فى الصيف. وقد وصفها إليزيه ركلس (Elisèe Reclus) وصفًا بديعًا فى كتابه «الأرض» [1]، وهو كتاب قديم ولكنه

(١) الطبعة الثالثة - باريس، جزء ١، ص ١٠١ - ٢٠٢.

صادق فى وصفه لهذه السهوب. أما فى أمريكا الشمالية فلدينا إقليم البرارى الذى كان يشبه سهوب البوستزا المجرية والأرض السوداء شبهًا كبيرًا قبل أن تحوّله جهود الأمريكيين، إلى ما يشبه رقعة الشطرنج من الزراعة «الصناعية». ولكنها تتحوّل فى أجزائها الغربية إلى سهول واسعة جافة ثم إلى صحار. والبرارى أو السهوب مساحات شاسعة من السهول المفتوحة للحركة بسهولة، وتعتبر سبلاً طَرقتها الهجرات البشرية من قديم الزمن. إذ تستطيع العربات أن تشقها بسهولة، لأنها بحكم طبيعتها سهلة الصرف فلا تعترض العربات عقبات تذكر وتستطيع الخيل أن تنهب تلك السهول المسطحة نهبًا، تثير من سنابكها الغبار الذى يملأ الأجواء.

ويختلف عنها إقليم الغابات الشمالية كل الاختلاف، فهو إقليم تغطيه تربة ثقيلة مكوّنة من رواسب جليدية صلدة تنمو عليها الأشجار المتناثرة التى لا تبلغ فى كثافتها ما تبلغه غابات المنطقة الاستوائية وأحراج الأمازون والكونغو وما ينمو بين أشجارها من حياة نباتية كثيفة فلا نباتات متسلقة ولا نباتات زاحفة ولا عوائق طبيعية تحول بين الإنسان وبين الحركة بسهولة.

أمّا غير ذلك من غابات فلم يبق منها إلا آثارها فى الوقت الحاضر. بعد أن كانت الغابات النفضية تغطى أرض الغال من المحيط الأطلسى إلى سواحل البحر المتوسط. وقد كانت الغابات الهرسينية تغطى ألمانيا - طبقًا للمؤلفين الرومان - مسيرة ستين يومًا. وربما كان فى هذا شىء من المبالغة ولكن مما لا شك فيه، أن الغابات النفضية فى أوربا كانت فى غاية الكثافة فى عصر ما قبل التاريخ من العصر الرومانى. وأنها لم تبدأ فى الانكماش [1] إلا منذ القرن السادس الميلادى. ولا ريب أيضًا أن المفارقة فى المنظر الطبيعى كانت واضحة ومثيرة للانتباه بين سهوب الاستبس الحشائشية، وبين أقاليم الغابات الموحشة. مما يشبه تلك المفارقة الكبيرة التى لاحظها الروّاد، فيما بين القرن التاسع عشر بين اللانوس وبين السلفا فى الأمازون أو بين السافانا وبين غابات البلوط فى لويزيانا. أمّا الآن فقد حلّت النباتات العشبية محل الغابات الكثيفة فى مساحات كبيرة من الأرض - ولم يكن هذا التغيير فى مساحات الأرض بل فى كثافة النباتات نفسها.

(1) Hausrath. Der, Deutche wald, Leipzig. 1907.

وقد بدأنا الآن نتعلّم شيئًا عن عملية تحول «الغابات الطبيعية» فى إفريقيا وأمريكا إلى «غابات ثانوية»، لكى نفهم كيف نكوّن لتلك الجهود التى تبدو ضئيلة فى بادئ الأمر، ولكنها بالمثابرة والاستمرار تعظم هذه النتائج الباهرة. فهناك عوامل دقيقة تكفى لإخلال التوازن بين الضوء الذى يساعد على سرعة نمو الأشجار الصغيرة وبين الظل الذى يساعد على إبطاء نمو الأشجار. ولكن مقارنة هذه الحالة بغابات المنطقة المعتدلة ترينا أن الغابات القديمة فى أوربا (urwald) كانت كثيفة لا يمكن اختراقها. ومن العسير الحركة عبرها، أما الآن فقد زالت وحشة الغابات فإنها ربما قد ضبطت ومستنقعات جففت وبحيراتها تحولت إلى حقول وأحراجها تحوّلت إلى أرض مشجرة وغاباتها تحوّلت إلى أرض خصبة. لقد غيّرت الجهود البشرية المنظر العام للإقليم، وحلّت الجهود المنظمة والقوى الإنشائية محل الجهود المخربة الضائعة. ولم يعد ذلك المنظر اليوم «طبيعيًا»، فتلك حالة نظرية افتراضية لا وجود لها الآن. هذا على الأقل فى وسط أوربا كما شرح جرادمان (Gradmann) بكل وضوح[1].

ولم تحل الغابات أيضًا دون الاستقرار البشرى ومن الخطأ أن نصوّرها كعدو للمجتمعات الإنسانية. فالآثار كثيرة ومتعددة تثبت عكس ذلك ـ من أمثلتها بقايا النيران والمواقد التى كان يوقدها الإنسان، وبقايا أكواخ فى قلب الغابات. ولم تكن تلك الأكواخ المختبئة بين الغابات والمحتمية بها مجرّد قرى صغيرة. بل كانت أكبر مما نتصوّر. ويجب ألا ننسى أن أشد الغابات كثافة حتى فى الإقليم الاستوائى ـ ولا سيما فى إفريقيا ـ كانت إقليمًا طرقه الإنسان وجد فيه فراغًا مناسبًا ينشئ عليه مستعمراته. بل إن الدول نشأت فى ظلال الغابات وفى حماها[2]، ومن أمثلتها دولة الروس فرسان التيوتون (Teutonic order). وأكثر من هذا فإن الغابات الأوربية التى تتكون فى معظمها من أشجار البلوط والزان ومن أشجار التولا فى أجزائها الغربية والجنوبية، ومن أشجار الصنوبر والشربين فى أجزائها الشمالية والشرقية. وكان من السهل إزالة هذه الأشجار فتحوّلت إلى أرض تغطيها تربة

(١) جرادمان (١٤) جزء V (١٩١,١) ص (٧٧ـ ٢٦١، ٤٣٥ ـ ٤٤٧).
(٢) (١١) ١٩٠٨ جزء ١٧، ص (٢٧٩ ـ ٢٩٠).

أخصبتها تراكم أوراق الأشجار وفروعها التى تحللت إلى مواد عضوية مختلطة بالتربة، وبعبارة أخرى كانت الغابات ملجأ للإنسان وملاذًا. وموردًا للرزق لا قبل لها عن السهوب المكشوفة بتربتها الطينية الثقيلة إن لم تكن أفضل.

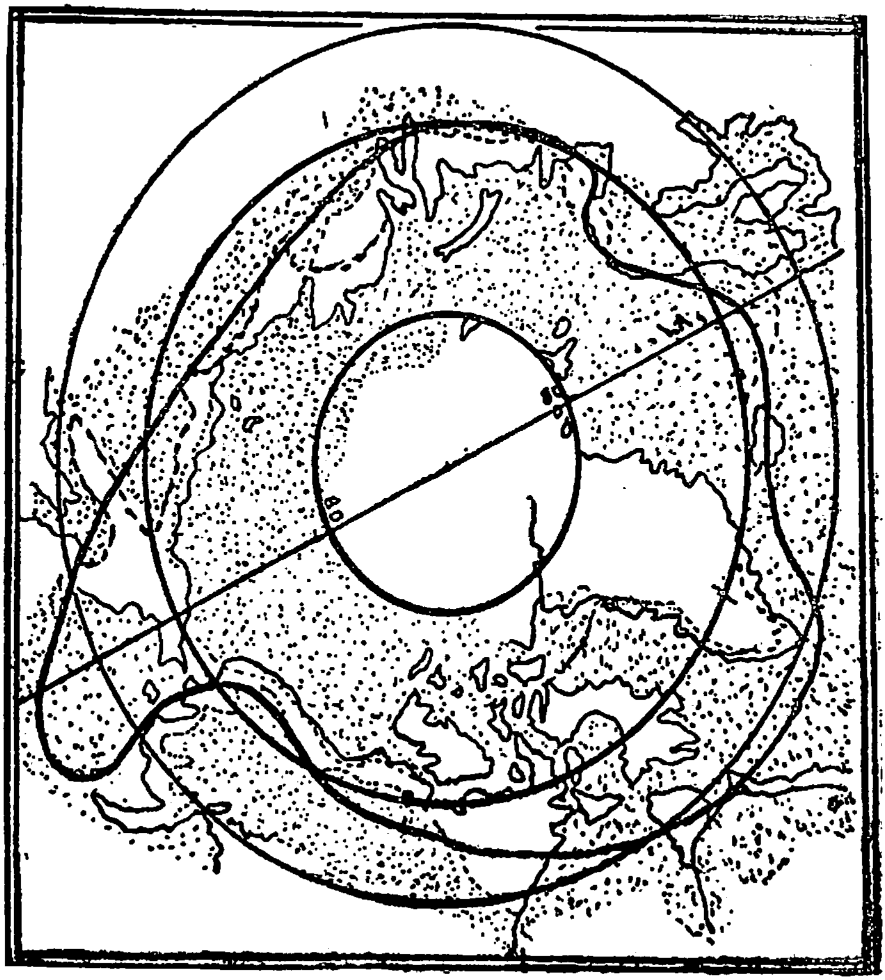
لم تبق لدينا إلا منطقة واحدة [1]، التى تتلو نطاق الغابات نحو القطب الشمالى (إذ لا يوجد ما يشبه هذه الحالة فى نصف الكرة الجنوبى)، ذلك النطاق الذى يمتاز بنمو الأشجار سواء كانت نفضية أم صنوبرية، منطقة يتضاءل فيها حجم الأشجار وتقصر، ثم تختفى إطلاقًا، وتختلف حدود هذه المنطقة من قارة إلى أخرى، إذ إنها لا تبعد عن نقطة القطب الشمالى بُعدًا متساويًا فى جميع أجزائها بما يشبه الدائرة، ولكنها تنحنى انحناء خطوط الحرارة المتساوية. فهى تقرب من القطب الشمالى قربًا شديدًا فى أوربا أكثر منها فى أمريكا الشمالية. ويوجد شجر السنوبر حتى خطى العرض ٧٠ و٧١ ° شمالاً بالقرب من رأس الشمال (Norlh Cape) أما فى سيبيريا فلا تصل إلا إلى الدائرة العرضية ٦٨ °، أما فى لبرادور فلا تنمو إلى ما وراء الدائرة العرضية ٥٨ ° شمالاً. وهناك توازن كبير بين خط الحرارة المتساوى ١٠ ° م فى يوليو وبين الحد الشمالى لنمو الأشجار، مما يدل على أن الحرارة هى العامل الأول فى تحديد المنطقة المشجرة شمالاً. وهى المسئولة عن اختفاء الأشجار تمامًا فى المنطقة القطبية. أما فترة الرياح والجفاف وقلة الأمطار والصقيع التى تجمد الأرض وتشققها إلى أعماق كبيرة فهى جميعًا عوامل ثانوية تزيد من فعل البرد الشديد الدائم. ولا يجدى فى نمو الغابات شىء يوفر الحد الأدنى الحرارى المطلوب لنمو شجرة الزان وهو ١٠ ° م لمدة خمسة شهور. وتحل محلها أرض تغطيها الحشائش بالتدريج. منطقة انتقالية بها الأشجار المتناثرة القصيرة بين إقليم التايجا وإقليم التندرا. ثم تبدأ

(١) ربما كان من المناسب أن نكمل المقارنة فى درجات الحرارة فى القارات.

خطوط العرض	متوسط درجة الحرارة	أدنى درجة حرارة	أعلى درجة حرارة
خط عرض ٧٠°	١١,٥ ـ ١٠,١	. ٠,٨ ـ ٧,٠	٢٢,٠ ـ ٢٦,٠
خط عرض ٨٠°	١٩,٨ ـ ١٦,٧	٦,٥ ـ ١,٨	٢١,٥ ـ ٢٣,٥

الحشائش فى الاضمحلال وتحل محلها الطحالب. وهناك بعض النباتات تنمو فى الجهات المحمية من الجليد أو الرياح وتشبه فى تشريحها الأشجار، ولكنها من الضآلة فى الحجم بحيث لا يمكن مقارنتها بالأشجار الأخرى الحقيقية. وهذه الأشجار الغريبة هى الممثل الوحيد لعائلة الأشجار فى تلك الأصقاع الجليدية الشمالية حيث يقل متوسط المطر السنوى عن ١٠ بوصات فى السنة، وحيث التربة متجمدة طول العام. ويبلغ أقصى طول لشجرة الزان فى نوفازمبلا ٨ بوصات، وهذا هو طول عمالقة الحياة النباتية فى تلك الأصقاع فما بالك بأقزامها التى لا تصل إلى أطول من بوصة واحدة.

تلك هى الأصقاع التندرا فى روسيا والأرض الجرداء الشمالية فى أمريكا الشمالية. أقاليم يخيم عليها البؤس، حياتها النباتية فى غاية الإملاق ولا يسرح فيها إلا العدد الضئيل من الحيوانات وهى كالصحراء لا تقيم أود عدد يعتد به من البشر.



شكل رقم (٤)

يبين المناطق المحيطة بالقطب الشمالى، والحدود الشمالية للحياة النباتية الشجرية.

الأجزاء المظللة: نباتات ذات أشجار.

الخط الأسود : خط الحرارة المتساوى + ١٠° م فى يوليو.

الخط المتقطع: حد العمران البشرى.

- ٣ -

التناسق بين الأحياء على سطح الأرض وبين توزيع المجتمعات البشرية

وهكذا إذا نظرنا إلى العالم نظرة عامة لوجدنا نوعًا من السيمترية الأرضية. فجميع أجزائها تنتظم فى نظام واحد، ويمكن أن تقسم وتصنف فى الوسط غابات وأحراج بلغت من السطوة والقوة بحيث تسود ما عداها من أنواع الأحياء، وهذه تحدها مناطق مناسبة للاستقرار البشرى، ويتلو ذلك - شمالاً وجنوبًا - نطاق صحراوى يمتد امتدادًا منحرفًا من قارة إلى أخرى، وهذه تتدرج إلى نطاق مُهيًّا للاستقرار البشرى آخر، وهذا النطاق يصل إلى ذروته من حيث قابليته لسكنى الإنسان قبل أن يبدأ فى التنكر له مرة أخرى، حيث تتجمد الأرض فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب. هذا هو عالمنا، وهذا مبلغ انتظام أقاليمه الكبرى كما تبدو لمن يراقبه بعين الطائر (١).

وهنا تبدأ متاعبنا، الإغراء قوى لا يمكن دفعه، والأرض ناعمة الملمس لا يؤمن السير عليها. فمن السهل أن نؤكد أن لكل إقليم من هذه الأقاليم الكبرى طرازًا خاصًا من الحياة، ومن السهل أن نقدم الأمثلة على ما نقول. فالمجتمعات الاستوائية أو سكان الغابات الكبرى المتناثرون القليلو العدد يعيشون على ما تغله أشجارهم، يجمعون ثمارها ويقتاتون بما يجمعون وقد يلجأون إلى الصيد. ويتشابه سكان الغابات الاستوائية حيث تسود تلك الغابات فى كل القارات وذلك فى نظام رتيب يعكس أثر البيئة الاستوائية.

كما أن هناك مجتمعات تعيش فى المناطق دون المدارية. فى نطاق الحشائش التى تحد الصحارى وهؤلاء يتشابهون فى أسلوب حياتهم فى كل مكان. وقلما

(١) انظر رقم (١١) F I ،٦، و١٩٠١ G. Menedinti

تستقر بعض القبائل فى الأرض وتبدأ فى الزراعة. ولكن هذا أمر نادر الحدوث، فأسلوب الحياة السائد هنا هو الأسلوب البدوى. ويكاد يكون هؤلاء السكان جميعًا سواء كانوا من أصل بربرى أم فولانى أم عربى رعاة للماشية يتحرّكون وراءها من مرعى إلى آخر. ويخضعون فى تنقلاتهم لظروف الرعى ومعظم هؤلاء (وتلك ملاحظة لا علاقة لها بالظاهرة الاجتماعية الجغرافية) يعيشون فى ظل نظام أبوى ويعتنقون الإسلام. ولما كان هؤلاء ميّالين للغزو والفتح فقد استطاعوا إنشاء ممالك قوية قصيرة العمر.

ويمكن أن نستمر فى إيجاد التشابه فى أسلوب الحياة تبعًا لتشابه البيئة فى الأقاليم المعتدلة أيضًا فهنا نجد مناطق زراعية تدعو إلى الاستقرار ثم تكوين الدول ـ ملكيات أو جمهوريات فيما بعد ـ تمتاز بالاستقرار الحقيقى الدائم. وهنا استغلت المصادر الطبيعية استغلالاً كبيرًا، وقد اقترنت الزراعة بالصناعة مما أدى إلى قيام الصناعات الكبرى والنظام الرأسمالى، وقد أدى الاستمرار فى تحسين وسائل المواصلات إلى إنشاء علاقات منتظمة بين مختلف شعوب هذه الأقاليم. والنتيجة لذلك قيام حضارة راقية وثقافة عريقة فى تلك الظروف الجغرافية المعتدلة بالرغم من تعدد العناصر التى تدخلت فى إنشائها أو تضمنها ذلك الإنشاء.

وأخيرًا فإن الأقاليم القطبية قد أنتجت بدورها طابعًا حضاريًا خاصًا. فهذه الجماعات المتباينة التى تعيش خارج نطاق الأشجار فى الإقليم القطبى. سواء كانت من الإسكيمو أم الساميون أم كانت من صيادى البر والبحر أم رعاة كلب أو رنة تحيا تحت ظروف قاسية وعلى ما تقدمه البيئة من النذر اليسير من الخيرات. وتقام باستمرار ظروف تلك البيئة لكى تحظى فى النهاية بما لا يكاد يسد الرمق أو يقيم الاود. وهى فى صراع دائم مع الطبيعة تحيا حياة مملة رتيبة تتشابه جميعًا فى أسلوب حياتها ولا تكاد تختلف إلا قليلاً.

وهكذا نستطيع أن نؤكد أن تلك الأقاليم المناخية النباتية التى يمكن تحديدها وإظهار مميزاتها بسهولة تمتاز كل منها بطابعها الإنسانى الخاص. كما تمتاز بنباتها الخاص وحيوانها الخاص، فليست هذه مناطق خلوا من الإنسانية وكل مَن

يتحدث عن أقاليم استوائية وأقاليم قطبية إنما فى الواقع يتحدث عن مجتمعات استوائية أو مجتمعات قطبية كما يقول راتزل. هذه مبادئ عامة تُقال ولكنها تحتاج لإثبات كما أننا لم نتقدم بعد فى الإحاطة علمًا «بعالمنا الآخر ـ عالم الإنسان».

لقد مرّ ما يقرب من أربعة قرون منذ وضع جان بودان [1] (Jean Bodin) فى كتابه «الجمهورية» الخطوط الأولى لهذا التقسيم الإقليمى الذى أصبح أكاديميًا. وقد كانت تلك النظرية عام ١٥٦٠، جديدة مثيرة للتفكير. وكان يبدو أنه من الممكن «بعد أن يتقرر التقسيم هذا، أن نصل بسهولة إلى معرفة طبائع الشعوب» وليس هناك مَن يشك فى أهمية ذلك التقسيم المدرسية، ولكن قيمته لا تتعدى حدود المدرسة فإذا كان العلم يعنى البحث فإن قيمته العلمية فى النهاية لا شىء.

وهاك برهان، من الممكن لمن ينظر إلى العالم نظرة عامة شاملة أن يوزع الحقائق الجغرافية على عدد معيّن من المناطق الكبرى، التى تتوزع توزيعًا منتظمًا حول خط الاستواء.

ومن ناحية أخرى من الممكن أن توزع بدقة فى تلك الأقاليم أنواعًا عديدة من المجتمعات الإنسانية وأن نبيِّن أوجه الخلاف العديدة الموجودة بين هذه المجتمعات وأوجه الشبه التى تتفق فيها.

ولكن كنه المشكلة فى الواقع هو ما إذا كانت المجتمعات البشرية نتيجة مباشرة للبيئة الطبيعية أو بعبارة أخرى ما إذا كانت الأقاليم النباتية الحيوانية هى السبب فى إيجاد المجتمعات البشرية التى لاءمت نفسها خصيصًا لهذه الأقاليم.

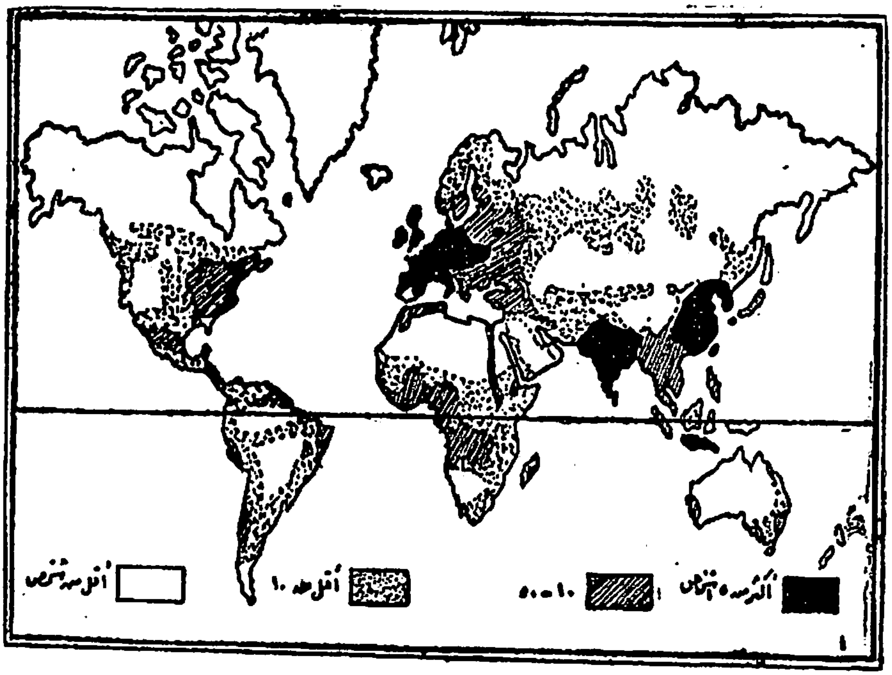
لا بد لنا من ملاحظة مبدئية هنا، فالمشكلة التى أمامنا ليست بالأمر السهل. ولفهم هذه المسائل لا بد من تحليل ألف عنصر معقّد، متداخل متشابك بحيث يصعب فهمه أو قياسه. ولذلك فلا بد لنا من أن نركن إلى تبسيط هذه المسائل

(١) بودان (٣٦) جزء ١، ص ٤٦٤.

لتسهل مناقشتها. بل إلى قصرها على مسألة واحدة، وهى مسألة توزيع السكان على سطح الأرض. فهل هذا العامل الواحد الذى اختير لأهميته يعتمد اعتمادًا مباشرًا على البيئة الجغرافية؟ سنرى أهمية الرد الذى نصل إليه وقيمته بعد حين.

إن أول ما نلاحظه هو أنه بينما تتوزع الأقاليم الطبيعية توزيعًا متناسقًا على جانبى خط الاستواء فإن السكان لا يتوزعون مطلقًا فيما يتعلقون بكثافتهم بشىء من الانتظام.

ومن ناحية أخرى فإننا لو أضفنا إلى سكان أوربا البالغ عددهم ٤٤٨ مليون نسمة، وسكان الهند وعددهم ٣٠٢ مليون نسمة وسكان الصين الأصلية وعددهم



شكل رقم (٥) كثافة السكان

٣٢٦ مليون نسمة وسكان اليابان ويقربون من ٥٢ مليون نسمة لوجدنا عددًا هائلاً من السكان يبلغون ثلثى سكان الأرض، قد ازدحموا فى سُبع مساحتها، كما أن الجهات القليلة السكان تسترعى النظر أيضًا، إذًا لا يزيد عدد سكان أفريقيا عن ١٤٠ مليون نسمة (وهذا إحصاء قائم على التخمين ولا نعتقد أنه دون الحقيقة) وتبلغ كثافة السكان بها ١٢ للميل المربع، كما أن كثافة سكان أمريكا الجنوبية تزيد على ٦ للميل المربع. أما أستراليا تلك القارة التى لم تعرف عنها الكثير بعد كما يقول الجغرافى لسبانيول Lespagnol فلا يكاد يصل عدد السكان فيها إلى ٤,٥ مليون نسمة وكثافة سكانها ٣ للميل المربع.

فهل نستطيع أن نقول بعد هذا إن المناخ أو المناخ والنبات معًا بما يقدمان من مصادر ثروة وإمكانيات فى الأقاليم المختلفة هما اللذان يتحكمان فى هذا التوزيع غير المتعادل فى السكان؟

وعلينا ألا ننسى أن ويكف (Woeikof) فى رسالة عام ١٩٠٦ (رقم ٩٨ فى ثبت المراجع) قد حسب أكثر من نصف الجنس البشرى يعيشون بين خطى عرض (٢٠ - ٤٠) شمال خط الاستواء. أى فى نطاق من الأرض يستبعد قارة أوربا بأكملها ولكنه يشمل كل النطاق الصحراوى فى نصف الكرة الشمالى.

ولكن هل نستطيع أن ندخل فى اعتبارنا الحر والبرد، مجرّد الحرارة ومجرّد البرودة؟ أن كتب الجغرافيا تعين القطب الحرارى عادة فى فرخونياسك بسيبيريا، ومن المعروف أن هذا القطب الحرارى من أشد الأقطاب بردًا كما بين مون (Mohn) عند حديثه عن نتائج بعثة نانس القطبية المتريولوجية (والأقطاب الأخرى هما شرق سيبيريا ووسط جرينلند والقطب الشمالى نفسه). ولكن فرخونياسك مكان آهل بالسكان يسكنها ٣٥٦ نسمة يحرثون الأرض ويزرعونها كل عام، بل إن أهل تلك البلدة يعيشون فى ظروف مناخية تعتبر معجزة لو توفرت فى مكان آخر. فمتوسط درجة الحرارة ليناير ٥١,٢° تحت الصفر. ومن ناحية أخرى نجد مصوع على البحر الأحمر ووسط سهل ساحلى حار تجمع أسوأ صفات الأقاليم الحارة المتريولوجية ومع ذلك فإنه يسكنها فريق من السكان يبلغون ٧٠٠٠ نسمة.

فليست هناك إذن حتمية عمياء فيما يختص بالحرارة والبرودة. فأقاصى كندا وألاسكا الشمالية لا يعمرها إنسان بطريقة منتظمة. بالرغم من أن الترمومتر لم ينخفض فيها عن ٤٥ ° فهرنهيت تحت الصفر أو ٤٧ ° م. بينما انخفض الترمومتر بالقرب من هافر (مونتانا ـ الولايات المتحدة) وهى تقع إلى الجنوب من هذا الأصقاع إلى - ٦٨ ° ف. كما أن الشتاء فى داكونا الشمالية يكاد يبلغ فى قسوة برودته، مبلغ الإقليم القطبى. ومع هذا فقد أثبتت التجربة أن الإنسان يستطيع أن يعيش فى هذه الأنحاء. وإذا أدخلنا فى الاعتبار عامل عدد الساعات التى تتعرض لها الأقاليم القطبية لأشعة الشمس، وهى أكثر مما تتمتع به الأقاليم المعتدلة. حيث يحجبها الضباب والسحاب فترات طويلة. لأمكننا أن نستنتج بسهولة هناك عوامل أخرى بجانب عامل المناخ تعمل على تحديد الظروف التى تسمح بتعمير الأقاليم القطبية.

وهناك عوامل متريولوجية أخرى يجب أن تراعى فى هذا البحث وأهمها عامل الضغط الجوى. وللضغط أثر محسوس فى نشاط الإنسان، فالإنسان لا يستطيع أن يعمل كثيرًا وإن استطاع بصعوبة تحت ضغط منخفض جدًا. ولكن هذا لم يمنع من مد خط حديدى فى بيرو على ارتفاع ٤٠٠٠ متر، ولم يمنع أيضًا استغلال مناجم الكبريت فى (Popocatepta) على ارتفاع ٥٤٢٠ مترًا. وقد شق طريق على ارتفاع ٥٦٥٠ مترًا فى قره قورم كذلك، وأخيرًا فإن ١٧ ٪ من عدد مدن بوليفيا تقع فوق ٤٠٠٠ متر. ويشعر المسافر فى جنوب التبت بالغثيان الذى قد يصيبه أحيانًا إصابة شديدة به عند عبوره الجبال على ارتفاع يتراوح بين ٣٦٠٠ ـ ٤٥٠٠ متر، ولكن هناك مدينة شيجاتسى (Shingasta) على ارتفاع ٣٩٢٠ مترًا وجيانجتسى (Gyangsta) على ارتفاع ٤٠٠٠ متر. حيث تصل درجة حرارة يوليو إلى ٤٠,٥ ° م بينما تصل إلى درجة التجمد من سبتمبر بل وتصل إلى ٢٧٠ ° م فى الشتاء المتوسط (١).

هذه أمثلة لتحدى الإنسان للطبيعة. فهل يمكن أن يكون ذلك حيث الظروف المتريولوجية مواتية له؟

---

(١) سيون (١٩٦) وما بعده.

هل تحديه للطبيعة يرجع إلى المناخ أو إلى تكوينه؟ هل هذا راجع إلى عوامل كمية يمكن قياسها بمعرفة درجات الحرارة وما إليها مما يبعد عنه بالتلاؤم أو الأقلمة مع البيئة؟ لقد أخذ أخيرًا أحد الجغرافيين ـ بحق ـ على الأستاذ برن (Brunhes) مؤلف «الجغرافيا البشرية» عدم اهتمامه بالجغرافيا الطبيعية [١]. فهناك أنيميا قطبية كما توجد أنيميا استوائية وليس جميع أفراد الجنس البشرى عُرضة لها بالتساوى أليس هذا مما يمنع تكاثر السلالة لا يرجع إلى مجرّد البرودة.

إن الرجل الأبيض لا يستطيع أن يستقر فى الأقاليم القطبية حتى ولو أمد نفسه بالطعام الطازج الكافى، إذ إن قلة الضوء تفقده حيويته بطريقة شرحها الدكتور كوك فى مجلة بلجيكا.

المناخ إذن هو أساس المشكلة ولكن يجب أن يدرس من حيث علاقته بالناس الذين يتعرّضون له وليس أدل على هذا من الخرائط التى نشرها بيترمان «٣» (Petermann) [٢]، فى مجلة (Mittlungen) عن الجغرافيا الطبيعية فمنها يتضح أن خرائط الأمراض الاستوائية تتفق غالبًا مع تقارن عدة حقائق بيولوجية أو مع أقاليم مناخية حيوية. ففى الغابات الاستوائية تقترن الملاريا الوبائية مع الأنيميا والدوسنتاريا الاستوائية. فهل هذا يدل على حتمية مناخية بالمعنى الضيق أم بالمعنى الواسع. حتمية ظروف مناخية عميقة الجذور أو بمعنى آخر حتمية جغرافية.

وإننا لا نقدم إجابتنا عن هذا السؤال. بل إجابة فيدال دى لابلاش الذى قضى شطرًا طويلاً من حياته يدرس الجغرافيا. وانتهى فى ختام سلسلة مقالات عن توزيع السكان على الكرة الأرضية بأن يقول «حقًا إن كل ما يتعلق بالجنس البشرى يحمل طابع المصادقة» [٣].

---

(١) (١١) ١٩٠١، ص ٤٦٠.

(٢) Wutschke, J. Dte Geographlische Verbreilung von kraukheilen (١٣) السنة ٦٧، مارس ١٩٢١.

(٣) فيدال ٩٧.

وكم كان محقًا فى ملاحظته هذه التى ظل محتفظًا بها (فالتقديرات الجغرافية ليست كتقديرات الفلاح الذى يحسب حساب جودة المحصول بالنسبة لجودة التربة وخصبها) فكم من مساحة يهجرها الإنسان بينما هى صالحة للاستغلال، وكم من مناطق مجدبة يُصرّ الإنسان على استيطانها بالرغم من فقرها. هذه أراضى السودان الخصبة المتنوعة التربة التى تتبع الأقاليم الطبيعية الخصبة بعضها إثر بعضها (كل مائة ميل تقريبًا) غنية بمواردها الطبيعية واحتمالاتها المشجعة، ومع ذلك فهى مهملة يتناثر فيها قليل من السكان وهذا هو وادى نهر المسيسيبى الجميل، بتربته الخصبة المثمرة فى الجنوب وتربة البرارى أعلاه، صالحة للزراعة قد هجرها الإنسان قرنًا كاملاً ولا يسكنها إلا عدد ضئيل من السكان. تلك مساحة غنية من الأرض. ومن المؤكد أنها تؤتى ثمرها لو استغلت.. ولكن تلك هى لغة الاقتصاد كاقتصادى. وليست لغة (الإنسان) كإنسان فالخصب والثمار آراء تصلح للحديث عن النبات والاقتصاد ونخطئ خطأً كبيرًا لو حمّلناها معانى إنسانية.

إن كل مَن يدرس توزيع الحيوان، بله الإنسان على سطح الكرة الأرضية، يجب أن يتحاشى اعتناق حقائق لم تتمثل بعد. ومن باب أولى استنتاج نتائج لم تتوفر لديه بعد وسائل التحقق منها. وقد بيّن كروبتوكين هذا جيدًا فى صفحات كتابه «المساعدة المشتركة ـ Mutual aid »[1] إذ قال «لا يقرر عدد الحيوانات الذين يمكن أن نطعمهم فى منطقة ما أكبر كمية من الطعام يمكن أن تنتج هذه المنطقة، بل على العكس أقل كمية من الطعام»، وقد وضح أن الخيل والماشية فى سهوب ما وراء بايكال لا تتزايد زيادة تذكر على عدد معيّن بالرغم من التناسل المستمر، كما أن عدد القطعان، لم يصل قط إلى الحد الكبير الذى يمكن أن تطعمه البيئة «فهناك طعام ـ على مدار السنة ـ يكفى لخمسة أو ستة أضعاف الحيوانات التى ترعى فعلاً، وبالرغم من هذا فعددها لا يزيد زيادة تُذكر» ومن الخير للباحث أن يقرأ تحليله الدقيق لأسباب ذلك، فهى تقدم الدليل على ضعف مناقشة أمثال

(١) كريتوكين (١٣٠)، ص (٧١ ـ ٧٥).

هذه الموضوعات من مجرّد الإحصاءات أو خرائط التوزيع البسيطة أو الرسوم البيانية وتلقى درسًا فى الحذر والحيطة وليس فى الجغرافيا الحيوانية بل البشرية أيضًا.

ويستمر كريتوكين فى بحثه عندما يبيّن أن هناك قرى فى جنوب شرقى روسيا يتوفر لدى أهلها الطعام الكافى، وتبلغ نسبة المواليد ٦٥ فى الألف ومع ذلك فإن عدد سكانها يظل ثابتًا [١]، والسبب فى ذلك عدم وجود نظام تصريف صحى وأن ثلث الأطفال يموتون قبل أن يبلغوا الشهر السادس من عمرهم، وأنه لا يبلغ سن العشرين إلا ١٧ أو ١٨ من كل مائة طفل.

تلك الحالة المؤسفة ترجع إلى وجود عدد كبير من العوامل الهدّامة التى يقابلها الكائن الحى. فعدد كبير من الحشرات والطيور والحيوانات تقع فريسة تغيرات مناخية أو فريسة المرض، ومن يعمر بعد ذلك يخرج من المحنة ضعيفًا هزيلاً فاقد الحيوية ضعيف المقاومة. وربما احتالت الطبيعة واحتاطت لتلك الظروف بأن حالات دون تكاثر السكان فى الجهات غير الملائمة للإنسان مثل الصحراء الكبرى - كما لاحظ إميل جوتييه [٢] (Emil Gautier) فقبائل الطوارق القوية النشيطة عددها ثابت لا يزيد، فهذه القبائل التى تعيش على الكفاف فى حالة فطرية تكاد تكون من العرايا الذين لا يفترقون كثيرًا عن ابن آوى الذى يشاركهم بيئتهم المجدبة. دفعت ثمن بقائه بما فرضه على أفرادها من تحديد دقيق للنسل، حتى لا تتعرض لخطر المجاعة أو المرض إذا تكاثرت، هذه الحالة عند الطوارق التى لا يملك أفرادها أكثر من إناء الطبخ وغيره من الأدوات البسيطة فى خيامهم.

وهكذا نجد أمامنا مشكلة واحدة كبيرة. وهى مشكلة بسيطة نسبيًا تبدو كأنها رياضية: عدد السكان الكلى وعدد السكان النسبى ومساحة الإقليم وعلاقة كل منهما بالآخر.

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٢) جوتييه ١٨٢، ص ١٧٧.

لو أننا عالجنا المشكلة ـ لا من جانبها الرياضى الحسابى بل من جانبها الإنسانى من ناحية علاقتها بالحضارات التاريخية الإنسانية ـ أننا عندئذ لا نملك إلا أن نعتنق نظرية «ويكوف ـ Waikof» فى بحثه عن توزيع السكان على الأرض [1]، وهى أن العامل الأساسى فى توزيع السكان على الأرض لا يرجع إلى المزايا أو العقبات التى تقدمها البيئة الطبيعية. بقدر ما يرجع إلى الإنسان نفسه وطبيعته. ونستطيع أن نعتنق تلك النظرية مقدمًا دون أن نكلف أنفسنا مشقة إثباتها وتوضيحها، على اعتبار أنها نظرية معقولة .. ولكن دون توضيح هذه النظرية بعض الصعاب وتلك هى مهمتنا التالية فى هذا البحث.

(١) ويكوف فى (١٣) جزء ٥٢ ـ ١٩٠٦.

الفصل الثالث

الإنسان فى الطبيعة ـ فرد أو جماعة

يجب ألا نفقد ما اصطلحنا عليه من تعبيرات خاصة بمشكلتنا. وهذه المشكلة إذا حللناها إلى عناصرها الأولى نجد أنها تتعلق بمسألتين مهمتين: الإقليم الطبيعى، وعلاقة الإنسان به ـ أن كل المشكلة تدور حول العلاقات المتبادلة بين الإقليم الطبيعى والإنسان ومدى هذه العلاقة المتبادلة.

لقد عرّفنا الأقاليم الطبيعية وقد حددناها إلى وحدات مناخية نباتية فهلا ينبغى لنا أن نعرف البشر ونعرف نشاطهم؟ ليس فقط كأفراد فى شعوب بل من حيث علاقتهم بالأقاليم المناخية النباتية التى درسناها وقسمناها ـ وعلينا أن نعرف مركز البشر داخل تلك الأقاليم الطبيعية. والسؤال الآن: مَن هم البشر؟

دعنا نذكر أننا رفضنا المجرّدات الغامضة والعموميات المائعة ولم نقبل كلمة «الأرض»، كذلك سنعرض فكرة «الإنسان»، مثل هذا الإنسان المجرّد لا وجود له ولا قيمة له لدى الجغرافى، فالبشر يتفاوتون فى مدى تقدمهم، وهناك الشعوب البدائية والشعوب الراقية التى تسهم فى النشاط الاقتصادى ـ ونحن سنتحدث عن مجتمعات وليس عن إنسان بل وليس أيضًا عن الإنسان بالمعنى الجغرافى وهذا الاتجاه الذى سننتجهه، اتجاه سليم بالنسبة للماضى كذلك.

- ١ -

الفكرة القديمة : من الأسرة إلى الأمة

الإنسان حيوان سياسى. ولكن هذه هى قضية أرسطو، التى ما فتئ المفكرون يرددونها منذ زمن قديم حتى الآن ولكن مثل هذه الفكرة كانت غامضة لا دلالة محدودة لها بالنسبة للجغرافيا على الأقل - حتى وقت قريب.

ولا سبيل لأن ننكر الحقيقة الواقعة، لأنه من الصعب أن ننكرها وهى أن أفراد النوع البشرى أعضاء طبيعيون فى مجتمعات منظمة تنظيمًا سياسيًا. وتنتمى إلى مجموعات كبرى من الأمم التى تتفاوت فى درجة نضوجها. فهناك إذن جغرافيا سياسية غير تلك التى كانت موجودة منذ سنين. وكانت لا تعنى سوى خليط من الحقائق المتيسّرة حول الإدارة، وبعض الإحصاءات التفصيلية. ولكن من هذه البداءة تفرعت وجهات نظر عديدة كان من الصعب التوفيق بينها بسهولة. أخرجها ودافع عنها أجيال متعاقبة من النظريين، اندمج آخرها فى المدرسة الفرنسية المجرّدة التى ظهرت فى القرن الثامن عشر، تلك المدرسة التى رضيت عن اعتبار الإنسان شيئًا مجرّدًا بسيطًا، والتى أقامت نظامًا هرميًا لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

وكان فى قاعدة الهرم الإنسان البدائى. إنسان منعزل، أنانى قليل الحيلة لا يسعى إلا لإقامة أوده. قاسى بالنسبة لأقرانه ولا سيما بالنسبة للضعفاء، هذا هو الإنسان الذى تحدث عنه روسو فى «رسالة عن عدم المساواة بين البشر (١)» هذا هو الإنسان بما يتّصف به من غرائز طبيعية مجرّدًا عن كل الملكات التى

Mathorez, Histoire de la formation de la nation francaise: Les Etrangers en France Sous (١)

(1) J. J. Rousseau. Discours Sur l'origine de les fondements de l'inégalite parmi les nommes,

اكتسبها خلال أجيال عديدة من التقدم والرقى. هذا الإنسان إذا جرّدته من كل الصفات المكتسبة ونظرت إليه كما أخرجته يد الطبيعية لن نجد سوى حيوان ضعيف أضعف من بعض الحيوانات الأخرى، وأقل نشاطًا من بعضها الآخر، لكنه أحسنها تنظيمًا. إننى أتخيله قابعًا تحت شجرة بلوط. يطفئ ظمأه بأن يعب الماء ويجد فيها مآرب أخرى[1]، هذه قطعة من أدب روسو الرائع ولكن مَن يستطع الآن أن يروىَ آراءه، وهو مطمئن؟

هذا الإنسان الطبيعى الإنسان الأول ـ الإنسان كما أوجدته الطبيعة ـ يعيش وحيدًا إذ لم يكن هناك شيء يسمى مجتمعًا ذلك الوقت. وعندما بدأ يتكون المجتمع كان لغرض تزاوجى. أى اجتماع ذكر وأنثى ثم الأولاد ـ وكان هذا المجتمع كما تصوّره روسو فى الفصل الثانى من «العقد الاجتماعى مجتمعًا قلقًا مضطربًا غير آمن «أن أقدم المجتمعات وأكثرها قرنًا هو طبيعى ـ هو مجتمع الأسرة ـ حيث لا يرتبط الأطفال بوالدهم إلا وهم محتاجون لحمايته. وما إن تنقضى الحاجة إلى هذه الحماية حتى ينفضوا من حولها. وحتى يصبح الأب وقد ألقى عن عاتقه عبء العناية بأطفاله ويصبح الأطفال وقد تحرّروا من واجب الولاء لوالدهم فيستقل بعضهم عن البعض الآخر. وإذا ظلوا بعد ذلك متحدين فإنما يرجع ذلك عن رضا واختيار وليس عن اضطرار وضرورة. فتبقى روابط الأسرة بالاتفاق، ومن هذا نرى أن الأسرة هى النموذج الأول للمجتمع السياسى.

هذا هو رأى روسو. وإذا كان صاحبنا قديمًا، فما قولك فى فوستيل دى كولانج الذى يصف الأسرة فى كتاب «المدينة العتيقة». وكيف تتكون وكيف تنمو فيقول: «إن الأسرة فى الأزمنة القديمة، كانت تتكوّن من رأس الأسرة وأطفالها وخدمها ومَن يلحق بها من التبع[2]، وربما كانت تشمل عددًا كبيرًا من الأفراد» يقول فى موضع آخر: «إن السلالة الآرية كانت تتكون من عدد لا حصر له من أمثال هذه الأسرة» وأنها تكونت فى غضون قرون عديدة متعاقبة[3]. ويجب أن نتذكر أن

(1) J. J. Rousseau. Discours sur l'origine de les fondements de l'inégalite parmi les nommes, 1ere partie.

(2) Fustal de coulanges, la cité Antique- Etude sur la Cult, le Droit, les Institutions de la Grece et de Rome, Paris, 1925 B II, ch. x, la gens à Rome. "p. 130.

(3) نفس المرجع ٣ و١٢٣.

معظم الجغرافيين ـ ولا سيما فى فرنسا ـ كانوا فى الأصل مؤرخين»، ويقول نفس المؤلف فيما بعد: إن هذه الآلاف من الجماعات الصغيرة، كانت تعيش منعزلة لا يربط بعضها بالبعض الآخر سوى علاقات قليلة متبادلة. ولا يحتاج بعضها إلى البعض ولا تربطها رابطة دينية أو سياسية لكل منها إقليمها الخاص وحكومتها الداخلية الخاصة. وآلهتها الخاصة «ولذلك ظلّت الأسرة والجنس (Gens[(١)]) بالمعنى اللاتينى صورة المجتمع الوحيدة، ثم حدث اتحاد تدريجى بين الأسر نتج عنه ما يسمى باللغة الإغريقية (Phratria) وباللاتينية (curia[(٢)]) أى العشيرة، ومن ترابط هذه العشائر تكوّنت البطون ومن ترابط البطون نشأت القبائل[(٣)]، وبعد ذلك اتحدت القبائل وتكوّنت من تنظيمها الأمة آخر الأمر. هذا التطوُّر بسيط ومنطقى ومقبول فلا سبيل لنكران نمو المجتمع البشرى فهو لم ينم «كالدائرة تنزاح رويدًا رويدًا فى كل اتجاه[(٤)]، وقد وضح فوستيل ذلك بكل جلاء بطريقة تحليلية سليمة. وبين أن الأمة تكوّنت بطريقة تشبه طريقة تكاثر الخلايا. ترابط مجتمعات ذات أصول واحدة. متشابهة فى طريقة تكوينها ثم اتحد بعضها بالبعض الآخر وأخيرًا تكوّنت المدينة عن طريق الاتحاد التضامنى.

إننا نعلم أن كثيرًا من العلماء المحدثين قد هاجموا هذه النظرية. ويكفى أن نذكر منهم إدوارد ماير فى الجزء الأول من كتاب تاريخ العصور القديمة [(٥)] Geschichte des Altertums، ولكنها لا تزال عالقة فى كثير من الأذهان.

أهم حقيقة اجتماعية لدى كثير من أساتذة بعض المدارس الاجتماعية هى الأسرة [(٦)]، التى تكون أصول الروابط الاجتماعية ـ دون الروابط الاقتصادية أو

---

(١) هذا هو عنوان الفقرة الثالثة للفصل العاشر من الكتاب الثانى، المرجع السابق (ص ١١٩).

(٢) نفس المرجع ٢ و١٢٣.

(٣) نفس المرجع ٣ و١٣٥.

(٤) نفس المرجع ٣ و١٢٣.

(٥) ترجمه إلى الفرنسية ماكسيم دافيد (٥٠) ص١ الجزآن (٢ ـ ٤). (٣) من أمثال هؤلاء، G. Richard
Nations elementaires de sociologie, Paris, Delagrave, 3 ed. 1904

(٦) فوستيل المدينة العتيقة ٢، الفصل الثامن، ص ٩٤ قارن أيضًا:
Schmoller, G. Principes d' Economie politique, Platon, Vol. II. p. 27 et seq.
حيث وصف بعبد للأسر الأبوية الكبيرة.

الدينية ـ أو يجد هؤلاء دعائم جدلهم فى نظم الأسرة الإغريقية والرومانية القديمة عدا الأتباع وكان أفرادها أكثر ارتباطًا بعضهم بالبعض الآخر، من أفراد الأسرة الحالية. وكانت للأسرة أملاكها الخاصة كما كانت لديها سلطات واسعة على أفرادها وعلى ممتلكاتهم فكانت بذلك أشبه ما تكون بالملكيات الصغيرة (١).

ومن ثم كان من السهل أن نتصوّر أن ارتباط أمثال هذه الأسر واتحادها كان ينتهى إلى تكوُّن الدول نفسها.

وتميل الإحصاءات إلى تأييد ذلك، ففى مجتمعات الأسر الحالية فى دول غرب أوربا يقل عدد الأسرة وينقص نقصانًا مستمرًا. ولم تكن الحال كذلك من عهد قريب ـ أى قبل اتخاذ عادة تحديد النسل فى منتصف القرن الثامن عشر (٢) ـ فقد كانت الأسر أكبر عددًا منها فى الوقت الحاضر، ويرى علماء الاجتماع ـ معتمدين على عدد كبير من الإحصاءات غير الموثوق بها ـ أن هذه حقيقة لا جدال فيها ـ ولكن ألا ينبغى أن تشير إلى حالات الخصب الفردية (٣)، ولا سيما بعد أن نستطيع أن نصل إلى متوسطات موثوق بها عن عدد أفراد الأسرة فى الأجيال المختلفة، وماذا يجدى بحثنا أمام السراب القديم عن «الزمن الغابر السعيد»، وبالرغم من هذا فهناك مَن استطاع مقارنة الأحوال فى الأمم التى ظلت بعيدة عن تيارات المدنية الغربية وربطها بالأحوال التى كانت تسود غرب أوربا قبل القرن الثامن عشر فى أكثر الأمم تحضُّرًا فى الوقت الحاضر تلك التى يسميها روسو أكثر الأمم فسادًا يتراوح متوسط عدد أفراد الواحدة من ٣,٥ ـ ٤,٥ (حسب تقديرات سالفيونى الدقيقة)، كما أن هناك عددًا كبيرًا من الأسر التى يقتصر عدد أفرادها على واحد فقط. أمّا فى أيرلنده فقد يصل عدد أفراد الأسرة إلى خمسة كما يصل فى بلغاريا إلى ستة أفراد.

---

(١) Mathorez, Histoire de là formation de la nation francaise: Les Etrangers en France Sous l'ancien regime, Paris. 1919 Vol.I.P. 9 et seq.

(٢) نفس المرجع، ص ٤ وما بعدها.

(٣) ارجع إلى كتابى فيليب الثانى عن تناقص عدد أفراد الأسرة.
Philippe II et la Francne, comtè, Paris 1919. p. 107.

والأسرة تعرف «بجميع الأفراد الذين يضمهم سقف واحد» (فى الأصل يستدفئون من مدفأة واحدة - وهنا يشير المؤلف إلى تعدُّد معانى كلمة مدفأة أو نار ودلالتها عند المؤرخين وعند الإحصائيين)، وهى تشمل الأسرة وخدمها وأتباعها الذين يشتركون فى «مدفأة واحدة وفى ماعون واحد» حول رب الأسرة. وهذا يغير فكرتنا عن عدد أفراد الأسرة الفعليين فى الماضى - ومقارنتهم بالحاضر ولا سيما بعد اختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية. وكانت الأسرة القديمة بهذا الوضع مجتمعًا قائمًا بذاته، يتبادل أفرادها المنفعة - ويقسمون العمل فيما بينهم وبذلك كانت أيضًا مجتمعًا اقتصاديًا كاملاً كذلك: تلك هى النظريات التقليدية عن الأسرة ولكنها ليست مرضية تمامًا.

- ٢ -

قدم التجمعات القومية

ليس من السهل أن نتأكد ما إذا كانت الأسرة سابقة من حيث الزمن لما هو أكبر منها من الجماعات المعقدة. ولكن ماذا نفهم من تعبير الأسرة؟ هل وجد شخص ما زوجين يعيشان منفردين حياة بسيطة «طبيعية» مجرّد اتحاد رجل وامرأة؟ فتلك الوحدة البسيطة المثالية التى يظنها بعض الكتاب. مع مثيلاتها - هى لبنات البناء الاجتماعى - بل الأصل الذى تكاثر وتكون منه البناء الاجتماعى؟

إذا رجعنا إلى التاريخ فى أبعد عصوره قدمًا - فلن تجد إلا مجتمعات منظمة من رجال ونساء - خاضعين لنظم وتقاليد معيّنة لهم حقوق معيّنة وعليهم واجبات بذاتها. فهل هذه الالتزامات «طبيعية» وهل هذه النظم ترجع إلى «الطبيعة»؟

لن نستطيع أن نجد الأسرة الطبيعية التى أشار إليها هؤلاء الكتاب إلا فى النادر. وذلك لعدة أسباب منها؛ أن تلك الأسر ليست متشابهة فى كل مكان كما ينبغى أن تكون إذا كانت نظمهم قد أظهرتها «الطبيعة البشرية» المتشابهة فى جميع البشر - ثم ما هو الشىء «الطبيعى» الذى يحملونه فى حنايا ضلوعهم هل الطبيعى أن يكون نظام الأسرة أبويًا - أى تخضع الأسرة لسلطان الأب. أم تخضع لسلطان الأم وهل الطبيعى ما نجده فى بعض الأسر من توقير كبار السن وتمييزهم أم ما نجده فى بعضها الآخر من تقدير الشباب وتمييزهم اجتماعيًا»؟

كيف نستطيع أن نفسر العلاقات بين الأطفال وبين والديهم إلا عن طريق الإشارة إلى الحقوق والواجبات وهى متعددة الأصول والنشأة؟ وكيف نفسر تعدد الأصول هذا الذى يفصح عن نفسه فى كل مكان بنفس الأسلوب وينتهى إلى نفس

النتائج داخل الجماعة الواحدة بينما يفصح عن نفسه بأسلوب آخر وينتهى إلى نتائج أخرى فى جماعة أخرى؟

أين نجد هذين الزوجين البدائيين، رجلاً وامرأة «اتحدا طبقًا للطبيعة» ينجبان أطفالاً «طبقًا للطبيعة» أيضًا حيث يظل الأطفال تحت رعاية والديهم «طبقًا للطبيعة» ويكونون أسرة «طبيعية» وبذلك تكون أول «خلية» اجتماعية؟ ليس هذا سوى محض خيال ووهم من أوهام التأمل. إن النوع البشرى قد استغرق وقتًا طويلاً ليوجد بينهم تلك الرابطة أو العلاقات السببية التى تبدو لنا فى غاية السهولة بين الاتصال التزاوجى وبين الحمل والولادة الذين تفصل أحدهما عن الآخر فترة زمنية معيّنة[1]. ولكن عندما عرفت هذه العلاقة السببية، استغلت هذه المعرفة إلى أقصى حد فى التنظيم الاجتماعى نفسه وتحليل «ماير» لهذه الظاهرة دقيق ومقنع وهو يبيّن لنا كيف أن الكثير من الجماعات البشرية التى يعتبرها كثير من الكتّاب أسس النظم الاجتماعية والسياسية جميعًا، لم يرتبط بعضها بالبعض الآخر إلا ارتباطًا تقليديًا بحكم العادة وما تواضعت عليه من عرف، وأنه لا يعتمد تكوينها على أسس القرابة إطلاقًا. وقد لاحظ كل الحالات المعاصرة والتاريخية حيث لا يعتبر العلاقة البيولوجية بين الوالدين والأطفال رابطًا أساسيًا لتكوين الأسرة ولكن هذه الرابطة تقوم عوضًا عن ذلك على روابط رمزية، مثل التآخى فى الدم أو التبنى أو إنجاب الأطفال بطريق بديل للزواج.

وبالرغم من ذلك فإن الفكرة السائدة عن هذه الجماعات أنها ناشئة عن علاقات الرابطة البيولوجية بين الأطفال والوالدين، وأنها جميعًا ترجع إلى جدٍّ واحد مشترك انحدرت من صلبه. إن ما يقوّض تلك الفكرة الغامضة عن الإنسان الطبيعى البدائى، ما أثبتناه من أن الطفل فى الأسرة عند بعض الجماعات البدائية ليس الابن «البيولوجى» لوالده وإن كان ابنه أمام القبيلة وعاداتها، «هذا هو رأى ماير» وهو يقص على هؤلاء ما يتوهّمونه من أن جميع النظم فى أنحاء العالم كلها قد نتجت على هذا الأساس الذى ثبت أنه غير ثابت فى كل مكان.

---

(١) عن معانى كلمة «النار» المختلفة ارجع إلى Sagnac, Rev. Hist. Moderne et Contem p. oct. 15. 1904.

ليست الأسرة شيئًا «بدائيًا» أو بسيطًا حتى عند أقل الشعوب تقدمًا ولا يمكن تنظيمها إلا عن طريق تدخل قوة جماعية هى الدولة.

وليس معنى الدولة ـ كما يقول ماير ـ حكومة منظمة بل مجتمع من طبيعة السياسة أن يفرض التزامات معيّنة على أعضائه فى مجالات ثلاثة ـ الحقوق ـ والعادات ـ والنظام الأخلاقى. ويعتمد فى ذلك على استقلاله النسبى عن المجتمعات الأخرى التى تحيط به. هذا المجتمع السياسى بمعناه الواسع موجود فى كل مكان حيث يوجد بشر. فإلى هؤلاء البشر فى جماعاتهم المختلفة يرجع تكوين المجتمع الذى ينظم العلاقات المختلفة لأفراده، علاقات الأسرة ومجتمعات القرية ـ هذه المجتمعات التى تسمى بالبدائية تقوم بهذه الوظائف جميعًا.

ولهذا تختلف المجتمعات وتتفرّع فى الشكل وفى النفوذ ـ من القبائل إلى البطون إلى العشائر إلى الأسر يشمل بعضها البعض الآخر. وتتبادل المنافع والمصالح. وليست الأسرة إذن «الأشكال السابقة للتنظيم السياسى أو السابقة للتنظيم الاجتماعى وليست الذرات التى حدث من تجمعها وتكتلها الدولة السياسية ليست خطوة سابقة فى التطوّر السياسى المعروف الآن الذى انتهى إلى تكوين الدولة» كما يقول فوستيل دى جولانج فى كتابه «المدينة العتيقة» بل الذى حدث هو العكس فليست البطون أو العشائر أقسامًا فرعية للدولة أو القبيلة «ليست الدولة نتاج هذه الأقسام بل هى جميعًا ـ على العكس ـ نتاج الدولة» أى أن الدولة هى التى نظمت هذه الأقسام الفرعية.

وأكثر من هذا فإذا كانت الأسرة نظامًا بسيطًا بدائيًا فيجب أن نعترف بأحد أمرين ـ إما أن البشر جميعًا قد وهبوا صفات معيّنة فطرية غير متغيّرة، وفى هذه الحالة يجب أن تترك أثرها على كل مجتمعات الأسر فى جميع الأزمنة وفى جميع الأمكنة، ويجب أن نرجع إلى هذه الصفات الفطرية كل خصائص الأسر فى العالم كله. وهذا شىء مستحيل لتناقض صفات المجتمعات الأسرية من الأسرة الأبوية إلى الأسرة الأموية، ومن تباين تكوين الأسر وحقوق وواجبات أفرادها كما لاحظ علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع. وإما أن مثل هذه الصفات والخصائص الفطرية غير موجودة إطلاقًا، وهذا أيضًا غير صحيح. إذ كيف

يمكن أن نتجاهل شهوات الأفراد وغرائزهم التى شكلت المجتمعات البشرية أشكالاً عديدة لا حصر لها؟

فى الواقع إن البناء الاجتماعى لا يعتمد على رغبات الأفراد وأهوائهم حتى فى الشعوب البدائية، بل إنها جميعًا تمتاز بالاستقرار والتجانس فى الحضارة التى تتصف بها (داخل القبيلة الواحدة) بالرغم من تباينها واختلاف نظمها فى الأماكن المختلفة ـ أو هذا على الأقل الذى استطعنا أن نصل إليه فى هذا الموضوع الغامض.

فمن المعروف تمامًا أن صناعات المجتمعات قبل التاريخ كانت تنتشر فى جهات واسعة، فالصناعة المجدلينية مثلاً كانت تمتد من شمال إسبانيا إلى روسيا عبر فرنسا وبلجيكا ووسط ألمانيا والمجر والنمسا وبولندا. ونحن لا نستطيع أن نتأكد من عناصر هذه الحضارة فى جميع هذه الأنحاء. وكان دى مورجان محقًا عندما حذّر الباحثين من خطر التعميم [1]، وإطلاق الأحكام العامة. إلا أنه لدينا من المعلومات ما يشير إلى حلّين لهذه المشكلة أحدهما: أنه فى زمن متقدم كانت هناك مجتمعات بشرية وجماعات بشرية عديدة منتشرة انتشارًا كبيرًا. والآخر أنه كانت هناك علاقات منظمة سريعة قد نشأت بين هذه المجتمعات والجماعات البشرية.

كما أن الدراسات اللغوية تنتهى بنا إلى نفس النتيجة، وإن كان ذلك عن طريق آخر، فقد تصوّر المؤرخ كاميل جوليان (Camille Julian) فى كتابه تاريخ الغال (Historie de la Gaule) وفى محاضراته فى كلية فرنسا عصرًا قبل تاريخى كانت قد تكوّنت فيه أمة منظمة ـ وليس مجرّد قبائل تهيم على وجهها على غير هدًى. أمة تتسع وتسيطر وتمد نفوذها فى كل اتجاه من وطن معيّن. ومن أمثال هذه الأمة الأصلية الأمة الهندية أوربية أو الأمة الكلتية إيطالية والأمة الليجورية، ولم يتردد هذا المؤرخ فى استعمال كلمة أمة لهذا الزمن السحيق. تلك الكلمة التى قصرها المؤرخون على العصور التالية للفتح الرومانى فى أوربا [2]، وليست المسألة قاصرة على جماعات بشرية ترجع إلى سلالة بشرية واحدة بالمعنى البيولوجى. بل إنه قال من عهد بعيد: إن الرابطة التى

(١) دى مورجان (١٧٥) ص ٣١ ـ ٣٢، ٧٠ ـ ٧٣.. إلخ.

(٢) عن فكرة الأمة انظر المجلة السياسية والبرلمانية ٢٥ يناير ١٩١٢، ص ٧.

تربط أفراد هذه الأمم «ليست رابطة السلالة أو العنصر المشترك [١]، ولكنها رابطة قد أوجدها الإنسان بإرادته والدليل على ذلك رابطة الدين المشترك [٢]، إذ إن رابطة الديانة القومية كان يقصد بها أولاً تكوين الأمة ثم المحافظة على كيانها. كما أن اللغة نفسها رابطة أقوى وأشد.

وهناك عالم لغوى يتحدث كما يتحدث اللغويون يستخدم نفس كلمة الأمة [٣]، فبينما نجد الآن عددًا كبيرًا من اللغات تتحدثها شعوب عديدة. تتفرّع بدورها إلى شعوب فرعية - وتتحدث لهجات متفرّعة من لغات مشتركة الأصل، فإنه مما لا شك فيه أن هذه اللغات جميعًا كانت ترجع - فى عصر سابق للتاريخ - إلى لغة واحدة وأن تعدُّد اللغات هذا دليل على تفرُّع الجماعات البشرية الأصلية وانتشار تلك الفروع فى كل اتجاه.

ويقول ميليه (Meillet): «إنه فى عصور سابقة كانت التعبيرات اللغوية المتعدّدة فى الوقت الحاضر ليست إلا تعبيرًا واحدًا - وكلما عدنا إلى الماضى كلما ازدادت اللغات الحالية - المشتركة الأصل - قربًا بعضها من البعض الآخر. وهذا دليل على وحدتها القديمة [٤].

ولا بد من وجود سياسية معيّنة أو على الأقل وحدة حضارية معيّنة لكى تسمح بوحدة اللغة [٥] «إن الاتحاد فى اللغة يدل على وجود اتحاد النظم السياسية أو الحضارية بين الشعوب التى تتحدث هذه اللغة الواحدة . لا بد أن تشعر الأمة بوحدتها قبل أن تخلق الوحدة اللغوية، وليس هناك ما يدل على وجود سلالة هندية أوربية واحدة - ولكن لا بد وأنه كانت هناك فى زمن ما فى مكان (لا مقر لها على وجه الدقة) أمة هندية أوربية) هذه ضرورة منطقية يجب أن نواجهها مهما كانت حلول المشاكل الفرعية العديدة التى تنجم أمامنا مثل أصل الجرمان أو

---

(١) فارن فيفر: تطوّر اللغات والتاريخ (١٨) جزء ٢٧، ١٩١٣، ص ٥٦.
(٢) جوليان، سبق ذكره، ص ٢٥.
(٣) فيفر، سبق ذكره ص ٥٨.
(٤) Meillet, Les Langues dans L' Europe nouvelle, Paris 1918, p. 5.
(٥) نفس المرجع.

التعبيرات البدائية الجرمانية - تلك المسائل التى أثارها فيست (Feist [1])، فحتى لو اعترفنا بأن اللغة الألمانية ليست لغة هندية أوربية فى الأصل - فإن تغير تلك التعبيرات البدائية فى الألف الأولى السابقة للمسيح كنتيجة للغزو الهندى أوربى الذى يعترف به فيست نفسه يثبت أهمية اتصال الجماعات البشرية بعضها بالبعض الآخر وأثر الهجرات البشرية فى العصور الغابرة [٢].

وهكذا نجد علم اللغات - فيما يختص بالتاريخ القديم - يعتمد على علم الآثار - وأن المؤرخين كانوا على حق عندما طلبوا منا ألا ندرس «البشر» بل ندرس مجتمعات سياسية كبرى ومجتمعات بشرية وجماعات عظيمة واسعة الانتشار - فى مساحات وأرجاء شاسعة تصبغها بحضارات واحدة متجانسة. وما ينبغى لنا أن ندهش لهذا أو لاتساع مجالات البحث، وعلينا أن ننظر مثلاً إلى الإسكيمو التى تمتد من ألاسكا حتى الشواطئ الشرقية لجزيرة جرينلند فى مسافة ٥٠٠٠ ميل. ولننظر إلى شعوب المحيط الهادى التى تمتد من جزر أيسر إلى سامو ومن جزر نيوزيلنده إلى جزر هاواى، أى مساحة تفوق مساحة أوربا ثلاث مرات. وحيث لا توجد سوى لغة واحدة فى الواقع، إذ إن أى تاهايتى يستطيع أن يفهم ويتحدث لهجات نيوزيلنده أو جزر المدكويساز أو جزر الهاواى فى ساعات قليلة.

إن جغرافية ما قبل التاريخ تلقى الضوء - إلى حد كبير - على وجود مثل هذه المجتمعات الواسعة الانتشار.

---

(1) Meillet. Introduction à' l' etude comparative des langues indo - européennes. Paris 1912. 3 ed. p 405.

(2) Feist, S. Kultur, Ausbreilung u Herkunft der indol Germanen Berlin, weidmann, 1913.

-٣-

الأقاليم المتجانسة الكبرى والتجمعات القديمة الكبرى

يرجع تكوين هذه الجماعات الكبرى المتشابهة إلى تشابه بيئاتها النسبى - ويجب أن نتصوَّر العالم القديم أكثر بساطة وأقل تعقيداً فى المظهر العام، عنه فى الوقت الحاضر. فلم تكن هناك زراعة قد حوّلت مراعيه أو سهوبه إلى حقول بعد. ولم تكن غاباته قد أزيل منها جزء كبير كذلك، ولم يكن قد تأثر بأقلمة عدد كبير من النباتات والحيوانات التى قامت بها الجماعات الأحدث عهداً - فهل نستطيع أن نستنتج من ذلك أن هذه المساحات الشاسعة المتجانسة كانت تدعو سكانها إلى أسلوب واحد مشترك من الحياة وحضارة واحدة مشتركة تدعوهم إلى المحافظة على كيانهم بأسلوب متشابه؟

ربما يعترض على ذلك بأن نشاط الإنسان لم يقتصر على مجرّد إدخال التنويع على المظهر العام لهذه الأرض. والواقع أن الأمر جد مختلف عن هذا، فإن بعض الجماعات المتدينة تميل إلى جعل زراعة الأرض متجانسة فى أقاليم واسعة، ويقول فيدال دى لابلاش عن هذا الأمر «إن الأوربى الحديث عامل لا يكاد فى إدخال عنصر التجانس فى أقاليم واسعة من الكرة الأرضية إن لم يكن الكرة كلها [(١)]. وإذا نظرنا إلى هذه المساحات الواسعة من أمريكا الشمالية حيث تقوم الزراعة الواسعة الآلية لمحصول رئيسى واحد، وإلى الزراعة الكثيفة فى الصين حيث الغابات قد أزيلت وحل محلها القمح فى الشمال والأرز فى الجنوب ثم نفكر فى تلك الثورات الحضارية الفجائية العنيفة التى أدخلت الصناعة فى كثير من أنحاء العالم، ثم نفكر فى العقبات العديدة - من حيث تعدد أنواع النباتات الطبيعية والأقاليم النباتية الكبرى فى هذه المناطق التى استشهدنا بها - والتى كان من

---

(١) فيدال (٩٥)، ص ١٠٢.

شأنها أن تعرقل إدخال حضارة زراعية واحدة متجانسة فيها - أمكن أن نبرر قول فيدال دى لابلاش هذا. هذا من العالم النباتى فقط، أما العالم الحيوانى فقد سار أيضًا فى نفس الطريق.

هناك اتجاه - على التحقيق - بين البشر المحدثين الذين هم سادة القوى الصناعية وعبيدها فى الوقت نفسه نحو التبسيط الذى يجب أن يتم على وجه ما. فللإنسان حرية الاختيار ولكنه فى الوقت نفسه يجد هذا الاختيار صعبًا ولا يلبث أن يضيق به. ولنضرب لذلك مثلاً واحدًا من مئات الأمثلة التى يمكن الاستشهاد بها. مثل الغابات الاستوائية التى لم يستطع استغلالها بعد والسبب فى ذلك وفرة أشجارها وثمارها وفرة عظيمة جعلته يضيق بها وييأس من استغلالها [1] - ها نحن أولاء بإزاء ثروة نباتية كبيرة ولكن هذه الثروة كانت السبب فى تعطيل استغلالها تجاريًا. ولنقارن هذه الثروة النباتية ببساطة الغابات فى اسكنديناوة وتجانسها، حيث لا نجد سوى الصنوبر والشربين. والشربين والصنوبر - ولا شىء غير ذلك، مما يمكن أن يعقد الصورة العامة - ومما لا يدعو إلا إلى عمل واحد يتجه إليه الإنسان بكلِّيته دون أدنى تفكير أو تردد. وقد لاحظ أحد علماء النبات الرحالة الذى كان على دراية تامة بنباتات الإقليم السودانى [2]، ثروة هذا الإقليم النباتية - وخشى عليها من الرغبة التجارية فى التجانس النباتى التى يميل إليها الذهن الأوربى، فقال «إنه يجب ألا نسمح بهذا التجانس فى هذا الإقليم الشاسع بل الأفضل أن نشجع كل إقليم صغير على إنتاج ما يمتاز به، مما لا يتوفر فى الأقاليم الصغيرة الأخرى [3]».

وهذه اللهفة ذات دلالة خاصة ولها ما يبررها «ولا سيما أمام الاتجاه الأوربى نحو التبسيط والتجانس - ولكن هل نجح الإنسان المتمدين الحديث فى هذا؟ كلا - فإن جهوده الكبرى التى يتوسل إليها بالآلات الميكانيكية والطرق العلمية الحديثة لخلق هذا التشابه العام لا تؤدى إلا إلى تجانس سطحى فقط، غير مستقر لا يلبث أن يتحطم. وهو يختلف عن هذا التشابه الطبيعى الكبير الذى كان يسود الأقاليم الطبيعية الكبرى فى الماضى.

---

(١) رافينو (١١) ١٩٠١، ص (٧٤ - ٧٥).

(٢) أوجست شيفالييه.

(٣) ذكره مارك (١١) ١٩١٠، ص ٤٥.

هناك وجهات لكل مجهود بشرى، فالفراعنة الذين استفادوا من غزواتهم فى البلاد الأجنبية بأن جلبوا إلى مصر نباتات لم يكن لها بها عهد، وبذلك استحقوا الثناء والمجد المخلدين فى جدران معابدهم وهؤلاء الذين حملوا تلك النباتات بعد دراسة منظمة لأجل استخدامها فى الطعام والغذاء والتجميل كما بين جوريه (Ch. Joret) فى كتاب عن الشرق القديم [1]، كل هؤلاء خلقوا التنويع والتجانس فى وقت واحد فى مصر القديمة، حيث إنهم جعلوا من مصر جزءًا من غرب آسيا التى استفادوا من نباتاتها. وأوجدوا شبهًا حقيقيًا بينها. وبعبارة أخرى غيروا مظهر «مصر الطبيعية» وجعلوها تشبه جاراتها الآسيوية فى الوقت الذى احتفظت فيه بمميزاتها الإفريقية الخاصة.

وقد فعل البطالمة نفس الشيء فى العصور التالية عندما استعاروا أشجار الفاكهة التى كانت تنمو من عهد سحيق فى غرب آسيا، مثل اللوز والخوخ والتوت - وبذلك ساعدوا على خلق بيئة بحر متوسط جديدة حيث تلعب هذه الأشجار دورًا رئيسيًا. ولكنهم فى الوقت نفسه أضعفوا مميزات بلادهم الأصلية التى ظلت جاهلة أساليب الزراعة الإغريقية. وهناك مثل آخر، سكان أوربا فى العصور الوسطى كانوا يضطرون إلى زراعة كل ما يحتاجون إليه فى أوطانهم الصغيرة، وفى مقاطعاتهم العديدة كل على حدة حتى يستغنوا عن التبادل مع التجار بالمقاطعات والأوطان الأخرى، فضلاً عن التجار القادمين من أوطان بعيدة. هؤلاء الذين اضطروا إلى إدخال الكروم إلى أندورا وقرى هوت كردانى Haute-Cerdagne [2]، بغض النظر عن عدم ملاءمة المناخ ملاءمة تامة، أو إلى جبال مورفان Morvan [3] أو نورمانديا [4] أو بيكاردى [5] أو حتى الفلاندز [6] وغيرها من مئات المقاطعات، إن هؤلاء جميعًا خلقوا نوعًا جديدًا من التجانس فى فرنسا. وكذلك الحال عند الفلاحين فى الجزائر الذين تعتمد رفاهية بلادهم على إنتاج

---

(١) سور (٢٣٠) ص ٢١٩.
(٢) ليفينفيل (٢٢٥).
(٣) سيون (٢٢٩) ص ١٤٩.
(٤) ديما نجون (٢٢٤) ص ٢٥٤.
(٥) بلانشارد (٢١٧) ص ٣٧.
(٦) Neumann et Partsch physikolische Geographie von Greicheniana P. 357. s.q

الزيتون والتين والكروم - اضطروا اضطرارًا إلى زراعة القمح حيث إنهم كانوا «سيتضورون جوعًا - فى فترة ما - إن لم يقوموا بزراعته بأنفسهم «كل هؤلاء غيروا من مظهر الإقليم النباتى الطبيعى - فى أجزاء عديدة من سطح هذا الكوكب». ولكن ما النتيجة التى ستخرج بها من إيراد هذه الحقائق؟ وهل معنى هذا أن نيأس من الوصول إلى توازن بين المناخين؟

لقد كانت عصور الحضارات البشرية الأولى غير بعيدة العهد بالعصور الجيولوجية السابقة، أى تلك الفترات التى كان فيها المناخ يختلف عما هو عليه الآن فى الوقت الحاضر. وكان المظهر العام فى النباتات متشابهًا فى مساحات واسعة من الأرض. كما كانت الحال بالنسبة لغابات أوربا. أمّا الآن فقد تغيّرت الحال. فى الشمال الغابات الصنوبرية ثم النفضية أما فى الجنوب فقد اختفت الغابات من إقليم البحر المتوسط. فقد اختفت من بلاد اليونان أولاً ثم من شمال إيطاليا بعد أن كانت الغابات تغطى جبالها وسهولها. فقد كانت أشجار الزان والقسطل والبلوط تغطى سهل «البو» قبل الحكم الرومانى بكثير، كما ثبت من نتائج الحفائر، وهذا مثل من آلاف الأمثلة. لقد كانت القاعدة هى التشابه فى الغطاء النباتى أما الآن فقد حل محل هذا مجرّد تشابه فى المظهر الطبيعى لأقاليم البحر المتوسط كما تبدو فى الوقت الحاضر. وهذا المثل يبيِّن حالة إقليم صغير وما حدث فيه من تغير يرجع إلى عهد حديث فقط.

ويجب ألا نغفل عن طول الفترات قبل التاريخية أو أهميتها الكبرى أو عما تركته من تراث عظيم لنا، فمثلاً لم يسد الزيتون حوض البحر المتوسط فجأة وكذلك لم تفعل الكروم بعد ذلك ولم يحل زيت الزيتون كغذاء محل الدهن الحيوانى أو الزبد فجأة ولم يحل النبيذ محل الجعة فجأة، كذلك أو بعبارة أخرى لم تخلق حضارات جديدة فجأة دون تمهيد طويل، ولم تنبثق تلك الحضارة فى طرفة عين لكى تسود كل حدود إقليم البحر الأبيض المتوسط المناخية. ولم يحتفظ الشماليون بالدهن الحيوانى واستعمال الزبد فى الغذاء إلا أنهم كانوا عاجزين عن زراعة الزيتون والكروم فى بلادهم الباردة المعرّضة للصقيع فى الشتاء [1].

---

(١) Besnier, rat. oleum فى (١٦٩) ٤، ١٨٦٨١.

وتذكر الأساطير القديمة أن أرستايوس البطل الرحالة هو الذى قام بنقل هذه النباتات جميعًا إلى البحر المتوسط ومن ثم انتقلت إلى أوربا (Olea europea) ولا شك أننا غير متأكدين من التواريخ المضبوطة التى تم فيها استئناس تلك النباتات المزروعة واستنباتها - كما أننا نعتقد أن هيهن [1] قد غالى فى أهمية دين الإغريق للشرق، وفى نقل الإغريق وسكان البحر المتوسط عن بقية أوربا. ربما كانت الكروم والزيتون وأشجار التين شائعة فى بلاد اليونان أو كانت تنمو فى حالة طبيعية قبل زمن هوميروس، وربما كان فضل الشرق على الإغريق راجعًا إلى زمن أقدم من هذا بكثير. أثناء الحضارة الأيجية الكريتية [2]، وإن إدخال النباتات المزروعة فى شمال أوربا بدأ قبل الغزو الرومانى. ولكن من الواقع أيضًا أنه يجب أن نعود إلى زمن أكثر قدمًا من هذا إذا أردنا أن نتصوّر منظر إيطاليا قبل أن تحل أى شجرة كرم أو زيتون أو لوز أو برتقال أو ليمون.

ونستطيع أن نقول إن أوربا فيما عدا جنوبها الشرقى الذى تأثر بالحضارة الأيجية الكريتية كانت تتكون من أقاليم نباتية أقل تنوعًا وأقل غنى وأقل تباينًا فى نباتاتها وأشجارها منها فى الأزمنة التاريخية. ومن ذلك الحين كانت المناظر الطبيعية النباتية فيها متجانسة تبعث على الملل مما جعل الجماعات البشرية تسلك أساليب متشابهة من الحياة أو النظم الحضارية. ويجب علينا ألا نغفل عن هذه الحقيقة أو الملاحظة عندما ندرس الحضارات قبل التاريخية التى استغرقت وقتًا طويلاً. إلى هذا يرجع التجانس الغريب فى هذه الحضارات فى قارة أوربا وفى غيرها من المساحات الشاسعة. ويلاحظ فريزر - إن حقًا أو باطلاً - من دراساته الدقيقة للقبائل تشابهًا غريبًا فى الطقوس والعادات ربما كان شبيهًا بذلك التشابه الذى لاحظه رجال الآثار فى حضارات أوروبا قبل التاريخية وحضارات غرب آسيا قبل التاريخية [3].

كل هذه الملاحظات من التاريخ القديم ومن حضارات ما قبل التاريخ ومن الجماعات البدائية المعاصرة، كلها تشير إلى هذه الفكرة العميقة، وهى أننا لسنا بإزاء إنسان بدائى بل بإزاء جماعات بشرية بدائية.

---

(١) (١١٤).

(٢) شريدر (١١٤).

(٣) فريزر (١٧١) جزء ٢، ص ٤٥٥.

- ٤ -

الإنسان البدائى فى الطبيعة - المطالب والعادات

لماذا إذن يتمسك كثير من الكتاب الأذكياء بنظرية يعرضونها فى شكل منطقى محكم عن الرجل البدائى وحاجاته. وهى نظرية أقل ما نقوله عنها - إنها لا تتفق مطلقًا مع الحقائق المعروفة التى ثبت صحتها؟ لماذا يظل عدد كبير من الكتابات الحديثة يحاول أن يرفع الثوب الخلق عن كتابات روسو؟ هل من الصعب أن نعرف سلوك الرجل البدائى على حقيقته؟

إن هذه الكتابات تصوره لنا وقد أرسل إلى هذا العالم - وقد امتلأ حرية وقوة حتى انتشى بهما، مخلوقًا تملأ نفسه العواطف القوية المنطلقة - ونحن بإزاء أمرين معه، رغباته من ناحية والطبيعة من ناحية أخرى. تلك الطبيعة التى تمثل مخزنًا كبيرًا تتفتح أمامه غابات الموارد الطبيعية النباتية والحيوانية سهلة مطواعة كلها تستطيع أن تشبع جوعه وتروى ظمأه وتكسو عريه وتأويه وتمنحه الدفء. باختصار تلبى كل مطالبه وتسد كل حاجاته الضرورية - أو حاجاته الطبيعية [١]، كما يُقال لنا ولا شك أن هذه الحاجات طبيعية، ولكن كيف تُسد هذه الحاجات وبأى أسلوب؟

إن غرضنا الآن هو أن نبيِّن إلى أى حد يبدو الرجل البدائى عبدًا للطبيعة فى تقيده للعادات، وتشمل حركة الانطواء تحت عرف معيّن يخضع له الرجل المتمدين. فالبدائى مخلوق مكون من حزمة عادات والعادة هى التى تتحكم فى كل تصرفاته. فهى مثلاً تتحكم فى هجرات الإسكيمو فى شرقى جرينلنده - بعضهم يهاجر إلى الشمال - وبعضهم يهاجر إلى الجنوب [٢]، والعادة أيضًا تفسّر

(١) برين (٦٧) ص ١١.

(٢) بوشا فى (١٦) ١٩٠٦، جزء ١٧، ص ١٨١.

الأساليب الضيقة التى يسلكها البدائى فى إشباع حاجاته البسيطة، ولنذكر حاجة أولية واحدة وهى الطعام.

ولقد كانت القبائل فى العصر الهومرى ـ كما يحب فيدال دى لابلاش أن يقول ـ تنقسم حسب فكتور بيرارد ـ طبقًا لنوع الطعام السائد بينها فكانوا إما آكلين للحم أو آكلين للسمك أو آكلين نباتيين.

ولا شك أن طعامهم كان زيتيًا ـ وكان كذلك لأنه لم يكن متروكًا لكل فرد أن يأكل ما يريد، ولكن اختيار الطعام كان خاضعًا للرقابة الاجتماعية ـ بل والضغط الاجتماعى ـ وإلا فكيف نفسّر إهمال بعض القبائل فى تربية الماشية وجهلها وقتًا طويلاً قيمة اللبن الغذائية؟ وكيف نفسّر إهمال بعض القبائل أنواعًا معيّنة من الطعام إهمالاً غريبًا وأكثر من هذا عزوفها عن تجربة ألوان جديدة من الطعام؟

منذ زمن غير بعيد ـ كان أهل مدغشقر لا يأكلون لحم البقر، ويقول دوروري إنه رأى بعض الماشية لا تقوى على السير، فبعضها يقعده العجز والشيخوخة عن السير والأخرى يقعدها الإفراط فى السمنة «وتذكر القصص الملاجيسية الشعبية» قصة الملك رالامبو الذى رأى فى أحد الأيام بالقرب من أنتمانانا ناريقو عجلاً جدًا «تكاد تزهق روحه السمنة» فخطر بباله أن يستسيغ لحمه طعامًا ـ فاقترب من وراء ظهره بحذر خشية أن يصيبه زفير الثور بأذى وطعنه طعنة نجلاء وشوى لحمه وكانت لشوائه رائحة مغرية ولكنه خشى أن يكون لحمه ضارًا ـ ولم يقربه حتى أطعم منه أحد عبيده وتلك قصة شعبية ذات مغزى. .

لقد كان رالامبو من القوة والسلطة بحيث يقوم بتجربة طعام جديد، ولكن عامة الشعب ما كان لهم أن يقدموا على مثل هذه التجربة ـ فعالم البدائيين تطوف به الأرواح التى تسكن نباتاته وأشجاره وكل الغطاء النباتى عامة.

وقد استطاع فريزر أن يسجل عددًا كبيرًا من العادات والتقاليد التى تبيّن الرابطة القوية ـ فى اعتقاد البدائيين[1]، بين حياة الإنسان وحياة النباتات، وكيف أقنع هذا البدائى نفسه بأن هلاكه رهين هلاك هذه النباتات. ويقوى هذه

(١) جونتييه (مدغشقر)، ص (٣٥٨ - ٣٥٩).

المعتقدات اعتقاده فى الأرواح ـ وهذا يفسّر لماذا يحجم الهيداستو من هنود أمريكا الشمالية الحمر عن قطع الأشجار الضخمة ـ وهم يسدون حاجاتهم من الأخشاب الكبيرة ـ بقطع الأشجار الضخمة التى تكون قد سقطت فعلا [1]، ونفس الحال تظهر لدى الوطنيين بالنسبة للأشجار ذات الثمر النافع كغذاء. كأشجار الكاكاو فى غرب إفريقيا فقطعها يعتبر جناية كجناية القتل ـ هذه هى الفكرة الأساسية التى تسيطر على البدائيين. وليست فكرة «المنفعة» التى يتمسك بها المفكرون الغربيون ـ والتى يحاولون أن يفسروا بها كل المظاهر الاجتماعية والاقتصادية ـ ويقول منيود عند حديثه عن وجود رجال متخصصين لحراسة النباتات المفيدة لدى قبائل السودان (مثل الموسى): إن استغلال الأشجار لدى هذه القبائل غير المتمدينة ليس استغلالاً أعجميًا [2]، ولا شك فيها ولكن ليست الفائدة أو المنفعة هى التى تحمى الأشجار ولكنه الدين ـ فهناك أشجار عديدة لا حصر لها ـ تحيط بها القداسة لدى كثير من الشعوب فى جهات عديدة من العالم. وبذلك تتمتع بالصيانة والبقاء. ومن الغريب أن بعض القبائل إذا اضطرت إلى قطع الأشجار تلتمس الأعذار لهذا العمل. وبذلك تلقى باللائمة على غيرها ـ عند قطع هذه الأشجار.

ومن هنا لا نعجب إذا كانت «الآراء» تتدخل كثيرًا فى ضبط غذاء الإنسان وأن العرف الاجتماعى طالما يقف دونه وما يأكله. وفى هذه النقطة أيضًا نجد أن المعلومات والحقائق التى جمعها فريزر لها قيمتها فى الإيحاء بالأسباب ـ الاجتماعية ـ وفى الإقناع بها ـ فهناك مثلاً الاحتفالات الخاصة لدى بدء استهلاك محاصيل القمح الجديدة فى أوربا [3]، ومحاصيل الأرز فى جزر الهند الشرقية ـ والهند ـ والهند الصينية ومحاصيل اليام على ضفاف نهر النيجر ـ وتقديم الفواكه الجديدة لدى الكافير والزولو وهنود أمريكا الشمالية الحمر ـ ويقول فريزر [4]: إن الهندى الأحمر لا يقرب محاصيل الفواكه الجديدة ـ أو

(١) نفس المرجع السابق، ص ٥.
(٢) منيوه (١٨٣)، جزء ١، ص ٢٦٥.
(٣) فريزر (١٧١) جزء ٢ فصل ٣، ص ٧٥ وما بعدها.
(٤) نفس المرجع ص ٨٨.

الحبوب الجديدة قبل الاحتفال التقليدى بذلك، ويختار النجم عند الكورج بجنوب الهند الرجل الذى يحصد أول حزمة من سنابل الأرز الجديدة ولا يسمح لبقية الأفراد فى القبيلة العمل فى حصد الأرز إلا بعد احتفال تقليدى مهيب. ولا تزال بقايا هذه العادات موجودة حتى الآن فى فرنسا - أليس الفلاحون الفرنسيون يقومون باحتفالات خاصة عند بدء جمع محصول الكرم وعند الإنتهاء منه؟ وربما يُقال إن المنفعة هى التى تسيطر على الفلاحين الفرنسيين؟ ولكن قطعًا لم يكن الأمر كذلك عند فلاحى شرقى فرنسا أو فرانش كونتيه مثلاً عندما يحتفلون «بقتل القطة» فى ميعاد الجمع للكرم. ولا بد أن أصل هذه العادة يرجع إلى عهد بعيد جدًا. وقد وصف فريزر هذه العادة وصفًا دقيقًا.

لقد تحدثت حتى الآن عن القيود الاجتماعية والدرجة التى تشل حرية الإنسان فيما يختص بالعالم النباتى والآن فلننظر إلى عالم الحيوانات وإلى تلك الحقائق الغريبة التى تكتنف سلوك الإنسان البدائى نحوه والتى تلقى ضوءًا باهرًا على العلاقات بين الإنسان والبيئة - ونحن نعرف قصة الدببة والإينو (1). فالإينو يعيشون على الدببة فهم يأكلون لحمها طازجًا أو مجففًا أو مملحًا وهم يكتسون بجلدها ويدفعون ديونهم بفرائها ولكنهم عندما يقتلون دبًا يقيمون احتفالاً مهيبًا ويضعون جماجم دببهم التى يقتلونها فى مكان الشرف من خيامهم. وفوق هذا يحتفلون احتفالاً تسوده الهيبة والروعة كل عام - مقدمًا لأرواح الدببة. ولا ينفردون وحدهم فى هذا، فالجلياك وهم لدى قبائل التونجوس فى سيبيريا الشرقية يعيشون على لحم الدببة ولكنهم يحيطون ذلك بالكثير من التقاليد محترسين الا يخرقونها وإلا أصابهم الشرر من لحمه كما يعتقدون - وعليهم أن يخدعوا الدب حيًا بما يقدمونه له من ضروب الاحترام والإجلال - وعندما يقتلونه عليهم أن يقدسوا روحه التى غادرت جسمه.

وبالرغم من أنهم يأكلون لحمه كما يأكله الاينو بتقديس كبير فإنهم لا يرحموا الدب المسكين ويتركونه لحال سبيله - ولكن الرجل البدائى يختلف عن الإينو فى سلوكه نحو الحيوان. إنه لا يقتلها لأنه يخشى أرواحها. وهناك أمثلة كثيرة على

(1) فريزر (171) جزء 2، ص 141، وما بعدها.

ذلك فيما يختص بسلوكه نحو التماسيح [1] والنمور [2] والثعابين [3]، ولكنه إذا اضطر لقتل حيوان ما، فهو يلتمس المعاذير لإقدامه على هذه الخطيئة الكبرى. وكلما كان الحيوان أكثر توحشًا ـ أو كلما كان لحمه أطيب مذاقًا، كلما ازدادت معاذير الإنسان نحو قتله.

أما الحيوان الضعيف الذى لا قيمة فيه والذى لا يؤكل لحمه ـ فهو الذى يقتل دون أدنى اعتبار.

هذه بعض الحقائق العامة المنتشرة بين القناصين وبين صيادى السمك فى أمريكا، كما هى فى آسيا أو إفريقيا أو فى المناطق القطبية. والبدائى لا يقرب طعامًا دون أن يسبق اختياره إياه تفكير. وهو يعيش فى مجتمع تسوده المحرّمات والقيود والمحظورات. حتى ولو تنوع الطعام. فلا بد من مراعاة أصول معيّنة خاصة بتناوله [4]. فالإسكيمو المتوسطون مُحرّم عليهم أن يجمعوا بين صيد البر وصيد البحر فى طعام واحد. ومُحرّم عليهم أن يجمعوا تحت سقف واحد صيد البر أو صيد البحر من أسماك أو حيتان، وفى جزر سليمان مُحرّم على من طعم لحم الخنزير أو سمك أو قواقع أن يدخل حديقة خضراوات. وفى بعض الجهات الأخرى يبلغ الحرص بالناس على أن لا يجمعوا بين أكثر من طعام ـ لدرجة أن حتم عليهم أن يتطهروا كلما أرادوا أن ينتقلوا من طعام إلى آخر. والشباب المحارب عند الماساى، وهم قبيلة رعوية فى شرقى إفريقيا عليهم أن يأكلوا اللحم يومًا واللبن يومًا آخر، ويتطهروا باستمرار عندما ينتقلون من طعام إلى طعام.

والآن فنلخص ما أسلفناه ـ أن الرجال الاقتصاديين يرون أن كل العمليات الاقتصادية وما إليها تقوم على الفائدة والربح. وأنها جميعًا نتيجة سلسلة طويلة من التقديرات والعمليات الحسابية والمقارنات بين الحاجة التى يشعر بها الإنسان وبين الثمن الذى يدفعه لسدها ـ ولذلك كثيرًا ما كانت الوقائع الاقتصادية تفتعل

---

(١) نفس المرجع، ص ١٥٩.

(٢) نفس المرجع، ص ١٦٥.

(٣) نفس المرجع، ص ١٦٧.

(٤) نفس المرجع، ص ٧٠ وما بعدها.

أفعالاً بالطريقة التجريبية الاقتصادية التى كانت تعالج بها أمور حاجيات الإنسان ومطالبه ـ تلك الوسيلة التى تعتمد على اتجاه عام لدى مدنيتنا الحديثة نحو اختصار كل نشاط بشرى وقصره على عوامل مجرّدة قليلة مثل «الحاجة» إلا أنه كان هناك بعض الأذهان النيّرة ـ مثل ذهن كارل بوشر [1]، وغيره من الكتاب، الذى رأى من زمن طويل ـ أن الطبيعة الاقتصادية «تختلف من رجل إلى آخر». فهى مسألة متعلقة بالتربية والعادة. وهى ليست واحدة بين كل البشر وليست واحدة بين كل طبقات المجتمع ـ ولسنا فى حاجة إلى أن نذكّر القارئ بالفرق بين أفراد الطبقات الدنيا والتى تقبل ـ إذا أتيحت لها الفرصة ـ نحو الشراء ـ وبين أفراد الطبقة الوسطى أو التجار الذين لا يقبلون على الشراء إلا بعد تدبر وتقدير ـ ولا ريب أن المقابلة بين الرغبة وبين الثمن الذى يدفع لإشباعها ليست واحدة بين أفراد كل من الطبقتين ـ وعلى الجغرافيين أن يلاحظوا هذا وألا ينساقوا وراء رجال الاقتصاد فى طريق خطر.

ويجب عليهم أولاً وقبل كل شيء ألا يدّعوا «الإنسان» يذوب أو يضيع فى «الطبيعة» حيث يصوّر فى جنة أرضية جميلة ـ دانية القطوف تمده بكل ما يحتاجه لحياته ـ وما عليه إلا أن يمد يده كى يسد مطالبة من عالم النبات والفواكه ـ وما تزخر به من أسماك وحيوان مستأنس ولبن وعسل .. إلخ. «الإنسان» ـ «الإنسان المجرّد» ذلك النوع الجغرافى الذى يجب عليه أن يطعم عليه ويقدر على أن يلتهم كل شيء دون تمييز ـ والذى يستفيد بكل ما تقدمه له البيئة من إمكانيات ـ هذا المخلوق لا وجود له ـ عند أصحاب النظريات ويقنعون بالحبوب أو الأسماك. بالرغم من أنهم رعاة [2]، والمائدة شهية حافلة بكل أصناف الطعام ـ لدى النظريين ـ ولكن الواقع غير ذلك. وقد لاحظ جاكمونت أن السيبوى فى الهند لا يشتركون معًا فى الطعام بل ولا يشتركون معًا فى نوع الطعام نفسه.

حينما يوجد «إنسان» و«موارد طبيعية» توجد أيضًا «أفكار ومُثل» تتدخل باستمرار بين استغلال الإنسان للموارد الطبيعية وكثيرًا ما تتجرّد المثل والأفكار

---

(١) بوشر (١٦٨) ص ٢.

(٢) عن هذه النقطة قارن هاهن ١١٢، فقرة ٥ Die milch und die Enistehun g der uirtschaftlichen Verwert ung der Milcn p. Iq' sq.

عن القيم النفعية ـ وهذه الأفكار لا تتحكم فقط فى نوع الطعام الذى يقبل عليه الإنسان ـ بل فى نوع الملبس الذى يلبسه والمسكن الذى يشيده بل فى حياته المادية كلها. «ففى ساحل مالابار لا يزال بعض الناس يفضلون العرى على أن يمس جلودهم كساء [١]»، ولماذا نذهب بعيدًا ـ وهذا هو مؤلف ميشليه تاريخ القرن التاسع عشر ـ الذى لا يقرأه أحد رغم أنه لا يزال حافلاً بالآراء المفيدة. إن هذا المؤرخ يعلق على أهمية الكحول واللحم والمكانة التى احتلاها فى أصنام الطعام بقوله: «هل هذا لمجرّد تفوقهما فى المذاق؟ لا بل لما يشيعانه فى نفس الإنسان من سرور عندما يشعر بأنه قوى ـ قادر على أن يأتى بالمعجزات.

ولنعد إلى الماضى حيث نجد أن القيود الاجتماعية قد اختلطت بالقيود الدينية. إذ يحول دون رغبات الإنسان وحاجاته وبين ما هو موجود فى الطبيعة مما يمكن أن يستغل ـ الكثير من المعتقدات والعادات والتقاليد. بل أن أصل الزراعة واستئناس الحيوان ونشأتهما مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بالدين والسحر. بل إن الطقوس التى كانت ذات طبيعة نفعية ـ كانت أول أمرها «لعبقرية الإنسان الصانعة [٢]» ونحن هنا أبعد ما نكون عن نطاق الفردية. وقد كان دينكر الأنثروبولوجى على حق فى كتابه عن السلالات والشعوب عندما قسم كل ما هو متعلق بالطعام والغذاء على أساس صفات «اجتماعية». فلسنا بإزاء فرد وطبيعة بل مجموعة اجتماعية، ونحن لا نعالج كما قلنا مرارًا مسألة متعلقة «بالإنسان» ولكن المجتمع الإنسانى وطبقاته المنظمة.

وكذلك من الصعب أن نفصل «الحيوان» أو «النبات» فصلاً تجريديًا ولا بد أن نحل المجتمع محل الفرد، فيما يختص بهذه المسألة أيضًا، فالمجتمع الإنسانى بإزاء مجتمع حيوانى ومجتمع نباتى، ولكن هذه مسألة فوق طاقتنا أن نوغل فيها ويكفى أن نقول: إن البشر لم يضعفوا بإزاء مجتمعات حيوانية أو نباتية بل بالعكس ازدادوا قوة وخصوصًا فيما يختص بالنبات الذى يعيش فى مجتمعات خاصة، تمتاز بالتوازن التام. وصلت إليها خلال عملية التطوّر.

(١) بوجليه «نظام الطوائف»، جزء (١٧)، ص ١٩٠.

(٢) رايتاخ «الخرافات والأديان»، جزء ٢ ـ ١٩٠٦ المقدمة.

والإنسان بين هذه العناصر هو العامل المرجح، هو القدر الضئيل الذى يرجح كفة على أخرى، وأى خاطر يتراءى له قد يؤدى إلى نتائج عديدة، بل إلى سلسلة من النتائج بعضها يتوقف على الآخر مما يكون له أبعد الأثر فى المجتمع النباتى - فمثلاً هناك بعض الجماعات الزنجية الضعيفة التى تعيش فى الغابات وتقطع الأشجار وتقوم بتنظيف الأرض كما يحدث فى آلاف البقع فى حوض الكونغو. وتعيش فى هذه البقعة عامًا أو اثنين أو ثلاثة على أكثر تقدير. ثم تغادرها. وما إن تغادرها حتى تبدأ الأشجار فى النمو مرة أخرى. ولكنها لا تعود سيرتها الأولى فى النمو مطلقًا. إذ إن الإنسان أفسد التوازن بين الأنواع النباتية التى تحتاج إلى الظل. والأنواع التى ترغب فى الضوء. وبذلك تنمو غابة ثانوية محل الغابة البدائية الأولى. وإن هى إلا خطوة فى سلسلة طويلة من التدهور الشجرى الذى يسير فى قانون ثابت لا يتغير. فلولا ترابط الأنواع النباتية المختلفة ومعيشتها فى مجتمعات معيّنة بعضها يعتمد على الآخر فى نموه وفى حاجياته، لما أمكن للإنسان الضال فى الغابة أن يحدث هذه السلسلة الكبيرة من التغييرات فى هذا المجتمع النباتى.

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق
الإشـــراف الفــنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب